الجذور التاريخية
لقبيلة عنزة الوائلية

الجذور التاريخية
لقبيلة عنزة الوائلية

دراسة تاريخية شاملة في تاريخ قبيلة ربيعة
حتى بدايات القرن الحادي عشر الهجري

تأليف
نايف بن غانم الفقير العنزي

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ



الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

الإهداء

إلى صاحب السمو الملكي

الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود

أمير منطقة الرياض

أهدي كتابي هذا

المؤلف



مقدمـــة المؤلف

تحتل قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة مكانة هامة في التاريخ العربي المعاصر، ليس فقط لأنها القبيلة الأكثر عدداً من قبائل العرب الأخرى، بل لارتباطها بأشهر بيت عربي حاكم وهو البيت السعودي الكريم.

نتيجة لذلك فقد نوقش تاريخ وجذور هذه القبيلة كثيراً في السنوات الأخيرة، سواء في الصحف اليومية أو في الدوريات التراثية المتخصصة مثل مجلة العرب وغيرها.

ومنذ بضعة سنوات أتيحت لي فرصة اللقاء مع عدد من ابناء هذه القبيلة المهتمين بتاريخها وتراثها وجذورها التاريخية، ومن هؤلاء الإخوة الأستاذ نايف الركابي مدير ومؤسس موقع المجلة الوائلية على الانترنت، وقد أتيحت لي أيضاً فرصة الاشتراك في نشاطات الموقع الميدانية واللقاء بعدد كبير من ابناء القبيلة من رواد موقع قبيلة عنزة وزائريه مثل الأخ الأستاذ محمد عبدالله الرويلي مؤلف كتاب (بني وائل في التاريخ)، والأستاذ فايز بن دميثان الرويلي مؤلف كتاب (تاريخ قبيلة الرولة)، كذلك الأستاذ الدكتور عبدالله بن ثاني الحسني عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والأستاذ هائل بن بدر الايدا والذي كان من ابرز جامعي وثائق تاريخ عنزة المعاصرة.

وقد تُوجت هذه النشاطات بتشرفنا بلقاء أمير المؤرخين سيدي صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز حفظه الله، الذي كان لتشجيعه ابرز الاثر في ولادة هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القاري الكريم.

ولقد لمست من خلال النشاطات وورش العمل التي اقمناها باشراف موقع قبيلة عنزة أو حتى تلك المستقلة ان هناك شبهات مثارة حول جذور قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة بسب اختلاف بسيط في مشجر النسب الذي وضعه ابن الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤هـ، والذي جاء فيه الجد عنزة بن اسد عمًّا اعلى لوائل بن قاسط العمود الرئيسي في نسب هذه القبيلة، فحرصنا على ضرورة التعليل التاريخي السليم لسبب اجتماع الاسمين لقبيلة واحدة، إضافة إلى عدم وجود كتب ودراسات واضحة توضح اللبس في هذا الأمر الذي يهم القبيلة، وحاجة المكتبة الوائلية المعاصرة إلى دراسات جادة عن تاريخ القبيلة تبحث في تاصيل النسبة العنزية الوائلية المتداولة وارجاعها إلى جذورها الأولى، منطلقين من اساس كون القبيلة الوائلية المعاصرة هي امتداد طبيعي لقبيلتها الام (ربيعة) بعد عموم اسم عنزة وعزوة وائل عليها، إضافة إلى دراسة البطن الربعي القديم المسمى عنزة أو عنز والذي جاء منه اسم القبيلة الحالية كبطن من اللهازم من بكر بن وائل، وقد قسمنا المبحث إلى عدد من الفصول:

الأول - يتحدث عن الأسس التي اتبعناها في دراسة تاريخ هذه القبيلة، فصلنا فيه بطونها كما وردت في كتب الأنساب المنقولة عن ابن الكلبي وكما وردت وفق التداخلات التاريخية ورسمنا مشجرات لذلك.

الثاني - تاريخ ربيعة الجاهلي وابرز احداثه على مرحلتين: ماقبل حرب البسوس ثم ما بعدها.

الثالث - تناولنا فيه ربيعة وبطونها زمن الرسول ﷺ، واتخذنا فيه

الترتيب الذي وفدت به بطون ربيعة إلى الرسول الكريم أساساً ودليلاً على توزيع بطون ربيعة خلافاً لاتباع ما نُقل عن ابن الكلبي حرفيًّا، ثم تناولنا دور ربيعة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

الرابع - تناولنا فيه تاريخ ربيعة في العهد الاموي الأول بشقيه السفياني ثم المرواني، ووضحنا في التمهيد ميول قبائل ربيعة إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب في الخلاف الذي نشب بينه وبين معاوية بن أبي سفيان.

الخامس - رأينا تخصيص فصل لقبائل ربيعة ووضعها السياسي اواخر العهد الاموي، تناولنا في العسف المُضاد لقبائل ربيعة من قبل القبائل الموالية لبني امية وما أفرزه هذا الأمر من أمور كان ابرزها انهيار الدولة الاموية.

السادس - تناولنا فيه تاريخ ربيعة في العصر العباسي الأول، بينا فيه دور ربيعة في نشوء هذه الدولة وتأسيس ما عرف تاريخيًّا باسم بلاد ربيعة في شمال بلاد العرب.

السابع - تناولنا فيه اول دولة ربعية في الإسلام، وهي الدولة الحمدانية بشقيها في الموصل وحلب، ويعتبر هذا الكتاب اول كتاب يتم في تقديم الدولة الحمدانية كجزء من التاريخ الربعي ككل، وقد لفتنا الانتباه إلى شبه الاختفاء لمسمى ربيعة وبروز اسم عنزة الوائلية المعاصرة بعيد تفكك الدولة الحمدانية.

وفي الفصلين الأخيرين بينا مرحلة جديدة من التاريخ الربعي برز فيه اسم عنزة كنسب شامل والجد وائل كعزوة ونسب أعلى، وبروز قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة كأكبر قبيلة عربية في الجزيرة في الخمسة قرون الأخيرة، وناقشنا الأسباب المحتملة لهذا الأمر المتوافقة مع الاشارات البسيطة في مصادر شحت وندرت في هذه المرحلة التاريخية. ولسنا في

عملنا هذا ندعي الكمال، ولكننا احببنا إضافة نظرة تاريخية متصلة لهذه القبيلة وتاصيل مسمياتها الحالية، مركزين نظرنا على مسمى عنزة متتبعينه مرحلة مرحلة حتى اصبح هو الابرز، وسأل الله التوفيق والسداد انه سميع مجيب.

نايف بن غانم الفقير العنزي

توطئة

يشبه الكثير الباحث عن الأنساب بالباحث عن الألغام، وقد يكون لذلك وجهة نظر نتيجة اختلاف الناس في هذا الأمر وخاصة ان الكثيرين من المهتمين في هذا المجال.

إن النسب ليس علماً عند العرب الأصليين البسطاء، لأنه من موروثهم وجزء من يوميات حياتهم، مع الاقرار بأن غير ابن القبيلة العربية من الممكن ان يعتبر ما تعلمه عن القبيلة علماً بالنسبة له هو، فما يسمى بعلم النسب ليس له وجود في الحقيقة، ويشبه الأمر هنا مسألة الإحصائيات أو بيانات الأسماء والألقاب لتجمع بشري (اعضاء حزب) أو (أسماء لاعبي فريق كرة قدم)، فإن عرف أحد ما اسماء فريق لكرة القدم فإن هذا ليس علماً بل هو معلومات معرفية لتجمع بشري محدد على معيار معين.

والنسب في حقيقته ظاهرة مرتبطة بتواجد العرب ومجتمعاتهم المبنية أساساً على صلة القرابة بالجد الاعلى، ومن مظاهرها النعرة والحمية والإحساس الواقعي الحقيقي بالتواصل والمودة والقواسم الثقافية المشتركة مثل اللهجة والعادات والتقاليد، إضافة إلى أنعكاس هذا على تاريخهم، فإن عُلم - على سبيل المثال -ان تغلب وبكر وعنزة

من أصل واحد فلا بد أن لهذا ترجمة واقعية يحيكها التاريخ، وإلّا فهي ليست حقيقة وتصبح مجرد تخرصات لا طائل منها، وهي التي منها عزا ابن خلدون قول بعضهم (إن علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر)

ونحن لا نشك أبداً بأن كل قبيلة عربية معاصرة هي تعود لجذور العرب الأولى، وإن اختفت بعض المسميات، وظهرت أخرى، والملاحظ لقبائل العرب ومسمياتها الحالية يلحظ ان بعضها جديد في المسمى على التراث العربي القديم والذي سجلت كثير من الكتب في القرون الأولى للهجرة الكثير من اسماء القبائل وامرائها وأعلامها.

أحد أهم القبائل العربية القديمة هي قبيلة ربيعة الفرس أو ربيعة بن نزار والتي تعود قبيلة عنزة الوائلية الحالية إليها.

وليس ثمة شك أبداً في أن ربيعة تعتبر من اشهر قبائل العرب قديماً ان لم تكن اشهرها، ولم يفق ربيعة شهرة إلاّ قريش قبيلة النبي محمد ﷺ.

فلا غرابة اذن أن نجد الكثير من البحوث والدراسات والكتب عن قبيلة ربيعة وقد ملأت المكتبات، ولعل اشهر هذه الكتب هي رواية (الزير سالم) الذي انقسمت بسببه ربيعة ووقعت الحرب الوائلية بين بطني ربيعة الكبار (بكر وتغلب) واضحت حديث الناس منذ عهود بعيدة إلى يومنا هذا.

بيد أن الكثير من الدراسات لم تنحى المنحنى المطلوب والصحيح عن هذه القبيلة العربية القديمة، ولم تأتي بثمار مرجوة، ولا نستطيع القطع في العوامل التي سببت هذا، فهي تتعدد بتعدد الأهداف التي قام المؤلفون من اجلها بتأليف كتب عن هذه القبيلة العربية العدنانية..

فمن الأهداف ما هو ادبي بحت، حيث أن من المعروف ان الكثير من جهابذة الشعر الجاهلي من ربيعة، ومن الأهداف ما هو استشراقي

قام بتأليفه المستشرقون وهم عادة يكتبون عن العرب بهدف زيادة الوعي الأوروبي بالعرب قديماً وحديثاً.

اما الهدف الذي من اجله وضع هذا الكتاب هو ما قام بتأليفه بعض الباحثين المعاصرين من العرب، ويهدفون من خلاله لحصر تواجد قبيلة ربيعة المعاصرة ومسمياتها واسقاطها على قبائل من هذا الزمن تعتبر (في نظرهم) هي وريث وامتداد قبائل ربيعة، وهذه الشريحة من المؤلفين يأتي أكثر الخلط وكثرة الأخطاء من جهتهم، واخطائهم عادة ما تكون متعمدة وليست مجرد هفوات، وخاصة انهم يعمدون إلى وضع الكثير من قبائل هذا الزمن ويزعمون انتسابها إلى ربيعة أو بطونها القديمة دون ادلة أو قرائن، ويمكننا اجمال الأسباب والعوامل التي تجعل هؤلاء المؤلفين لا يتقيدون بأسلوب البحث العلمي عندما يكون مرتبطاً بقبيلة ربيعة:

١- رغبة هؤلاء المؤلفون بترجيع نسب قبائل معاصرة لربيعة دون سند تاريخي أو لمجرد تشابه الاسماء والديار.

٢- الاعتقاد الخاطىء بأن ربيعة قد تفرقت عن بعضها وكل قسم الف قبيلة مستقلة لا علاقة لها بالأخرى، وهذا خلاف ما وثقه التاريخ عن ربيعة وكونهم قبيلة واحدة وفروعهم ما هي إلّا بطون، مثلهم مثل قبيلة عنزة المعاصرة والتي هي قبيلة واحدة حتى مع اشتهار اسماء بطونها مثل العمارات والرولة.

٣- ميل كثير من المؤلفين بأن يكون كل بطن من ربيعة القديمة لا بد وانه يمثل قبيلة معاصرة موجودة، والصحيح الذي يؤكده الواقع المعاصر ان كثيراً من بطون ربيعة مثل بكر وتغلب وعبد القيس درجت اسمائها ولم تعد معروفة اليوم الا الوائلية التي تحتفظ فيها قبيلة عنزة المعاصرة فقط.

٤- عند دراسة تاريخ ربيعة من قبل هؤلاء المؤلفين، نجدهم

لا يتخذون الاسس الصحيحة في قراءة التاريخ وقد يجمدون عند النص، فمثلاً معركة (ذي قار) ينسب فضلها لبني شيبان - وهم بطن من بكر - فقط، والحقيقة هي لقبائل بكر بن وائل عامة.

هذه هي اهم أسباب الخلط عند المؤلفين والباحثين المعاصرين عن قبيلة ربيعة، ولانبالغ ان قلنا ان كثيراً منها يتجاهل اكبر قبائل العرب اليوم وهي عنزة (بني وائل) الذي يعتبرون الخيط الربعي الصريح الذي يجب أن يعتر البداية في دراسة التاريخ الربعي، فلامعنى لدراسة تدرس السلف وتتجاهل الخلف.

لكن لماذا عنزة (بني وائل) المعاصرة الاصرح في ربيعة؟ ولماذا هم فقط الخيط الربعي الباقي؟

قد يطرح هذا السؤال نفسه في ذهن القاريء، وهو يرى كاتب هذه السطور ينفي ويحصر ربيعة كلها في قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة.

أقول إن الموضوعية والنظرة الواقعية لقبيلة عنزة الوائلية تجعلنا نؤكد حقيقة صرحاء ربيعة وورثة تاريخها ونسبها، فما جعلنا نؤكد هذه الحقيقة هي عدة أسباب لو تأملها المنصف الموضوعي سيجدها مقنعة إلى حد كبير ومن هذه الأسباب ما يلي:

١- اسم قبيلة عنزة المعاصرة هو أحد اهم فروع ربيعة كما ذكرت قديماً وبنفس الاسم الموروث اليوم.

٢- العزوة الوائلية لقبيلة عنزة المعاصرة، وهي نسب عنزة الاعلي، وهي ليست مجرد ترجيح أو تخمين باحث، بل هي امر موروث متداول محسوس لأن قبيلة عنزة يعرفون أيضاً بـ (بني وائل). .

٣- إن القول بأن هناك من ربيعة خارج قبيلة عنزة الحالية انما هو قول مجتهدين لا أكثر، فلا اسماء موروثة ولا عزاوي أو غيرها، ولن تجد هذا القول مستفيضاً ومشاعاً عند العرب كونه امر طاريء حديثاً.

وسأقف عند هذه النقطة قليلاً، فالقول المجتهد ان كان مسنداً - ولو على بعض القرائن البسيطة - هو مقبول كرأي، ومع هذا يمكن مناقشته ورده ان لم تكن القرائن مقنعة، أو الاخذ به ان كانت القرائن مقنعة، وفي الحالتين لا يعتبر انه نسب موروث لأن الموروث يكون صحيحاً دائماً ورده يعتبر طعن بالنسب وهذا منهي عنه. فنحن عندما ننفي نسباً إلى ربيعة إنما ننفي الأنساب المجتهدة ومعاذ الله ان ننفي نسباً متوارثاً معروفاً غير مشكوك فيه.

٤- يحتج الكثيريون بأننا نحصر كل قبيلة ربيعة القديمة في قبيلة واحدة هي عنزة المعاصرة! فهل رأى هؤلاء أن قبيلة عنزة المعاصرة صغيرة أو قليلة العدد ومحدودة الانتشار! أليست قبائل عنزة الوائلية الحالية تعتبر أكثر وأكبر قبائل العرب المعاصرة؟

في عام ١٨١٠م قدر بيركهارد عدد قبائل عنزة الشمالية فقط بما يتجاوز الثلاث مئة الف نسمة، وهو رقم مهول قياساً بعدد قبائل العرب الأخرى في تلك الحقبة، واليوم ينتشر ابناء قبيلة عنزة الوائلية في كل المناطق على امتداد القسم الآسيوي من العالم العربي وقليل من دول المنطقة من لا يحتظن عدداً كبيراً من ابناء هذه القبيلة ولم نرى هذا الانتشار لقبيلة عربية أخرى معاصرة.

فنحن نقول ببساطة أن عنزة هو اسم قديم لفرع من ربيعة وعمم اسمه على كافة بطون هذه القبيلة والتي جمعتها العزوة والنسب إلى وائل الذي هو اهم بطون ربيعة القديمة، وتعميم اسم على اسم عند العرب يعرفه من له ادنى معرفة بقبائل العرب، ونحن بذلك لم نبحر بعيداً فعنزة هو حفيد ربيعة وكذلك وائل، ومن غير الغريب ان نجد قبيلة عنزة تحمل وتختص بالاسمين (عنزة النسب ووائل العزوة) كما كانت ربيعة الام تحتضن هذين الاسمين.

ومن جهة أخرى فأن من يخالفوننا في هذا ليس لديهم ادنى قرينة أو

مؤشر لبطون ربيعة القديمة والتي لا تزال موجودة في نظرهم ومستقلة عن عنزة المعاصرة، فقد رأينا كثيراً من التخرصات في هذا الأمر فهناك من جعل ربيعة في كل مكان من المغرب إلى المشرق وكانها فجاة تفرقت إلى امم شتى، ومن يقولون انهم من ربيعة يحملون اسماء أخرى لاتمت إلى ربيعة بصلة، بل وان بعض القبائل التي يقولون انها تنحدر من ربيعة ذكرتها مصادر قديمة بخلاف ما يقولون عنها في زمننا هذا.

ونحن بني وائل في الوقت المعاصر وان لم نحفظ اسم بكر أو تغلب أو ضبيعة وحتى اسم ربيعة القديم فإننا نحفظ الاهم وهو (وائل) بخلاف غير قبيلة عنزة ممن لا يحفظون قرينة من الابتداء تدل على علاقتهم مع قبيلة ربيعة القديمة أو حتى أحد بطونها.

اذن فدراستنا هذي تاريخية، تاريخ هؤلاء القوم الذين نتحدث عنهم هنا ليس تاريخ امم بادت واسماء انقطعت، بل تاريخ لا زال يلقي بظلاله على مئات الآلاف من البشر ينتسبون إلى قبيلة بني وائل.

الفصل الأول

اسس دراسة التاريخ الربعي

١ - بطون قبائل ربيعة القديمة

الكثير من كتب النسب القديمة تسرد النسب بطريقة الأب والابن مثل ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ وهو من اقدم المؤلفات في هذا الموضوع، وابن الكلبي يتجاهل البطون أو (اعمدة النسب) ويركز على اسم الافراد ولذلك يجب أن نوضح بداية ماذا نعني بعمود النسب؟

نعني بعمود النسب هو اسم أو لقب ينسب إليه جماعة من الناس تربطهم صلة دم وجد مشترك مثل ربيعة يقال للرجل منهم ربعي (أي من ربيعة)، واذا كان عمود النسب اسم لرجل فقد ينسب إليه من ليس ابنائه مثل الشخيص بن وائل لم يصبح عموداً لنسب بل دخل عقبه في تغلب، وقد يكون عمود النسب لقب لبطن ويعم اسمه بطون أخرى من قرابته مثل (اللهازم) كان لقباً لبطن من بكر عمم على عدة بطون أخرى من ربيعة.

يجدر بالذكر أن ليس كل فرد هو عمود لنسب حتى لو اشتهر هذا الفرد، فعمود النسب ينشأ كبطن لعدة عوامل منها:

١- ما هو سياسي يتعلق برئاسة القبائل وبيت المشيخة فيها، فقد يغلب البطن الذي ينتمي إليه بيت المشيخة على بقية بطون القبيلة.

٢- وقد يغلب اسم البطن الذي يكون افراده أكثر عددا، مثل

اللهازم وهو لقب لبني تيم اللات من بكر بن وائل، غلب هذا اللقب على بطون ربعية مثل عنزة وقيس بن ثعلبة وبني حنيفة.

وفي كل الاحوال قد ينسب حتى القدماء السابقين لنشوء عمود النسب إلى عمود النسب الناشيء وفي قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة أمثل كثيرة لهذا الامر.

ولكن يجب التنويه عن هذا الأمر لأن بعض العامة - بل وحتى الباحثين - يعتقد ان كل علم أو اسم من أعلام العرب القدامى قد يكون قد اعقب عقباً عرف بأسمه هو، ويكون ذلك لمجرد ذكره في كتب القدماء، ولضرب مثال في ربيعة عن هذا الأمر نقول نقلا عن ابن الكلبي: انجب ربيعة اسداً وضبيعة، لكن اسداً ليس عمود نسب، بل هو مجرد جد في السلسلة فلا نسب يوجد في ربيعة يقال له أسدي، في حين اخوه ضبيعة هو عمود لنسب وينسب إليه جمع فيقال (بنو ضبيعة).

واعتقد أن هذه الحقائق المهمة عن الأنساب غفل عنها الكثير من المؤلفين المعاصرين، وخاصة الغير القبليين أو الذين يميلون إلى اختلاق الأنساب من هذا الباب[1].

وسنجد اننا وقد اعتبرنا هذه النقطة المهمة ووضعناها بحسابنا نجد بطون ربيعة القديمة ليست سوى اربع رئيسة وهي (بكر وعبد القيس وحنيفة وتغلب) وبقية البطون الربعية القديمة كانت منضوية في ما لا يتجاوز هذه البطون الرئيسية.

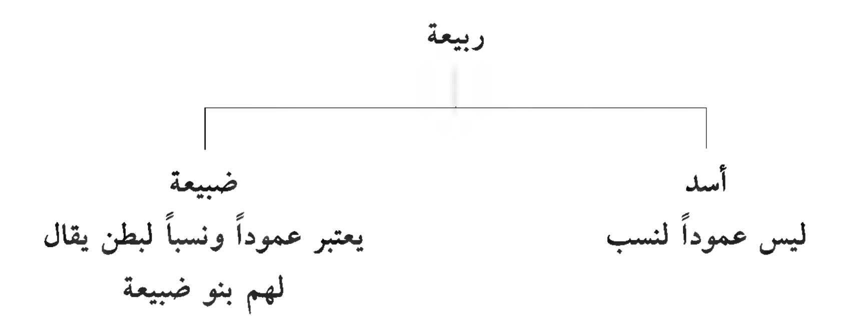
وقد يكون الخطأ في تفسير البطون الربعية إلى الايحاء بأنها عشرات البطون المتفرعة مرجعه إلى ابن الكلبي ومن نهج منهجه في كتابة

---

(١) من صور هذا ما ورد في كثير من الكتب ومنها كتاب مثير الوجد في انساب ملوك نجد، حيث اعتقد المؤلف راشد بن جريس أن قبيلة بني اسد وهي قبيلة معروفة اليوم في العراق انها ترجع إلى اسد بن ربيعة.

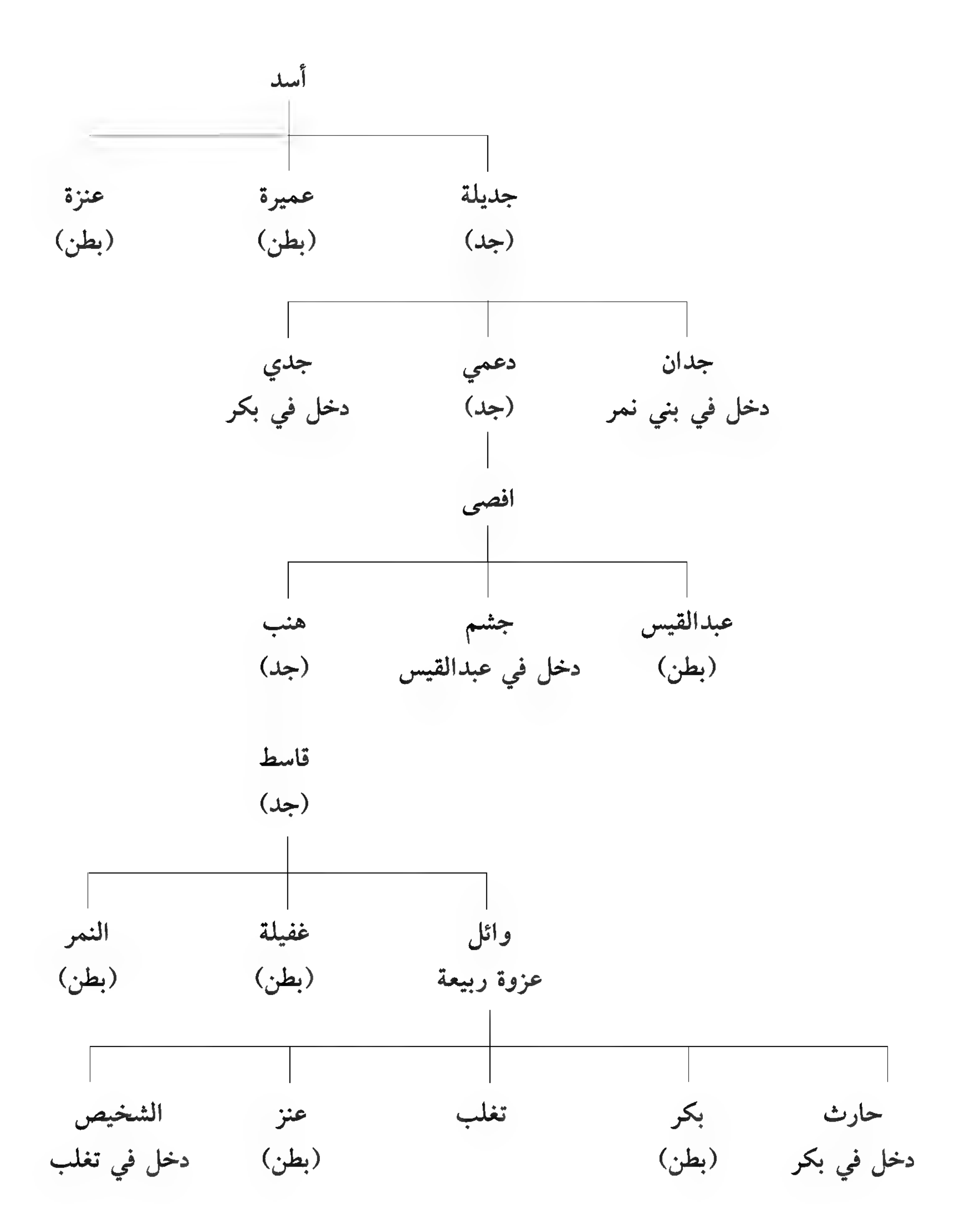
الأنساب، فقد لايعلم ان أكثر ماذكره ابن الكلبي عن ربيعة - وحتى عن غيرها - ركز فيه على اسم الافراد والحاق النسب بالأب المباشر وفق سلسلة توحي بتتابع دقيق، فالمرجع هو أن العرب ومنذ القدم يرتفع نسبهم بالبطون ملحقة ببعضها على هيئة طبقات هرمية التكوين كما فسرها القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ كما يلي: شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة ولسنا بملزمين بمسميات القلقشندي حرفيا لهذه الهيكلية، غير أننا يجب أن نقول ان الأنساب عند العرب ترفع بأعمدة النسب الرئيسة فقط، سواء كانت أعمدة النسب هذه ألقاباً أو حتى اسماءً لأفراد قدر لهم ان تعرف ذريتهم بأسمهم، اما الافراد الذي ليست اسمائهم عمودا لنسب فيعرفون ببضعة اسماء قبل الرفع لاقرب عمود نسب محفوظ وراثة وشهرةً.

وقد تكلف عدد من المحققين المعاصرين في انشاء رسوم للأنساب بحسب ابن الكلبي، ولم يفرقوا بين الاسم عندما يكون عموداً لنسب أو يكون مجرد اسم لفرد أو جد في السلسلة ولذلك رأيت ان اوضح بعض اسماء ربيعة القديمة ومفرقا بين عمود النسب ومجرد اسم الجد.



وأعتقد ان مسألة عمود النسب اضحت أكثر وضوحاً الآن، وسنطلق في الشجرة التالية على عمود النسب اسم (بطن) وسنقتصر على البطون الرئيسية ولن نفرعها والمرجع هنا هو ابن الكلبي وابن حزم الظاهري

وسنبتديء بأسد ففيه تفرعات ربيعة كلها غير ضبيعة. وسنميز عمود النسب بالقول (بطن) اما الاسم الوارد في السلسلة ولاينسب له فنميزه بكلمة (جد):



من خلال هذه الشجرة لقبيلة ربيعة يتضح اعمدة النسب الربعية هي:

١- ربيعة الام والنسبة لها ربعي.

٢- ضبيعة بن ربيعة والنسبة لها ضبعي وهم سادة ربيعة كلها وفيهم المشيخة قديماً.

٣- عنزة بن أسد والنسبة لهم عنزي.

٤- عبد القيس والنسبة لهم عبقسي وقيل عبدي والثانية اقرب للصحة.

٥- بني النمر والنسبة لهم نمري

٦- بني غفيلة والنسبة لهم غفيلي.

٧- بكر والنسبة لهم بكري ولهم فروع وبطون أخرى مشهورة بأسمها منها بني حنيفة وشيبان واللهازم (تيم الله) سنتحدث عنها في قسم بطون ربيعة بعد التداخلات التي حصلت بين هذه البطون.

٨- بني تغلب والنسبة لهم تغلبي ولم تشتهر فروع لهم بنفس ما حصل لاخوانهم بكر رغم انهم بطون وفروع.

٩- بني عنز بن وائل والنسبة لهم عنزي بسكون النون، وقيل انهم هاجروا لليمن، لكن بعض المصادر التاريخية ذكرت مناطقاً لبني عنز هؤلاء مع قومهم ربيعة في الشمال وقد يكونون هم ذاتهم عنزة بن اسد، وإنما قيل عنز بن وائل لانتساب عنزة إلى بكر بن وائل[١].

إن قبيلة ربيعة وببطونها التي ذكرناها لم تتفرق عن بعضها بحيث شكل كل منها قبيلة مستقله، فلم يجمعهم اسم ربيعة ويكون ابوهم واحد

(١) نحن نرجح أن تكون عنز هي ذاتها عنزة، وخاصة أن قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة تحفظ انه من نسل عناز بن وائل كمأثور لدى القبيلة اليوم وسنتطرق لتفصيل عن هذا في موضع آخر.

حتى يحصل هذا الامر، وان كان قد حدث لغيرهم مثل مضر أو قضاعة فلا يعني بالضرورة ان يحدث لربيعة، بل ان المصادر التاريخية والادبية المتوفرة بين ايدينا اليوم تؤكد وحدة قبائل ربيعة وكونها بقيت محتفظة بالعصبية الأساسية والوحدة القبلية التاريخية التي انتهت إلى اسم بني وائل الذي تحمله قبائل عنزة المعاصرة فقط.

يؤكد ذلك ما ذكره المؤرخون مثل الطبري المتوفى سنة ٣١١هـ وابن الاثير وغيرهم من انتقال رئاسة ربيعة من بطن إلى بطن منها، ولم يذكر هؤلاء ان لمضر رئيس واحد، فهذا اكبر دليل ان ربيعة في الجاهلية (وحتى في الإسلام) هي قبيلة واحدة بتاريخها، ورجالاتها، وملاحمها التي تعتبر الابرز في تاريخ العرب القديم قبل الإسلام، قال ابن الاثير في تاريخه وهو يروي الظروف التي سبقت حرب ربيعة (حرب البسوس):

«لواء ربيعة بن نزال للأكبر فالأكبر من ولده، فكان اللواء في عنزة بن أسد بن ربيعة، وكانت سنتهم أنهم يصفرون لحاهم ويقصون شواربهم، فلا يفعل ذلك من ربيعة إلا من يخالفهم ويريد حربهم، ثم تحول اللواء في عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن اسد بن ربيعة بن نزال، وكانت سنتهم إذا شتموا لطموا من شتمهم، وإذا لطموا قتلوا من لطمهم. ثم تحول اللواء في النمر بن قاسط بن هنب، وكان لهم غير سنة من تقدمهم، ثم تحول اللواء إلى بكر بن وائل فساءوا غيرهم في فرخ طائر، كانوا يوثقون الفرخ بقارعة الطريق، فإذا علم بمكانه لم يسلك أحد ذلك الطريق ويسلك من يريد الذهاب والمجيء عن يمينه ويساره، ثم تحول اللواء إلى تغلب، فوليه وائل بن ربيعة» أ.هـ

حتى ان حادثة القارظ العنزي والتي ذهبت مثلا عربيا نسب فضلها إلى عنزة في بعض المصادر، وفي الواقع انها من تراث ربيعة القديمة وفضل وشرف هذه الحادثة هو لربيعة كافة وليس فقط لبني عنزة كانت رئاسة القبيلة فيهم ابان وقوع هذه الحادثة العروفة في التراث العربي.

ومن ايام ربيعة الجاهلية أيضاً التي تثبت انها قبيلة موحدة الاسم والتاريخ هو يوم (خزار) ضد ملك اليمن، وكان لواء ربيعة في ذلك اليوم لبني تغلب بن وائل، وبعض المؤرخين يقول ان شرف وفخر هذا اليوم لبني معد كلهم (ومعد هو جد قبيلة ربيعة ومضر) لكن المتواتر والموثق عن هذا اليوم يؤكد انه خاص في قبيلة ربيعة ضد تبع ملك اليمن واتباعه من قبائل مذحج، ومايهمنا ان نستنتجه من هذه الحوادث - سواء حادثة القارظ العنزي أو يوم خزار- هو انها في المرحلة التي كانت ربيعة موحدة فيها كقبيلة قبل أن تفترق إلى اربع بطون كبرى في مرحلة لاحقة[1]، ولذلك فأن تاريخ ربيعة قد مر بعدة مراحل ويجب اخذها بالاعتبار عند دراسة واستقراء نتائج هذا التاريخ وهذه هي المراحل:

المرحلة الأولى: والتي كانت ربيعة قبيلة موحدة ببطونها تحت زعامة واحدة وعصبة موحدة، وهي التي اشتهر من مفاخر ربيعة فيها يوم القارظ العنزي ضد قضاعة ويوم خزار ضد مذحج.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي افترقت بسببها ربيعة والاقتراق هنا نعني به الحروب بينهم ويس بمعنى استقلال كل بطن عن بقية القبيلة، وكان اول من انعزل من بطون ربيعة هم بني عبد القيس ومعهم قسم من عنزة وبني عميرة بن أسد بسبب حرب بينهم، ثم وقعت حرب البسوس وقسمت ربيعة إلى ثلاث بطون أخرى وهم: حنيفة (ومعها بنو مازن بطن من بكر)، وتغلب ومعهم بني النمر بن قاسط وبقية عميرة بن اسد، ثم بكر بن وائل وانضمت لهم عنزة وبني ضبيعة بن ربيعة.

المرحلة الثالثة: وهي التي جاءت بعد الإسلام، حيث بدأت قبائل

---

(١) بل أن ربيعة كانت قبيلة واحدة حتى في ايام ومعارك وقعت في الإسلام وأبرزها معركة الجمل ايام الامام علي بن أبي طالب وملاحمها في العصر الاموي وما بعده أيضاً كانت موحدة كما سنرى.

ربيعة تتوحد من جديد، فانضمت عبد القيس وحنيفة إلى بكر مجدداً وأصبحت ربيعة على جذمين كبار هم: بكر وتغلب وبقية بطون ربيعة الأخرى منضوية فيهم اما في بكر أو في تغلب، اما تغلب فقد بقيوا مستقلين عن بكر حتى بدأت بكر في الضعف اواخر العهد العباسي، وتأسست الدولة الحمدانية وهي أول دولة ربعية في الإسلام والحمدانيون من تغلب.

المرحلة الرابعة - تزعم بنو حمدان قبيلة ربيعة في الديار التي عرفت باسمهم في القرون الوسطى (ديار ربيعة) وقد ضلت ربيعة موحدة حتى بدأت اسماء بكر وتغلب في الذوبان وبقي النسب الوائلي متداولاً حيث شمل كل قبائل ربيعة وعرفوا بأسم عنزة والذي كان فرعاً صغيراً منضوياً في بكر بن وائل، وقد انتقلت هذه القبائل تحت اسم عنزة من العراق حيث ديار ربيعة إلى الحجاز مشكلة المرحلة المعروفة لقبائل عنزة الوائلية المعاصرة الممتدة من القرن السادس الهجري وحتى اليوم.

إن هذه ليست مجرد المراحل التي مر بها تاريخ هذه القبيلة، بل هي اصح الاسس التي يجب أن تبنى عليها أي دراسة لتاريخ ربيعة بل حتى انسابها وبطونها وربطها بقبائل هذا الزمن والتي ولا تزال تحفظ للنسب الوائلي اسمه وتعرف وتشتهر به، والشجرة التي اوردناها عن ربيعة انما هي خاصة بالمرحلة الأولى من التاريخ الربعي، ونجد في المرحلة التي تفرق ربيعة فيها إلى بطونها الكبيرة أن أعيد توزيع البطون الربعية توزيعاً داخليًّا يختلف عن هذا التوزيع.

وأي باحث أو مؤلف عن قبيلة ربيعة ويتجاهل مراحل تاريخها المذكورة هنا لن يصل إلى النتائج المقبولة منطقاً وعقلاً ونقلاً، بل ولن يستطيع تفسير الواقع الذي نراه حيث لم يعد أي من اسماء ربيعة متداولاً إلّا عند قبائل بني وائل المعروفة اليوم باسم عنزة، خاصة ان كثير من الباحثين الذي كتبوا عن ربيعة مؤخراً يتمسكون بمرحلة محددة من

تاريخها ثم يسقطونها بشكل عجيب على التاريخ المعاصر، فمثلاً النظرية التي نشأت حديثا القائلة بوجود بقية لبني حنيفة في زمننا هذا انما تتمسك في مرحلة من تاريخ اليمامة حين كانت منازل بني حنيفة اواخر العصر الجاهلي وبدايات العهد الإسلامي، ويتجاهل هؤلاء الفترة التي مرت على المنطقة حيث أن التاريخ يثبت ان اليمامة استوطنها بعد بني حنيفة قبائل شتى كان آخرهم قبائل العائذ القحطانية.

ولذلك لا بد الأخذ بالاعتبار التغيرات التاريخية التي مرت بها قبائل ربيعة حتى وصلت إلى زمننا هذا وصورتها المعاصرة، ولا بد ان يكون بحثنا في قبائل هذا الزمن المنتمية إلى ربيع ان نركز النظر وان نحصره تجاه قبيلة عنزة الوائلية الحالية كخيط رئيسي، لأنهم وحدهم فقط من تأكد لدينا بشكل قاطع صلتهم في ربيعة حيث يشتهرون بحمل اهم اسمين من اسمائها القديمة وهم اسمي عنزة ووائل، في حين ان ربط غيرهم بقبائل ربيعة انما هو تخرص تشوبه الحماسة ويؤدي إلى نتائج خاطئة وغير منطقية.

٢- بطون ربيعة وتوزيعها وفق البطون والتداخل

هناك حدثين فارقين في تاريخ ربيعة، وهما: اول حرب وقعت بينهم وادت إلى أنفصال عبد القيس حيث تشاكلت الأخيرة مع ابناء عمها بني النمر بن قاسط، والحدث الثاني هو حرب ربيعة الشهيرة باسم (حرب البسوس)، وتكمن اهمية الحدثين في كونهما السبب المباشر في اعادة توزيع الخارطة الربعية القديمة حيث تداخلت البطون الربعية فيما بينها، وأصبحت قبيلتي بكر وتغلب هما القطبين الذين امتصا هذه التداخلات وهذا يفسر الشهرة لهذين الاسمين في كتب الادب والتاريخ.

لعل السبب الأكثر الاهمية لهذه التداخلات يعود إلى حرب البسوس التي وقفت فيها كل من عبد القيس وبني حنيفة (بطن من بكر)

موقف الحياد، بينما دخلت عنزة إلى جانب بكر بن وائل وانضم بني النمر وبني غفيلة إلى بني تغلب[1].

وبالطبع ليست هذه الأحداث على اهميتها هي العامل الوحيد لحدوث التداخلات بين ابناء العمومة، فهناك عوامل النسب والخؤولة، فمثلاً ذرية عبيد بن يربوع الحنفي والذي تزوج من عنزة، كانت السبب في الاقتراب الحنفي العنزي في اليمامة، وكان من ابناء عبيد المذكور وهب وسيار ومسلمة ولا تزال هذه الاسماء في قبائل بني وائل إلى يومنا هذا، فبني وهب بطن كبير لعله يؤلف في هذا الزمن على الأقل ربع قبائل عنزة الوائلية المعاصرة.

ويضاف على عوامل التصاهر عامل مهم وهو عامل الالقاب التي تُعمم، فلقب اللهازم هو لقب لبني تيم اللات (بطن من بكر) لكنه شمل اسم بني عجل وعنزة بن اسد وبني عجل الذي ينضوون في بكر بن وائل، وكذلك لقب بني ذهل شمل بني ضبيعة بن ربيعة والتي لاتنتسب إلى بكر بل إلى القبيلة الام ربيعة ومع ذلك اعتبروا بكريين وائليين.

والتداخل في البطون التي يجمعها جد واحد هو ظاهرة قديمة جدًّا ومألوفة حتى في عصرنا، وتجدر الاشارة ان التداخل بين بطنين من جد واحد لا يشبه قضية الحلف (او مايسمى بالنزائع) نهائيًّا، فالحلف يجمع ذرية لشخص واحد أو أكثر اضطرت للدخول والجلاء في قبيلة أخرى لأسباب يعرفها العرب واكثرها تتعلق بثارات الدم، وهذه الحالات يكون جلاء الشخص أو عائلته يجب أن يكون ابعد ما يكون عن ابناء قبيلته.

والطريقة التي سرد بها ابن الكلبي انساب العرب لم تاخذ باعتبارها التوزيع الحقيقي لقبائل العرب، وبقية من الف في النسب نقل عن الكلبي حرفيًّا مع اضافات بسيطة أو اختصارات، مثل ابن حزم المتوفى سنة

---

(١) معجم ماستعجم لأبو عبيد البكري

٤٥٦هـ، حتى جاء القلقشندي في القرن التاسع واهتم بهذه النقطة كما وضحنا، وقد اوحى هذا لبعض الباحثين المعاصرين ان العرب في القرون الهجرية الأولى يتجمعون باسم الجد إلى القرن الخامس الهجري (عصر ابن حزم) ثم اصبح الحلف اساس الانتماء، وهذا المذهب الخاطىء تكذبه وقائع التاريخ والادب لو قرأناها بمعزل عن كتب النسب[(١)].

والحقيقة التي ينبغي لكل متعامل بالنسب أو مهتم هي ان الاصل عند العرب بالنسب إلى جد مشترك، اما تكوين البطون واعمدة النسب الرئيسية فيخضع للعوامل التي حددنها سابقاً وهي تعود في النهاية إلى الاشتراك بالجد الاعلى، وقد وضحنا سابقاً معنى عمود النسب، فقبيلة ربيعة تبدو من خلال كتب النسب والفروع كأنها عشرات القبائل المتفرقة، وهي في الحقيقة لم تزد على اربع بطون رئيسية وهم عبد القيس وحنيفة وبكر وتغلب، ولايمكننا أبداً قراءة تاريخ ربيعة قراءة صحيحة إلّا أن ناخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار، فمثلاً عند ظهور الإسلام وفي مرحلة ارسال وفود القبائل العربية وفوداً إلى رسول الله ﷺ لم نجد المؤرخين يذكرون الا اربعة وفود ربعية وهي عبد القيس وبني حنيفة وبكر وتغلب، فلم نجد وفدا باسم بني ضبيعة أو عنزة لأنهم كانوا في عداد بكر

---

(١) ومن ذلك قول الشاعر ذي الرمة يصف بطون قبيلته تميم وهو مايبطل نظرية الاحلاف:

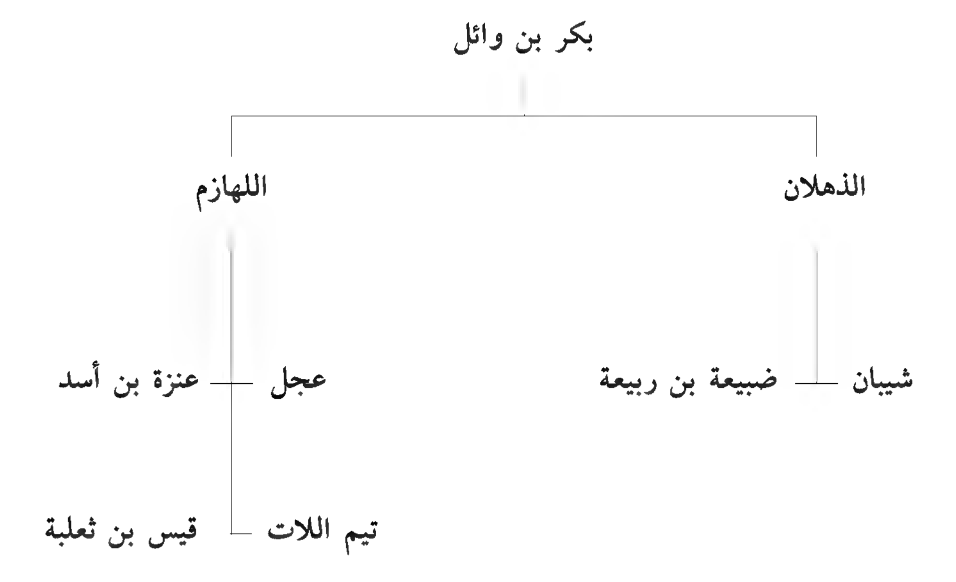
يـعـد الـنـاسـبـون إلـى تـمـيـم — بـطـون الـمـجـد أربـعـة كـبـارا
يـعـدون الـربـاب وآل سـعـد — وعـمـرو ثـم حـنـظـلـة الـخـيـارا

فهو يذكر الرباب كبطن تميمي، وهذا لا شك فيه، لكن عند كتب النسب نجد ان الرباب هم اعمام تميم ولا ينسبون له، ولو صح القول من عن هذه الطريقة في الانتساب فإنهم ليسوا في القرن الخامس بل في اوائل عصر صدر الإسلام العصر الذي عاش به ذي الرمة، كما ان انتسابهم إلى تميم ليس حلفا بل عموم اسم اشهر ووجود جد جامع قريب.

بن وائل، كما ان بني حنيفة ينتسبون إلى بكر فكيف جاءت بكر بوفد وحنيفة بوافد آخر؟

ولذلك كان لزاماً علينا ان نرسم الشجرة التي ننطلق منها لدراسة التاريخ الربعي في مرحلتها الثانية، أي المرحلة التي تلت حرب البسوس.

أولاً - بطون أو اعمدة النسب في بكر بن وائل:



هذه الشجرة وهذا التقسيم لقبيلة بكر بن وائل هو التقسيم الموافق لتاريخ ربيعة والذي يمكن من خلاله تفسير كثير من الحوداث التاريخية الهامة، وبل ويفسر هذا الانتساب والعلاقة بين عنزة بن اسد ووائل العزوة التي تشتهربها قبيلة عنزة المعاصرة التي هي امتداد قبيلتها الام ربيعة، فكما واضح ان ذرية عنزة بن اسد قد انضمت مبكراً لبني عمها من ابناء بكر بن وائل، إضافة إلى ذرية بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار، حتى وان ذكر أن ولد بكر هم: علي ويشكر، فيشكر وان كان عموداً لنسب إلّا أنه كان مندرجاً في بني شيبان، اما علي فليس عموداً لنسب بل هو الابن المباشر لبكر كما ذكر في الكتب.

تشبه وضعية التقسيم لقبيلة بكر بن وائل قبيلة الجلاس المعاصرة وهم الجذم الاكبر من قبائل وائل اليوم، فالجلاس بحسب ما يروي العارفين من ابناء القبيلة انه لقب لزائد الجلاسي والذي هو عمود للنسب بموجب لقبه (الجلاس)، ورغم ان البطون المنضوية تحت اسم الجلاس هم كما يلي: المرعض، القعقاع، الكواكبة، الدغمان، الفرجة، الاشاجعة، آل عبدالله، السوالمة.

ولكن بحسب التوزيع للبطون تشكل البطون الخمسة الأولى عمود نسب الرولة والذي هو لقب وهي: المرعض، القعقاع، الكواكبة، الدغمان، الفرجة.

في حين البطون الثلاثة الأخرى من الجلاس تسمى مجتمعة (المحلف) وهم: الاشاجعة والسوالمة وآل عبدالله، أي أن الجلاس في نهاية الأمر فقط هم على بطنين كبار: الرولة والمحلف، رغم قرابة بعض اسمائهم لزائد الجلاس صحاب عمود النسب تختلف.

نعود إلى سلسلة بطون بكر بن وائل بموجب الاحداث التاريخية وحيث أنهم كانوا بطنين هم على التوالي: الذهلين ويليهم قبيلة اللهازم وقد قال جرير بن عطية الشاعر الإسلامي:

وأرضى بحكم الحي بكر بن وائلٍ إذا كان في الذهلين أو في اللهازم

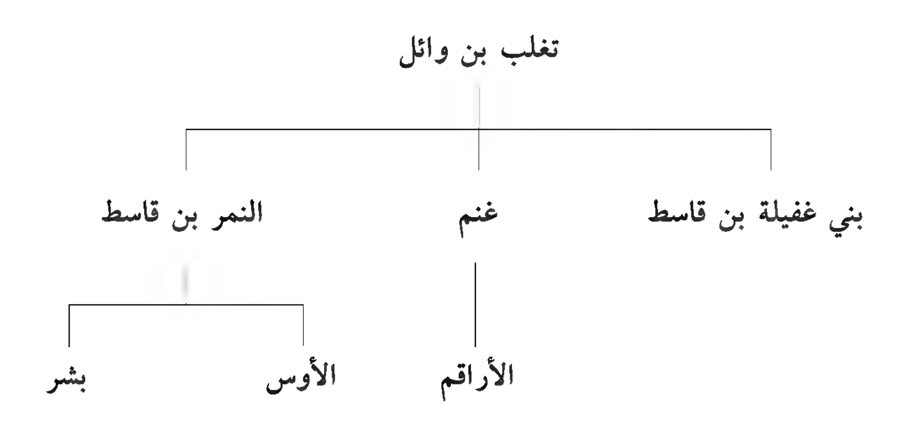
ومما يؤكد هذا التقسيم عن قبيلة بكر ان كثيراً من المراجع القديمة جدًّا قد ذكرته بوضوح، واغلب هذه المصادر إنما نقلتها على الأغلب من خلال التاريخ البكري ذاته لأنه هو من دلنا على التوزيع، إلّا أن أحد أهم المراجع وهي كتاب (الفائق في غريب الحديث والأثر) لمؤلفه محمود بن عمر الزمخشري اشار إلى أن النسابين كانوا يوزعون بطون بكر على هذا النحو، أي الذهلين واللهازم، وذكر ابن عبده الاندلسي في العقد الفريد عن بسطام بن قيس امير بكر بن وائل:

«بِسْطام بن قَيْس، فارس بني شَيبان في الجاهليّة، وقد رَبَع الذُّهْلَين واللِّهازم اثني عشر مِرْباعا» أ.هـ

وهذا يفسر ماذكره أبو عبيد البكري في مصنفه الجغرافي (معجم ماستعجم) عن لحاق بني ضبيعة وعنزة في بكر بن وائل بعد مقتل كليب واندلاع الحرب بين بكر وتغلب، ونحن نعتقد ان هذه الادلة كافية جدًّا للقطع بأن بطون بكر بن وائل كانت على هذا النحو الذي ذكرنا بعيدا عن التصورات الخاطئة والتي تم فيها قراءة كتب مثل ابن الكلبي، والتي ينتج عنها عادة الخلط بين ما هو عمود لنسب واسم لفرد، حتى ان دراسة تاريخ قبيلة بكر على هذا الاساس وهذا التوزيع هو ما يؤدي إلى النتائج الصحيحة بخصوص هذا البطن الذي يعد اهم بطون ربيعة بن نزار طوال تاريخها.

ورغم هذا التوزيع لقبيلة بكر بن وائل إلّا أن البطون المنضوية في بكر قد اشتهرت بأسمائها حتى اصبحت شهرة هذه الاسماء بمستوى شهرة اسم بكر ذاته، وخاصة اللهازم ومن فيهم مثل عنزة وكذلك الذهلان وهم شيبان ويشكر وضبيعة، ويطلق على القبيلة التي تشتهر اسماء فروعها اسم الجمجمة، ويشبه هذا الوضع قبائل وائل الحالية (عنزة) اذ تشتهر فروعها شهرة تعادل الاسم الاصلي للقبيلة ككل مثل الرولة أو العمارات.

ثانياً - بطون واعمدة النسب في تغلب بن وائل:



هذا التقسيم لقبيلة تغلب بن وائل بعد الحرب التي اندلعت مع الغريم التقليدي قبائل بكر، ونلاحظ التحاق قبيلتين ربعيتين في المشجر التغلبي وهما: بنو غفيلة بن قاسط، والنمر بن قاسط وهم اخوان وائل ربيعة.

لم تكن تغلب جمجمة مثل بكر، ولم تشتهر هذه البطون المندرجة تحت اسم تغلب بأسمائها سوى النمر بن قاسط، بل حتى النمر بن قاسط اسقطت كثيراً من كتب التاريخ اسمه عند الحديث عن تغلب، ففي الحرب التي اندلعت بين قبائل قيس عيلان وتغلب في الجزيرة الفراتية وفي عهد بني امية لم يذكر المؤرخين اية اشارة إلى النمر بن قاسط إلّا نادراً، غير أن هذا لا يقلّل أبداً من شان بني النمر ويكفي ان سلسلة القيادة الربعية قد مرت فيهم، ومشيخة ورئاسة قبيلة مثل ربيعة ليست بالأمر الهين، ويكفي ان نعرف ان بني النمر منهم عامر الضحيان، وقد ساد ربيعة أربعين عاماً[(١)] في الجاهلية، وفي عهده انفصلت عبد القيس عن اخوانها من ربيعة ونزلت بلاد البحرين وانقسمت قبيلة بني عميرة بن

(١) جمهرة انساب العرب لأبن حزم الظاهري

اسد (وهو اخو عنزة) إلى قسمين: قسم التحق في عبد القيس والقسم الآخر التحق في تغلب وائل، القسم الذي التحق في تغلب من بني عميرة هم بني علي ومنهم همام بن مطرف من اعيان تغلب في العهد الاموي[(١)].

ثالثاً - بني حنيفة وعبد القيس بن افصى:

اما بني حنيفة فقد انفصلو عن بكر بن وائل ومعهم بطن آخر من بكر هم بنو مازن، وقد كونو بطنا مستقلا عن قبيلتهم الام بكر بن وائل واستوطنوا اليمامة وأصبح لهم بها شأن كبير بها، وكان موقفهم من الصراع بين بكر وتغلب هو الحياد رغم ميلهم للطرف التغلبي، ولكنهم في عهود لاحقة وتحديداً في العصر الإسلامي الأول اندمجوا في بني عجل من اللهازم[(٢)].

أما عبد القيس بن افصى فقد لحق بهم جزء كبير من بني عميرة بن أسد، وقد مر معنا انفصالهم قبل حرب البسوس عن القبيلة الام ربيعة مفضلين الانسحاب على حرب بني عمهم، ولدينا مؤشرات تدل على دخولهم في بني بكر بن وائل في مراحل لاحقة وتحديدا في العهد الأموي، فقد اورد ابن عبد ربه الاندلسي في العقد الفريد ان الرجل من عبد القيس ينسب شيبانيًّا وبكريًّا.

(١) جمهرة انساب العرب لأبن الكلبي

(٢) تاريخ الطبري (ت ٣١٠هـ) ج٢ ص ٢٨٨ وص ٢٩٠، وج٣ ص ٣٧٠ اصدار (دار الكتب العربية)

الفصل الثاني

ربيعة في الجاهلية

١ - ربيعة في الجاهلية (مرحلة ما قبل حرب البسوس)

بعد أن تناولنا اهم الأسس التي يجب علينا أخذها بالاعتبار في تناولنا لتاريخ ربيعة يمكننا الآن الولوج لدراسة هذا التاريخ عبر المراحل التي ذكرناها، واخذه من مصادره لتفسير التحولات التاريخية التي جرت عبر أكثر من ألفي عام حتى انتهت ربيعة إلى مسماها اليوم قبائل عنزة أو بني وائل كما تعرف في العصر الراهن، فنحن اليوم لا نبحث عن نسب قبائل عنزة الوائلية المعاصرة، فهم بذاتهم اليوم عموداً لنسب معروف لا يلزم إلّا ذكره والتوقف عند اسم وائل آخر اسم ضل متوارثاً عند اجيال القبيلة اليوم، فالأساس بالحديث اذن هو تحديد الجذور التاريخية لهذه القبيلة العربية والتي هي امتداد لأسلافها قبائل ربيعة بن نزار.

إن التاريخ الجاهلي للعرب عموماً يلفه الكثير من الغموض، وقد وثق اغلبه في فترة ما بعد الإسلام بفترة طويلة، وظهور التدوين في تاريخ العرب، وماتم تدوينه هو روايات شفهية كانت الأجيال العربية لا زالت تتناقل اجزاء منه بروايات قد يتضارب بعضها مع البعض، ويكاد يجمع المؤرخون ان ما وثق من التاريخ العربي قبل الإسلام لا يتجاوز القرن والنصف قبل ظهور الدعوة المحمدية في القرن السابع الميلادي، اضف

إلى ذلك ان أكثر ماوثق هو الاحداث الجسيمة والاحداث الهامة أو الغريبة، والتي ادت إلى تغيرات اجتماعية وسياسية ملحوظة، وتم اهمال الكثير من الحوادث بزوال ظلال تأثيرها.

اما الحوداث التاريخية الهامة في سجل قبيلة ربيعة فيبدو أنها بالفعل ضمن القرن والنصف السابق للإسلام، يدلنا على هذا ان هذه الحوادث ظلت تلقي بظلالها حتى في العهد الإسلامي مما يدل انه قريبة العهد من ذاكرة الاجيال تلك الفترة.

اغلب الرواة والمؤلفين يتناولون تاريخ ربيعة الجاهلي كجزء من التاريخ المعدي، ومعد هو جد ربيعة نزار وتنتهي كل القبائل العدنانية فيه كما يُروى، بينما يقول رواة ربيعة واعلامهم القدماء ان قومهم ربيعة سادوا بني معد كلهم، وان كنت ارى ان اقحام بني معد في مفاخر ربيعة هو الهدف الذي من اجله يذكر البعض اسم بني معد رغم انفراد ربيعة بتاريخ مستقل عن بقية اخوانها المعديين.

وعلى كل فإن اية حوادث جسيمة في سجل التاريخ الربعي كانت القيادة فيها لربيعة تعتبر جزء من تاريخها حتى لو اشتركت معها قبائل أخرى من معد.

وفي هذه الدراسة سنركز على الايام والحوادث المؤثرة في تاريخ ربيعة وتاريخ العرب، فلا عجب ان للحوادث الواقعة في السجل التاريخي الربعي كانت تأثيرها يمتد لكل العرب على اختلاف قبائلهم.

ديار ربيعة في الجاهلية

لا شك في ان ديار ربيعة القديمة جدًّا ذات علاقة بجنوب الجزيرة العربية أو اليمن، وقد دلت الدراسات الحديثة لما لليمن من حضارة ودول قوية كانت ذات تأثير كبير على قبائل العرب، وقد كانت قبائل الشمال العربية والتي تعتبر ربيعة جزء منها ذات طبيعة بدوية بحتة، تعيش

على الارتحال وراء مساقط الأمطار، فكات ربيعة ترتحل شمالاً إلى اليمامة أو الاقسام الجنوبية من سراة الحجاز لممارسة الرعي.

اما ملوك اليمن وقبائلها فكانت السيادة في جزيرة العرب لهم دون اخوانهم العدنانيين اهل الشمال، مما يدل ان اليمن في ذلك الوقت هو محور الأحداث التاريخية في جزيرة العرب، وقد اتسمت علاقة قبائل ربيعة بملوك اليمن باضطراب شديد نتيجة انفة القبائل الشمالية من التبعية لقبائل مذحج وحمير الجنوبية.

ومن الممكن ان نحصر النطاق الجغرافي لقبائل ربيعة تلك الحقبة في مناطق تهامة وسراة الحجاز وعالية نجد إلى اليمامة، وتشاركهم قبائل معد الأخرى التي افترقت إلى اجذام كبرى من اهمها تميم وقيس عيلان وقضاعة وهي قبيلة يمنية.

وقد مر معنا تسلسل القيادة في قبيلة ربيعة، وانتقالها من بطن إلى بطن منها، حتى جاء دور بني النمر بن قاسط في رئاسة القبيلة، وتولاها عامر الضحيان النمري مدة اربعين عاماً كما مر معنا، وقام نفر من بني عبد القيس بقتل عامر هذا، فوقعت الحرب الأولى في ربيعة، واصطلح بني النمر بن قاسط ان يأخذوا الدية من عبد القيس، إلّا أن الأخيرين دفعوا نصف الدية فقط ولم يكملوهما فقاتلهم بنو النمر وبقية ربيعة

ويبدو أن بني عبد القيس قد رأوا ضعف حالهم وهم يواجهون سادات قومهم، ففضلو الانفصال عن قبيلتهم ربيعة والانتجاع إلى بلاد البحرين، وشكلوا بذلك اول كيان ديمغرافي في القبيلة الام ربيعة، ومعهم بطون أخرى من ربيعة دخلت معهم ومن اهمها بن عميرة بن أسد اخو عنزة.

أمّا من تبقى من ربيعة غير عبد القيس فاستمروا يشكلون كياناً موحداً متمازجاً، وقد انتقلت الرئاسة بعد مقتل عامر الضحيان إلى بني

تغلب بن وائل وأصبحوا هم هامة ربيعة وقادتها وحملة لوائها، وديارهم كما ذكرنا تمتد إلى نجد وقد يتناولون اطراف الشام[١].

وبينما بقي بني عنزبن وائل في بلاد اليمن اصبحت قبائل ربيعة لاخرى منجعة في كامل شبه جزيرة العرب وخاصة في الشمال من نجد قبل أن يقع يوم خزار الدموي، الذي تخلصت فيها ربيعة من سيادة القبائل اليمنية، وقد نزل بنو حنيفة وعنزة وغيرهم من ربيعة بلاد اليمامة وامتلكوا ما فيها من النخيل والزروع، وشاركهم بذلك قبائل معد وخاصة تميم وقبائل قيس عيلان.

يوم خزار ضد مذحج ونهاية سيطرة اليمن على العرب

كان لا بد أن تنتهي مرحلة السيطرة اليمنية على القبائل الشمالية وعلى رأسها ربيعة التي اصبحت قيادتها في تغلب لتنتهي عند وائل بن ربيعة الملقب بـ (كليب) وهو اخول المهلهل بطل حرب البسوس.

وكان خزار جبل في نجد لا يزال معروفاً باسمه حتى يومنا هذا، وقد ضجت قبائل عربية كبرى من تسلط ملوك اليمن على قبائل معد واسرهم لمجموعة من الفرسان من مضر وربيعة وقضاعة[٢]، وكان جل قبائل اليمن هم من مذحج، فقام كليب وجمع فرسان ربيعة واجتمعت له معد وقضاعة كلها، فأمر كليب اتباعه بأن يوقدوا ناراً على جبل خزار وتقابل جمعه بمذحج وهزمهم هزيمة تاريخية انهت النفوذ اليمني على القبائل العدنانية، وكان من ابرز فرسان ربيعة في تلك الحرب هو السفاح التغلبي القائل في ذلك اليوم:

---

(١) معجم ما استعجم لأبو عبيد البكري ج١ ص٢٤ وقد اورد قصة افتراق عبد القيس عن ربيعة كاملة بعد مقتل عامر الضحيان زعيم ربيعة.

(٢) يرى بعض المؤلفين القدامى ان قضاعة من بني معد من عدنان استناداً إلى علاقاتهم التاريخية مع قبائل ربيعة والصحيح ان قضاعة من قبائل اليمن

وليل بت أوقد في خزاري هديت كتائبا متحسرات
ضللن من السهاد وكن لولا سهاد القوم احسب هاديات
فكن مع الصباح على جذام ولخم بالسييوف مشهرات

ولعل ابرز نتائج هذا اليوم هي التحالف والتجاور بين ربيعة وقضاعة في الديار حتى قيل ان قضاعة هي من معد خلاف المعروف عن قضاعة وإنها من قبائل اليمن.

حرب قضاعة وربيعة بسبب القارظ العنزي

قلنا إن من نتائج يوم خزار هو التجاور بين ربيعة وقضاعة، هذا التجاور لم يستمر طويلاً، والسبب ان رجلاً من بني نهد من قضاعة اسمه خزيمة كان يعشق امرأة من عنزة من ربيعة اسمها فاطمة ومن الشعر المنسوب له في عشقه:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا
ظننت بها وظن المرء حوب وإن أوفى وإن سكن الحجونا
وحالت دون ذلك من همومي هموم تخرج الشجن الدفينا
أرى ابنة يذكر[1] ظعنت فحلّت جنوب الحزن يا شحطا مبينا

وقد قام بخطبتها من ابيها فرقض تزويجها له، فكان ان ترص له وهو يطلب القرض فقتله دون علم قومه ربيعة الذين افتقدوه زمنا، وقد اصبحت قصة هذا العنزي مضرباً للمثل لمن يغيب ولا يعلم مصيره:

فرجي الخير وانتظري إيابي إذا ما القارظ العنزي آبا

وفي يوم من الأيام ووفقاً لما وثقته المراجع ان خزيمة بن نهد اعترف بقتله للقارظ العنزي وهو سكران لا يشعر بما يقول:

(١) يذكر: بطن من عنزة بن ربيعة

فـتـاة كـأن رضـاب الـعـصـيـر بـفـيـهـا يـعـل بـه الـزنـجـبـيـل
قـتـلـت ابـاهـا عـلـى حـبـهـا فـتـبـخـل إن بـخـلـت أو تـنـيـل

فسمعه فرسان ربيعة بن نزار وعرفوا انه قاتل القارظ العنزي، فاجتمعت ربيعة على الثأر من قضاعة، ووقعت الحرب بين الطرفين وانهزمت قضاعة ورحلت إلى الشام، وقال شاعر ربيعة يفتخر بذلك اليوم:

قضاعة أجلينا من الغور كله إلى فلجات الشام تزجى المواشيا
لعمري لئن صارت شطيرا ديارها لقد تأصر الارحام من كان نائيا
وما عن تقال كان إخراجنا لهم ولكن عقوقا منهم كان باديا
بـمـا قـدم الـهـدى لا در درة غداة تـمـنـى بـالـحـرار الامـانـيـا

وقال صاحب ذات الفروع في قصيدة يمدح بها قبائل ربيعة ويذكر حربها لبني نهد من قضاعة:

بشيبان والذهلين من آل وائل،،، ويشكر يسمو من يرام ويصعب
وهم يوم ذي قار جلوا عن وجوههم،،، شأبيب مزن ودقة متصوب
أجاروا ابنة النعمان من أن ينالها،،، فتى ليس إلا بالأسنة يخطب
ومنهم بنو النمر بن قاسط للعلا،،، وعنزا إذا عد الفخار وتغلب
وعنزا نفوا نهد ابن زيد وجدعوا،،، معاطسهم بعد اصطلاح فأوعبوا

وبعد هذا اليوم وهذه الحروب التي خاضتها قبائل ربيعة اصبحوا هم سادة العرب الشماليين بلا منازع، ما عدا قريش التي التزمت مكة وأصبحت تحظى بمكانة دينية عند العرب بسبب قيامهم على الحرم المقدس عند جميع قبائل العرب.

وقد استوطنت ربيعة في ذلك العهد بلاد نجد في العروض واليمامة كما وصفها الهمداني، فكانت بكر وتغلب ومن معها من بطون ربيعة

تتجول في كامل المنطقة من اليمامة جنوباً حتى تصل إلى بادية العراق والشام وقد تصل الجزيرة الفراتية، وكانت قرى اليمامة موزعة على اللهازم وهم قيس بن ثعلبة وعنزة وتيم اللات واتصلت بلادهم كذلك ببلاد البحرين.

وبعد مقتل القارظ العنزي اصبح وائل التغلبي (كليب بن ربيعة) هو صاحب الكلمة العليا في قومه، وقد توج نفسه ملكا على ربيعة وفي عهد اندلعت حب البسوس الربعية.

٢ - المرحلة الثانية من تاريخ ربيعة في الجاهلية (حرب البسوس الوائلية)

هناك خطين للمصادر التي تكلمت عن حرب البسوس، الأولى هي الرواية التي تناقلتها الاجيال العربية ومالحقها من تزييف على مر السنين، والثانية هي المراجع العربية التي تحدث عن ظروف النزاع الربعي بين القطبين بكر وتغلب وتوابعهم من ربيعة.

بطبيعة الحال ستكون المراجع العربية التي دونت احداث ذلك الصراع الربعي الداخلي هي المرجع المعتمد لدى الباحثين رغم ما فيها من اختلافات كثيرة حول تفاصيل الحرب الوائلية، وقد رأيت ان افضل طريقة لعدم الدخول في متاهات الاختلاف هي اخذ الاقوال المجملة والمؤكدة، وخاصة تلك التي يؤكدها سياق الاحداث التي تلت حرب البسوس حتى فجر الإسلام.

سبب الحرب في قبيلة ربيعة:

تروي المراجع القديمة أن قصة كليب وائل ملك ربيعة كان مستبدًّا وهذا هو العامل الرئيسي الذي سبب النزاع.

ومن صور غطرسة كليب هذا ان له حمى لا يسمح لأحد من قومه

ربيعه بتجاوزه أو الرعي فيه الا بأذنه، وكان جساس وهو من بني مرة من بكر يملك قطيعاً من الابل فيها ناقة لخالته البسوس، قام كليب بقتل الناقة بدعوى انه وجدها في حماه، مما اغاظ جساس وقومه بني بكر الذين رأوا في ذلك استبداداً من كليب ولكنهم مع ذلك سكتوا حرصاً على وحدة ربيعة.

فلما جاء وقت ظعين البدو المعتاد ظعنت ربيعة بقيادة كليب، فكانوا كلما مروا على بئر ماء يمنع كليب بكراً منه، فوقع الخلاف بينه وبين جساس الذي ضاق به فقتله بطعنة لم يتوقعها كليب أبداً فمات في وقته وبدأت بذلك الحرب التي عرفت بحرب البسوس بين بكر وتغلب.

توزعت قبائل ربيعة على قطبي النزاع، فالتحقت عنزة بن ربيعة وضبيعة في بكر بن وائل، في حين انضم النمر وعميرة وغفيلة إلى تغلب بن وائل.

كان لكليب اخ اسمه المهلهل بن ربيعة، كان مبتعداً عن هموم الحروب حتى قتل اخاه، فجمع الجموع من تغلب وحلفائهم وقرر الاخذ بالثأر من كل بني بكر بن وائل ومن معهم من ربيعة، ومع ذلك تشير الرواية التاريخية إن بني تغلب حرصوا على السلم مع ابناء عمهم وقرروا فقط قتل جساس قاتل كليب، إلّا أن الأخير قد هرب ولم يعلم له اثر ففشلت على اثر ذلك كل محاولات الصلح بين الفريقين فاندلعت الحرب.

اعتزل بني حنيفة هذه الحرب، كذلك اعتزلها الحارث بن العباد مع قومه من بني يشكر بن بكر وائل وكذلك بني عجل، ولم يشارك بكر ضد تغلب الابني شيبان وعنزة وضبيعة وتيم اللات وقيس بن ثعلبة. وقال سعد بن مالك من بني ضبيعة بن ربيعة يلوم حنيفة ويشكر عدم الدخول في الحرب:

بـئـس الـخـلائـف بـعـدنـا اولاد يـشـكـر والـلـقـاح[1]
مـن صـد عـنـا نـيـرانـهـا فـأنـا ابـن قـيـس لا بـراح
الـمـوت غـايـتـنـا فـلا قـصـر عـنـه ولا جـمـاح

يوم النهي

وهو اول ايام الحرب بين تغلب وبكر، وقد كان بسيطا، ورئيس تغلب هو المهلهل ورئيس بكر هو الشاعر والفارس الحارث بن حلزة وانتصرت تغلب في ذلك اليوم.

يوم واردات والذنائب

والتقى الجمعان مرة أخرى وانتصرت تغلب انتصاراً ساحقاً على بكر ومن معها، وقتلت منهم عدداً كثيراً ، ثم التقوا بيوم عنيزة، ثم يوم القصيبات، وتغلب في كل هذه الايام ظاهرة على بكر بن وائل.

لكن جساس قاتل كليب ومسبب الفتنة لم يقتل رغم ذلك، فجعل بني تغلب قتل جساس هو الهدف الأساسي لهم في حربهم، ولعلمهم ان أي تفاوض لإنهاء الحرب ثمنه رأس جساس هذا.

وعندما علم قوم جساس حثوه على ان يرحل بعيداً إلى الشام، فرحل إلى هناك، إلّا أن ثلة من فرسان تغلب لحقوا به في الشام واشتبكوا معه في قتال شديد إلى أن تمكنوا من قتله آخذين بار كليب منه.

كان الجميع يرى انه بقتل جساس ستنتهي الحرب بين الحيين، غير أن المهلهل أصرّ على مواصلة القتال لإفناء البكريين، رغم ان والد جساس قد عرض الصلح على المهلهل وانه من الاسلم الكف عن القتال واعادة وحدة ربيعة كما كانت.

(١) اللقاح هو لقب لبني حنيفة لعدم خضوعهم لملك. انظر ايام العرب في الجاهلية تاليف محمد احمد جاد وآخرون

الحارث بن العباد يدخل الحرب بقومه بني يشكر

عندما رأى الحارث بن العباد اليشكري اصرار المهلهل على القتال رغم مقتل جساس، رأى ان يرسل ابنه بجير بن الحارث إلى المهلهل ويعرض عليه قتله بكليب ان كان المهلهل لايرى جساسا بكفاءة دم كليب.

إلّا أن المهلهل كما تذكر الروايات قتل ابن الحارث بن العباد قائلاً: بوء بشسع نعل كليب!

أي أن ابن الحارث بن عباد لايساوي في نظر المهلهل أكثر من قيمة حذاء كليب!

استفز هذا التصرف الارعن من المهلهل الحارث بن العباد، فقرر ان يدخل الحرب إلى جانب قومه بكر ضد المهلهل واتباعه من تغلب والنمر وغفيلة، وقد فاضت قريحة الحارث بن العباد بقصيدة مشهورة ذكر فيها فرسه النعامة:

قربا مربط النعامة مني   لقحت حرب وائلٍ عن حيال

قربا مربط النعامة مني   ليس قولي يراد بل الفعال

يوم تحلاق اللمم وانتصار بكر بن وائل

قويت كفة البكريين بعد دخول الحارث بن العباد بقومه بني يشكر، والتقوا مع بني تغلب يوم تحلاق اللم وهو آخر الأيام القوية بين الطرفين، وقتل فيه من اشراف تغلب خلق كثير على رأسهم امروء القيس التغلبي، بل كاد المهلهل نفسه ان يقتل على يد الحارث بن عباد إلّا أنه افلت بحيلة منه، وكان ابرز فرسان بكر في ذلك اليوم هو جحدر بن ضبيعة الذي اصبحت ذريته شيوخ بكر بن وائل فيما بعد.

وقد قرر المهلهل بعد هذه الدماء التي اريقت أن يغادر ديار قومه ليوفر مناخا ملائما للصلح، فرحل إلى اليمن، وانطوت بذلك الحرب

بين الطرفين برهة من الزمن حتى عاد المهلهل مرة أخرى لتشتعل جذوة الحرب من جديد، إلّا أن اسر المهلهل ومن ثم وفاته قد فصلت بين الجانبين.

نهاية الحرب الربعية

يقال إن الصراع بين بكر وتغلب استمر اربعين عاماً، والظاهر ان هذا الصراع ظل مسعراً حتى في بعد موت المهلهل وان ظل على هيئة تشنجات تصيب الطرفين من فترة إلى أخرى، وأظن ان هذه التشنجات جزء من الاربعين عاماً التي يقال انها مدة الحرب.

وفي بعض الروايات أن عمرو بن هند الملك اللخمي توسط بين بكر وتغلب ابني وائل فأصلح بينهما بعد حرب البسوس، وأخذ رهائن من كل حيّ من الحيين مئة غلام من أشرافهم، ليكف بعضهم عن بعض، فكانوا يصحبونه في السلم والحرب.

ويرى فريق آخر من الأخباريين أن الذي توسط لعقد الصلح بين القبيلتين هو المنذر بن ماء السماء[١].

ولكن التشنجات بين الطرفين ظلت مستمرة حتى في عهد عمرو بن كلثوم حفيد المهلهل، بل حتى في صدر الإسلام، ولذلك نحن نميل إلى أن الحرب قد انتهت على يد أحد الملوك الذي ذكرناهم بعد أن اخذ من كل قبيلة مجموعة من الفرسان الاشداء.

ونتج عن هذه الحرب ان ارتحلت تغلب ومن لحق بها من قبائل ربيعة إلى اواسط بلاد الشام والعراق في الجزيرة الفراتية، بينما انتشرت بكر ومن معها من عنزة وضبيعة في اليمامة وظلوا بادية بين تصل في نجعتها إلى اواسط العراق حيث تغلب.

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ص ٥٦٦.

ربيعة فيما بعد حرب البسوس إلى قبيل الإسلام (المرحلة الثانية من تاريخ ربيعة الجاهلي)

أصبحت قبائل ربيعة بعد الحرب على اربعة بطون متمايزة مع الاخذ بالحسبان البطون الداخلة في بكر أو تغلب وهذه قبائل ربيعة وديارها بعد حرب البسوس وقبل الإسلام:

١- بكر بن وائل ومعهم عنزة وبنو ضبيعة.

٢- تغلب بن وائل ودخل معهم كل من: النمر بن قاسط، عميرة بن اسد (شقيق عنزة) كذلك بنو غفيلة (وغفيلة شقيق وائل والنمر) كما مر معنا.

ويبدو من خلال استقراء وضع كل من بكر وتغلب ان نتيجة الحرب هي تفوق بني بكر على تغلب وحلفائها، إلّا أننا لا نستطيع الجزم ونقول ان تغلب قد هزمت، لكن الحرب انتهت على كل حال والثابت بعد الحرب هو انتشار بكر ومن معهم من عنزة وضبيعة في المنطقة بين اليمامة والعراق، وأصبحت الكلمة العليا في هذه المناطق لهم دون غيرهم من ربيعة حيث لم ينافسهم فيها الا تميم والتي سنتناول تاريخها وصراعها مع بكر، اما تغلب فقد قربهم ملوك الحيرة (من بني لخم) ونزلوا الجزيرة الفراتية (وهي جزيرة بين نهري دجلة والفرات).

كانت قبائل ربيعة بعمومها تعتنق الديانة النصرانية شكليًّا، لكن تغلب بحكم قربهم من الروم كانوا اعمق في التنصر الذي ظهر واضحاً في العصور التالية، عصر صدر الإسلام وما تلاه إلى القرن الرابع الهجري.

٣- بنو حنيفة بن لجيم الذي اتخذوا اليمامة مركزهم، وكانوا مستقلين عن بكر وتغلب ولهم رئاستهم الخاصة إلّا أن لهم علاقة حميمة بتغلب.

٤- بني عبد القيس بن افصى وبلادهم البحرين وينتجعون إلى العراق مثل بكر بن وائل. ثم دخلوا في بني شيبان في عصور لاحقة.

هذه القبائل الربعية كانت على علاقة مباشرة بملوك العرب في العراق، وخاصة الملك عمرو بن هند الذي قيل انه هو من انهى الصراع الربعي بين بكر وتغلب.

وعلى هذا الاساس سنقوم بعرض تاريخ موجز لكل من هذا البطون في المراحل اللاحقة، وصولاً إلى ظهور الدعوة المحمدية وموقف هذه القبائل الربعية منها.

اولاً - تغلب بن وائل بعد حرب البسوس إلى قبيل الإسلام

ديارهم الجزيرة الفراتية ولهم غارات مشهورة على جزيرة العرب في زمن عمرو بن كلثوم وهو من اشهر شعراء العرب وله معلقة خالدة من معلقات العرب المشهورة، وقد ترأس قومه تغلب في مرحلة ما بعد البسوس، وجدّه لأمه هو المهلهل مشعل جذوة الحرب بين بني وائل، وقد ظلت حرب البسوس تلقي بظلالها حتى في عهد عمرو هذا وبعد وفاة جده، وظهر ذلك جليًّا في اشعاره ومعلقته التي وصلت الينا، وكثيراً ما حدثت مشاكل هددت باندلاع االحرب مجددا في ربيعة إلّا أن تدخل ملوك الحيرة كان يلجم الأمور دائماً، ولكن في عهد أحد ملوكهم - وهو عمرو بن هند - ساءت علاقة بني تغلب بهذا الملك بسبب اتهام بني تغلب له بالانحياز إلى بكر الذين وصل إلى رئاستهم أحد الاعلام وهو الحارث بن حلزة وهو كابن كلثوم صاحب أحد المعلقات الشهيرة، وكان عمرو بن هند يجمع جذمي ربيعة بكر وتغلب ويقربهما ويستعين بهم في حروبه.

لعل أكثر اخبار تغلب في الفترة مابين نهاية حرب البسوس حتى ظهور الإسلام تتعلق بعمرو بن كلثوم والاحداث التي جرت في عهده، خاصة انه سجلها باشعاره وخاصة معلقته الشهيرة، ويذهب شارح ديوان

عمرو بم كلثوم الأستاذ عبد القادر المايو ان ابرز الاحداث التاريخية لابن كلثوم وبالتالي تغلب هي:

١- انشاده لمعلقته

٢- قتله لعمرو بن هند ملك الحيرة

٣- اسره على يد يزيد بن أبي شمر زعيم بني حنيفة

قلنا ان العداء بين تغلب وبكر لم ينقطع وان انتهت الحرب فعليًّا، يبين ذلك مافاض من قرائح عمر بن كلثوم وهمزه ولمزه ببني عمومته بكر بن وائل، فمن ذلك قوله يتمنن على بكر وان قومه هم حماة بني وائل:

الـم تـشـكـر لـنـا ابـنـاء تـيـم   واخـوتـهـا الـلـهـازم والـقـعـور

بـانـنـا نـحـن احـمـيـنـا حـمـاهـم   وانـكـرنـا ولـيـس لـهـم نـكـيـر

ويقول ان قومه تغلب هم هامة ربيعة:

لقد علمت عليا ربيعة اننا   ذراها وانا حين تنسب جيدها

وكان عمرو بن كلثوم يتهم عمرو بن هند ملك الحيرة بميله إلى بكر دون تغلب، وزعيم بكر آنذاك هو الحارث بن الحلزة البكري كما قلنا، وكان مقرباً لعمرو بن هند، فأخذ ابن كلثوم يزيد من حدة فخره بقومه ويهجو ويلمز ببكر وملك الحيرة، بل ويهجوهم صراحة:

ألا مـن مـبـلـغ عـمـرو بـن هـنـد   فـمـا رعـيـت ذمـامـة مـن رعـيـتـا

اتـاخـذ مـالـكـا بـذنـوب تـيـم   لـقـد خـنـت الامـانـة واعـتـديـتـا

وعندما بدا عمرو بن كلثوم يتمادى وينظم معلقته، استفز ذلك عمرو بن هند الملك، فاراد اذلاله عن طريق امه بعد دعوته لحفل فاخر، إلّا أن ابن كلثوم فطن لتلك المؤامرة فجمع قومه واغار على الملك وتمكن من قتله، فكانت تلك بداية الشعور لدى كل العرب بأن بني تغلب وزعيمهم ليسو بالقبيلة الهينة، وساعد ذلك ان يستهين عمر بن كلثوم ببقية القبائل

فيمارس غاراته منطلقاً من أرض الجزيرة إلى نجد والحجاز حيث قبائل بكر وقيس وحنيفة وتميم، ومن تلك الغارات اغارته على بني حنيفة وعليهم يزيد بن عمرو بن شمر، فتمكن يزيد من هزيمته واسره، وقرر اذلاله إلّا أنه ناشده القربى بربيعة، فيقال صاح قائلاً: يالربيعة! فاجتمع بني لجيم (ابو حنيفة) ان يخلوه بل ويكرموه ويكسوه (الاغاني للاصفهاني ج١١ ص٥١) فكان ان مدح عمرو ابن كلثوم ماصنعه يزيد له:

جـزى الله الاغـر يـزيـد خـيـرا   ولـقـاه الـمـسـرة والـجـمـالا
بـماخـذه ابـن كـلـثوم بـن عـمـرو   يـزيـد الـخـيـر نـازلـة نـزالا

وفي عهد عمرو بن كلثوم ظهر بعض الناس يزعم انتسابه لربيعة بسبب شهرتها، فكان لذلك تأثيره على عمرو بن كلثوم حيث تصدى لذلك بقوة، فمن ذلك قوله لبني قتيبة وهم بطن من قيس عيلان يزعمون انهم من وائل:

زعـمـت قـتـيـبـة انـهـا مـن وائـل   نـسـب بـعـيـد ياقـتـيـب فـاصـعـدي

ومن ذلك أيضاً قوله في رجل من بني نهد زعم انه من تغلب في الجزيرة الفراتية:

أنـهـديـا اذا مـاجـئـت نـهـدا   وتـدعـي بـالـجـزيـرة مـن نـزار
الا تـغـنـي كـنـانـة عـن اخـيـهـا   زهـيـر فـي الـمـلـمـات الـكـبـار

أيام تغلب مع تميم في الجاهلية بعد حرب البسوس:

بما أن بني تغلب كانوا بعيدين عن ارض تميم، فقد كانت الاحتكاك بين الطرفين محدودا بعكس الاحتكاك بين تميم وبكر، إلّا أن بني تغلب لم ينقطعوا عن الإغارة والانتجاع إلى نجد كما قلنا سابقا، ومن هذه الغارات ما حدث في وادٍ بنجد يدعى عاقل.

فقد اغار فارس من تغلب اسمه الصمة الجشمي (وجشم هم بطن

من تغلب) على بني حنظلة من تميم، وتم اسر الصمة حتى اطلق نفسه بقتل أحد فرسان تميم ولاذ بالفرار.

وفي اجتماع العرب في موسم الحج إلى مكة التقى الصمة ببعض فرسان تميم وتذاكروا هروبه وموقفه، فكان أن غزاهم الصمة مرة اخرى، ولكنه هزم واسر مرة أخرى ومن ثم قتل.

ومن الأيام التي تسجل لتغلب ضد تميم في الجاهلية يوم زرود وهي بلدة قرب الكوفة المعاصرة، حيث كان يربع قسم من تميم في تلك المنطقة، فهاجمهم فرسان من تغلب بقيادة خزيمة بن طارق التغلبي وغنم منهم الابل ولاذ بدسار قاصدا الجزيرة حيث قومه، إلّا أنهم ركبوا في اثره وافتكوا ابلهم واسرو خزيمة التغلبي.

هذا باختصار اهم اخبار قبيلة تغلب في الفترة ما بين نهاية حرب البسوس إلى قبيل ظهور الإسلام، ولوحظ فيه نوع من الغموض ولكن شهرة عمرو بن كلثوم وماوصلنا من اخباره واشعاره القت الضوء على الوضعية التي كانت قبائل ربيعة عليها في تلك الفترة، بقي ان نقول ان المرجح ان عمرو بن كلثوم توفي قرابة عام ٦٠٠م أي ما يوافق ٢٢ قبل الهجرة النبوية الكريمة مما يدل على ان الرسول ﷺ كان معاصراً لعمرو بن كلثوم.

ثانياً - تاريخ بكر بن وائل بعد حرب البسوس حتى قبيل الإسلام

قلنا سابقاً إن قبيلة بكر بن وائل على جذمين هم اللهازم والذهلان، وعلى هذا الاساس سنقوم بعرض التاريخ البكري كما جاء في المصادر العربية القديمة.

بما أن بكر أصبحت القبيلة الربعية التي تنتجع بين اليمامة والبحرين والعراق كان من الطبيعي ان تصطدم بعدو كبير هم قبيلة بني تميم، التي كانت تنافس بكر المراعي هذه المناطق، وقد ترأس بكر في فترة

التشنجات التي تلت حرب البسوس الحارث بن حلزة وقد مر معنا بعض اخباره مع بني تغلب زمن عمرو بن كلثوم زعيم تغلب.

اهم ما يلفت النظر في تاريخ بكر قبل الإسلام هي ايامهم مع تميم ومن ثم ايامهم مع الفرس وخاصة يوم ذي قار الذي لا يزال متوارثاً عند رواة وائل المعاصرين من ابناء قبيلة عنزة وسنتاول هذه الايام البكرية بشيء من التفصيل، مع ضرورة الإشارة إلى هذه الايام قد وقعت قبل ظهور الإسلام بفترة قليلة جدًّا وبعضها قد عاصر الرسالة المحمدبة.

يوم الوقيط

وفي هذا اليوم تجمعت اللهازم (عنزة وتيم اللات وقيس بن ثعلبة وعجل) لتغير على بني تميم في غفلة من الأخيرين، وكان هناك اسيراً من بني تميم عند اللهازم اسمه ناشب العنبري[١]، وقد شاهد اللهازم وهم يغيرون على قومه، فطلب منهم رجلاً يذهب لقومه ويوصي له بوصية، فعلم اللهازم ان الرجل يريد أن ينذر قومه، فأتوا له برجل احمق أو هم قد ظنوه احمق، إلّا أن الرجل حفظ وصية ناشب العنبري فأوصلها إلى تميم منذراً إياها من بكر بن وائل، ففرّ بني تميم إلى منطقة الصمان، الا بني حنظله (بطن من تميم) فقد رفضوا التحول للصمان فصبحتهم اللهازم على الوقيط وهزمتهم شر هزيمة، وقد غنمت قبائل بكر بن وائل الكثير من الابل والانعام في ذلك اليوم وقتلت عدداً من فرسان تميم واشرافها تلك الحقبة.

يوم النباج وثيل

كان زعيم تميم في هذا اليوم هو قيس بن عاصم المنقري، وقرروا الاغارة على قبائل بكر بن وائل، فوجدوا اللهازم في النباج وثيل وهي

(١) بنو العنبر بطن من تميم

ديار لبكر، وصبحوهم وتقاتلوا قتالاً شديداً حتى انهزمت بكر بلهازمها وشيبانها، وقال شاعر تميم يمدح قيس بن عاصم:

فلا يبعدنك الله قيس بن عاصمٍ فأنت لنا عز عزيز ومعقل
وأنت الذي حربت بكر بن وائل وقد عطلت منها النباج وثيل

وقال قرة ابن قيس بن عاصم نفسه شعراً يشمت فيه من اللهازم:

أنا الذي شق المزاد وقد رأى بثيل احياء اللهازم حضرا
فصبحهم بالجيش قيس بن عاصم وكان اذا ما أورد الأمر اصدرا

وهذا اليوم من اعنف الايام بين بكر وتميم.

يوم جدود

اجتمع الذهلين واللهازم بطني بكر بن وائل بقيادة الحارث بن شريك الشيباني للأغارة على بني سليط بن يربوع من تميم، ويقال أن بينهم موادعة سابقة ولكن بكر بن وائل هموا بالغدر بهم، لكن شخصاً اسمه عتبة بن شهاب كان قد انذر تميم من غدر بكر، وكان مع عتبة هذا قومه وقد حالوا بين بكر بن وائل ومناهل المياه، وقال له الحارث الشيباني وقد رأى ان موقفه ضعيف:

انا لا أرى معك الا بني جعفر، وانا في جماعة من بكر بن وائل، فإن ظفرت بكم قل عددكم، وطمع فيكم عدوكم، وان انتم ظفرتم بي لن تقتلوا الا اقاصي عشيرتي، ووالله ما قصدتكم، وقد عرفتم الموادعة بيننا وبين قومكم بني سليط بن يربوع، فهل لكم ان تسالمونا وتاخذوا مامعنا من التمر وتخلوا سبيلنا؟

واقول: يبدو أن الحارث الشيباني قد اسقط فيه وقد وصل النذير لبني تميم، ولم يرى بدا من الموادعة والمسالمة.

وأخذ منهم عتبة التمر كما قالوا وأخلى سبيلهم.

لكن الحارث الشيباني مع ذلك قام بالإغارة على بني ربيع بن الحارث من تميم في موضع يقال له جدود، وسلب اموالهم وممتلكاتهم، واستصرخت تميم وركبوا في طلب قبائل بكر وقائدهم هو الاهتم بن سمي المنقري فصاح الاهتم: يا آل سعد

وصاح الحارث: يا آل وائل

واشتبك الطرفان وحمي الوطيس، وهزمت بكر بن وائل، واسترجع التميميين ما كان قد أخذ منهم، وكان قيس بن عاصم قد طعن الحارث الشيباني طعنة في مؤخرته بقصد قتله أو اسره لكنه نجا من هذه الطعنة التي سميت حفزة، وسمي بعد ذلك باسم الحوفزان، وقال شاعر تميم سوار بن بن حيان المنقري يشير إلى ذلك:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

فمالك من ايام صدق تعدها كيوم جواثا والنباج وثيلا

يوم ذي طلوح

كان رجل من بني تميم واسمه عميرة بن طارق اليربوعي مقيما عند بكر بن وائل، وكان ابجر العجلي من فرسان بكر وعقدائها، ولعميرة التميمي هذا زوجة عند بني تميم.

وحدث ان ابجر العجلي قال له ذات يوم:

اني لا أرجوا ان غزوا قومك وآتي لك بأهلك!

فقال له عميرة التميم: ما أراك ستبقي علي حتى تسلبني اهلي!

وقد ندم ابجر على قوله هذا للرجل التميمي وابدا أسفه على مابدر منه. وقال له ان أي حرب بين بكر وتميم لن تشمل قوم عميرة بن بن طارق ابداً.

مع ذلك قاد ابجر فريقاً من اللهازم وهم عنزة وبني عجل وتيم يريد

غزو تميم بهم، ومعه الحارث بن شريك الشيباني (الملقب بالحوفزان) أميراً على بني شيبان والذهلان، ومعهم كذلك عميرة بن طارق التميمي!

واستاذن عميرة رجلاً من بكر اسمه حرقصة في ان يحمل اهله قبل وصول الغزو الوائلي إليهم، فاذن له حرقصة دون علم أبجر العجلي الذي افتقد عميرة وسأل عنه فقيل له انه ركب إلى قومه.

وخلاصة الأمر أن عميرة هذا قد وصل إلى قومه تميم وانذرهم من قبائل بكر، في ذات الوقت فأن ابجر العجلي في من معه من اللهازم كانوا واثقين من عميرة هذا.

الا السيف سبق العذل وتفاجأ البكريين بعدوهم، واقتتلوا قتالاً مريراً قتل كل من كان من بني شيبان حاضراً ذلك اليوم.

يوم الغبيط

ترأس بسطام بن قيس اللهازم، والحارث بن شريك (الحوفزان) ومفروق بن عمروا على شيبان وذهل، وقرروا غزو تميم.

فأغاروا على بني ثعلبة بن يربوع، وبني ضبة، وكان مع تميم بني ثعلبة بن فزارة، وبطن من ذبيان متجاورين بصحراء فلج (الافلاج) بأول صحراء الدهناء الحالية.

وقد اشتبك الوائليون مع هذه القبائل واصابوا منها شيئاً كثيراً ، واكتسحوهم اكتساحاً، فركب عليهم بنو مالك وهو بطن من تميم على رأسهم عتيبة بن حارث اليربوعي، وقد تمكن بني تميم هؤلاء من احاطتهم (أي احاطة بكر بن وائل) ومع تميم من الفرسان مالك بن نويرة[١] والاحيمر بن عبدالله واسيد بن حماءة وغيرهم.

(١) مالك بن نويرة عاصر الرسول ﷺ واسلم ولكنه رفض دفع الزكاة في عهد أبي بكر الصديق وقتله خالد بن الوليد بالخطأ.

أحاط هؤلاء الفرسان الاشداء بقبائل بكر بن وائل وقاتلوهم وهزموهم في الغبيط، واستعادوا املاكهم التي اخذت، ولكن عدداً من فرسان تميم هؤلاء قد قتلوا ومنهم الاحيمر بن عبدالله قتله بسطام بن قيس.

لكن تميماً استطاعت اسر بسطام بن قيس اهم فرسان بكر على الإطلاق، وكان الذي اسر بسطام هو عتيبة بن الحارث، ورغم مطالبة تميم لعتيبة ان يقتل بسطاماً إلّا أنه فاداه واطلق صراحه ونجا بسطام من الموت، بعد أن حلقت ناصيته واخذ علي عهداً أن لا يغزوا بني شهاب رهط عتيبة، ولعتيبة شعرا في اسر بسطام:

أبلغ سراة بني شيبان مالكة   أني أبأت بعبدالله بسطاماً

أن تحرزوه بذي قارٍ فذاقنةٍ   فقد هبطت به بيداً وأعلاماً

قاظ الشربة في قيد وسلسلةٍ   صوت الحديد يغنيه اذا قاما

يوم الاياد

كان الفرس في ذلك الوقت على علاقة بقبائل بكر بن وائل، وقد جعلوا عين التمر[١] مركزاً لبكر وتغلب يجهزونهم منها ويستعينون بهم في الحروب.

وكان عدد من فرسان اللهازم من بكر عند عامل عين التمر من قبل الفرس، وقام العامل بتجهيزهم وتسليحهم، واغراهم ذلك بمهاجمة بني تميم في منطقة يقال لها الحزن وهي مرعى لبني تميم من اجل مراعي العرب.

كان زعيم بكر ذلك اليوم هو بسطام بن قيس وهو من عقداء بكر وفرسانها الاشداء.

(١) عين التمر هي بلدة عراقية بالقرب من كربلاء اليوم، وكانت مركزا لبني وائل في العهد الإسلامي، ومنها رحلوا إلى خيبر تحت اسم عنزة المعاصرة وسنتناول ذلك لاحقاً.

وكان الوقت شتاء فرحل بني تميم بطن مليحة وهو وادي خصب، ونزل بسطام بقبائله من بكر هضبة اسمها الحصى.

ثم رأى بسطام جيش تميم في قلة الحزن، وشاهد غلام من بني تميم عرفه بسطام بن قيس وقال له:

اخبرني ايها الغلام خبر حيك، اين هم من السواد الذي بالحديقة؟

قال الغلام: هم بنو زبيد (بطن من تميم)

قال بسطام: كم هم من بيت؟

قال الغلام: خمسون بيتاً.

قال بسطام: فأين بنو عتبة؟ (وهو يعني بطناً آخرا من تميم)

قال الغلام: نزلو روضة الثمد.

ورجع بسطام لقومه وقال لهم:

اتطيعوني؟ أرى لكم أن تميلوا على هذا الحي الحريد من بني زبيد (يعني المتنحي عن القوم) فتصبحوا غدا غانمين سالمين.

قالوا لبسطام: ومايغني عنا بنو زبيد هؤلاء؟ لايردون رحلتنا! يعنون انه لا فائدة من غزوهم

قال لهم بسطام: أرى ان السلامة في أحد الغنيمتين..

وبعد مشاورات بسطام لقومه بكر اتفق الجميع على غزو تميم، ووضعو لذلك خطة انتهت بالفشل الذريع ودارت الدائرة على بسطام وقبائله من بكر، مما جعل شعراء بكر يهجونه ويهجن من تبع من بني وائل، ومنهم العوام الشيباني الذي قال:

قبح الإله عصابة من وائلٍ يوم الافاقة أسلموا بسطاما
كنتم اسودا في الرخا فوجدتم يوم الافاقة بالغبيط نعاما

ويشير بالبيت الثاني إلى يوم الغبيط عندما اسر بسطام بن قيس على يد فرسان تميم.

يوم قشاوة

في هذا اليوم غزا بسطام بن قيس في اللهازم جمعاً من تميم، واخذ منهم غنائماً كثيرة، ولحق به ركب من تميم، بيد ان الركب التميمي الذي لحق ببكر لم يكن كافياً حيث أنه لم يشمل بني تميم اهل العدد والعدة.

انتهز بسطام قلة عدد بني تميم وهاجمهم قبل وصول المدد التميمي، فهزمهم بسطام واسر من فرسانهم أبا مليل وهو من كبار تميم وقد قتل ابنه في ذلك اليوم.

ثم اطلق بسطام أبا مليل بشرط ان لايغزوهم مرة اخرى، وجز ناصيته، ولكنه عندما غادر إلى قومه لم ينفذ الوعد، وهم ان يغدر ببسطام في نفس اليوم الذي اطلق فيه، ولكن بسطاما كن حذراً منه ولم يصبه أبا مليل بشيء، فاضطر أبو مليل ان يعود لقومه ويخبرهم خبره.

يوم زبالة

هذه المرة كان بني تميم هم المبتدئين بالغارة، حيث خرج أبو عجل أحد فرسان بني حنظلة ومعه عدد من فرسان قومه ورئيسهم الاقرع، واغاروا على بكر بن وائل في منطقة اسمها زبالة قرب الكوفة على الطريق بينها وبين مكة.

ولكن تميم هزمت في غارتها هذه واسر عدد من فرسانها، فاللهازم اسروا الاقرع وسلموه بسطام بن قيس ومعه اخوه ومجموعة من بني تميم.

يوم مبايض

كانت الفُرسان إذا كانت أيامُ عُكاظ في الشهر الحرام وأَمن بعضهم بعضاً تقنّعوا كيلا يُعرفوا، وكان طَريف بن تميم العَنْبري لا يتقنع كما يَتَقنَّعون، فوافى عُكاظَ وقد كشفت بكر بن وائل، وكان طريفُ قد قتل شَراحيل الشَيباني، أحد بني عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهل بن شيبان. فقال حَصِيصه: أروني طريفاً. فأروه إياه. فجعل كُلّما مرّ به تأمَله ونَظر إليه ففَطِن طَريف، فقال: مالك تنظر إليّ؟ فقال: أتوسّمك لأعرفك. فلله علي إن لَقِيتُك أن أقتلكَ أو تَقْتلني. فقال طريف في ذلك:

أَوَ كُلما وردتْ عُكاظَ قَبيلةٌ	بَعثوا إلي عريفَهم يتوسَّم
فتوسموني إنّني أنا ذلكم	شاكِي سلاحي في الحوادث مُعْلَم
تحتي الأغر وفوق جِلْدي نَثْرةٌ	زَغف تَردُ السيفَ وهو مُثَلّم
حولي أُسَيِّدُ والهجيم ومازنٌ	وإذا حللتُ فحولَ بيتيَ خَضَم

قال: فمضى لذلك ما شاء الله. ثم إنّ بني عائذة، حُلفاء بني أبي ربيعة بن ذهل بن أبي شيبان. وهم يزعمون أنهم من قريش، وأن عائذة ابنُ لُؤي بن غالب-خرج منهم رجلان يَصِيدان فعَرض لهما رجل من بني شَيبان فذَعر عليهما صيدَهما، فوثبا عليه فقتلاه. فثارت بنو مُرّة بن ذهل بن شَيبان يريدون قَتلهما. فأبت بنو أبي ربيعة عليهم ذلك. فقال هانئ بن مَسعود: يا بني أبي ربيعة، إن إخوتكم قد أرادوا ظُلمكم، فانمازوا عنهم. قال: ففارقوهم وساروا حتى نَزلوا بمُبايض ماء، - ومُبايض: عَلَم من وراء الدهناء- فأَبق عبدٌ لرجل من بني أبي، ربيعة فسار إلى بلاد تَميم، فأخبرهم أنّ حيَاً جديداً من بني بكر بن وائل نُزول على مُبايض، وهم بنو أبي ربيعة، أو الحيّ الجديد المُنتقى من قومه. فقال طَريف العَنبريّ: هؤلاء ثأرى يا آل تَميم، إنما هم أَكَلة رأس. وأقبلَ في بني عمرو بن تميم، وأقبل معه أبو الجَدْعاء، أحد بني طُهيَّة، وجاءَه فَدكيُّ بن أَعْبد

المِنْقري في جَمْع من بني سعد بن زيد مَناة، فنَذِرت بهم بنو أبي ربيعة، فانحاز بهم هانئ بن مَسعود، وهو رئيسهم، إلى عَلَم مُبايض، فأقاموا عليه. وشرَّقوا بالأموال والسرح، وصَبّحتهم بنو تميم. فقال لهم طَريف: أطيعوني وافرغُوا من هؤلاء الأكلب يَصْفُ لكم ما وراءهم. فقال له أبو الجدعاء رئيس بني حَنظلة، وفدكيّ رئيسُ سعد بن زيد مناة: أنُقاتل أكْلباً أحرزوا نفوسهم ونترك أموالهم ما هذا برأي، وأبوا عليه. فقال هانئ لأصحابه: لا يُقاتل رجل منكم. ولحقت تميم بالنَّعم والبغال، فأغاروا عليها. فلمّا ملئوا أيديهم منِ الغَنيمة، قال هانئ بن مسعود لأصحابه: احمِلوا عليهم. فهزموهم وقتلوهم طَريفاً العَنبري، قتله حَمصيصَة الشَّيباني، وقال:

ولقد دعوتُ طريف دعوةَ جاهل ... سَفَهاً وأنت بعَلم قد تَعلُم
وأتيتُ حيَّاً في الحُروب محلَّهمَ ... والجيشُ باسم أبيهم يستقدم
فوجدتُ قوماً يَمنعون ذِمارهم ... بُسْلاً إذا هاب الفوارسُ أَقْدموا
وإذا دُعُوا أبني رَبيعة شَمَّروا ... بكتائب دون السَّماء تُلَمْلم

يوم الزورين

من اهم أسباب الصراع بين بكر وتميم هي تجاورهم في المراعي، ورغبة البكريين الدائمة في الانتجاع حول مناهل المياه التميمية التي كانت عادة افضل حظا من بكر بن وائل في فصل الشتاء.

وقد اسفرت حدة الصراع العنيف بين الطرفين ان اصبح كل تميمي مهدور الدم عند بكر والعكس صحيح.

وفي هذا اليوم الذي هو يوم الزورين احتشدة بكر بقيادة أبو مفروق عمرو بن قيس بن مسعود الشيباني.

واقبلت تميم ببعيرين مجلللين هما الزورين المسمى هذا اليوم باسمهم.

يقول ابن الاثير في تاريخه: فبلغ خبرهم بكر بن وائل فتقدموا وعليهم الأصم عمرو بن قيس بن مسعود أبو مفروق وحنظلة بن سيار العجلي وحمران ابن عبد عمرو العبسي، فلما التقوا جعلت تميم والرباب بعيرين وجللوهما وجعلوا عندهما من يحفظهما وتركوهما بين الصفين معقولين وسموهما زويرين، يعني: إلهين، وقالوا: لا نفر حتى يفر هذان البعيران. فلما رأى أبو مفروق البعيرين سأل عنهما فأعلم حالهما، فقال: أنا زويركم، وبرك بين الصفين وقال: قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفر. فاقتتل الناس قتالاً شديداً، فوصلت شيبان إلى البعيرين فأخذوهما فذبحوهما. واشتد القتال عليهما، فانهزمت تميم وقتل أبو الرئيس مقدمهم ومعه بشر كثير، واجترفت بكر أموالهم ونساءهم وأسروا أسرى كثيرة، ووصل الحوفزان إلى النساء والأموال، وقد سار الرجال عنها للقتال، فأخذ جميع ما خلفوه من النساء والأموال وعاد إلى أصحابه سالماً؛ وقال الأعشى في ذلك اليوم:

سلم لا تسألي عنّا فلاً كشفت ... عند اللقاء ولا سود مقاريف
نحن الذين هزمنا يوم صبّحنا ... يوم الزّويرين في جمع الأحاليف
ظلّوا وظلّت تكرّ الخيل وسطهم ... بالشيّب منّا والمرد الغطاريف
تستأنس الشرف الأعلى بأعينها ... لمح الصقور علت فوق الأظاليف
انسلّ عنها بسيل الصّيل فانجردت ... تحت اللّبود متونٌ كالزحاليف

يوم الشيطين

واعتقد انه آخر يوم لبكر بن وائل في الجاهلية مع بني تميم، لانه حدث متزامنا مع توافد القبائل على الرسول الكريم ﷺ معلنة إسلامها.

وقبائل بكر وتميم كانت بعيدة نسبيًّا عن المواطن التي دارت في احداث الرسالة المحمدية، ولكنها رأت أن مصيرها اما الإسلام أو المواجهة مع النبي واتباعه من الصحابة من قريش والاوس والخزرج.

في تلك الفترة كانت العداوة لا زالت مستعرة بين بكر وتميم، وقد قرر البكريون الاغارة على تميم في منطقة الشيطين (شمال نجد) ومن ثم ارسال وفدهم إلى رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم، لعلمهم ان الإسلام يجب ماقبله فلاتستطيع تميم الانتقام منهم بغارة مضادة لانها ستكون مضطرة للدخول في الإسلام.

نفذ البركيون خطتهم هذه، وأغاروا على تميم في منطقة الشييطين، قادمين من منطقة اسمها لعلع في العراق اليوم، وهجم البكريون هجوما ناجحا وكاسحا وكتب لهم الانتصار ذلك اليوم، وصور شاعر اللهازم من بكر رشيد بن رميض العنزي ذلك:

وما كان بين الشيطين ولعلع   لنسوتنا الا منا قل اربع
فجئنا بجمع لم يرى النس مثله   يكاد له ظهر الوريعة يضلع

ورد عليه شاعر تميم يذم قبيلة عنزة مما يؤكد ارتباطها ببكر:

فخرتم بيوم الشيطين ولعلع   وغيركم يضر بيوم الشيطين وينفع
وجئتم بها مذمومة عنزية   تكاد من اللؤم المبين تظلع
وما منكم افناء بكر بن وائل   لغارتنا الا ذلول موقع

وبعد هذه المعركة الحاسمة اسلمت قبائل بكر بن وائل واوفدت وفدا إلى رسول الله ﷺ، وسنتناول ذلك لاحقاً.

يوم ذي قار (مفخرة العرب الكبرى)

هذا اليوم هو مفخرة ربيعة خاصة ومفخرة العرب العامة، فهو اول يوم انتصف فيه للعرب من الفرس كما قال الرسول الكريم ﷺ، وقد حدد ابن خلدون تاريخ ذلك اليوم في السنة الثالثة من البعثة النبوية[١].

(١) تاريخ ابن خلدون ص ٥٧٤.

كانت القبائل العربية ومنها ربيعة بطبيعة الحال على علاقة مباشرة بالفرس وملوكهم، ولتنظيم العلاقة بين العرب والفرس كانت هناك بعض الممالك العربية والتي تتبع ملوك الفروس وتقوم بالنيابة عنهم في سياسة هذه القبائل وضمان عدم تعرضها لمصالح فارس وتجارتها، وتختلف اساليب هذه السياسة بين الاخذ بالقوة أو باليين وتاليف امر هذه القبائل عن طريق الاعطيات التي توزع على امرائها وشيوخها.

كان الفرس يحتقرون العرب، والعرب انفسهم كانوا مشتتين على قبائلهم، واحدى الممالك العربية التي كانت مسؤولة عن تنظيم العلاقة بين قبائل العرب والفرس هي ممكلة الحيرة بالقرب من عين التمر.

وقد مر معنا ان قبائل بكر وتغلب حظيت بأهمية خاصة عند الفرس وجعلت لهم عين التمر مركزا رئيسيًّا يمتارون منهم.

وقصة معركة ذي قار هي قصة طويلة قام الكثير من اهل التاليف بادراجها بكتبهم وتناولها بعضهم بخيالهم وقيلت فيها تفاصيل كثيرة، ونحن يهمنا من هذا الحدث التاريخي الهام هو نتائجه المباشرة، والقبائل الربعية المشاركة فيه سواء تلك التي كانت في طرف المنتصر أو المنهزم، لأن القصة بحسبة رواة ابناء قبيلة عنزة الوائلية لا تزال تلقي بظلالها عليهم رغم مرور مايزيد على الالف ونصف من الاعوام والسنون، ومن الطبيعي ان تختلف رواية هؤلاء قليلاً عن الرواية التاريخية الموثقة قديماً.

اما سبب معركة ذي قار الكبرى، فهي ببساطة أن ملك الحيرة في وقته كان اسمه النعمان بن منذر، وكان معينا ومدعوما من قبل ملوك فارس، ويكفيهم شرور القبائل العربية المحيطة ببلده الحيرة والتي تأتي في فترة القيظ عادة وتزعج الفرس، وكانت بكر في تلك الفترة تأتي من نجد للقيظ في ذي قار، في حين كانت تغلب والنمر تأتي إلى ذات المنطقة عين التمر.

كان ملك الفرس تلك الحقبة واسمه (كسرى ابرويز) قد غضب على النعمان الملك بسبب اشكال بين الطرفين لاحاجة لذكره هنا، وعرف النعمان ان كسرى سيقتله لا محالة ويسبي ذراريه، فرأى أن يلجأ لقبائل العرب عله يجد من يحمي على الاقل اهله ونسائه ان هو قتل، ورغم رحيله لعدة قبائل إلّا أن أي منها لم يكن على استعداد لمعاداة كسرى، فلجأ إلى قبائل بكر (الذهلين واللهازم) واميرهم في ذالك الوقت هانيء بن مسعود الذهلي الشيباني، الذي تعهد بأمانته واقطعه عهدا أن الحر لا يسلم امانته أبداً ولو لآخر رجل من قبائل ربيعة.

ومن الطبيعي ان يغضب تحدي الربعيين كبرياء كسرى، الذي امر اتباعه من العرب بتحذير هؤلاء مغبة ما يقومون به، إلّا أن هانيء تمسك برأيه وصمم على القطع بعهده وليكن مايكن.

ويذكر بعض المؤرخين ان بني تغلب والنمر بن قاسط الجذم الثاني من ربيعة كانوا يكرهون بكرا لدرجة انهم هم من اشار على كسرى بعدم غزو قبائل بكر حتى يأتي موسم القيظ وتأتي جموع بكر إلى مواردها المعتادة في حنو ذي قار.

فلما تم ذلك واجتمعت بكر في حنو ذي قار، جاءت الفرس معها الجنود والفيلة عليها الأساورة، فالتحموا بأرض ذي قار. فلما كان اليوم الأول، استظهر الفرس على العرب، ثم جزعت الفرس في اليوم الثاني من العطش، فصارت إلى منطقة يقال لها الجبابات، فتبعتهم بكر وباقي العربان، فعطش الأعاجم، ومالوا إلى بطحاء ذي قار وبها اشتدت الحرب، وانهزمت الفرس، وكسرت كسرة هائلة، وقتل اكثرهم وفيهم الهامرز وجلابزين من اهم قوادهم، وانتصر العرب على الفرس انتصاراً عظيماً، وانتصفت فيه العرب من العجم[1].

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي ص ٥٧٨.

ويقول الدكتور جواد علي في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام):

«ويوم ذي قار لم يكن اذن يوماً واحداً، أي معركة واحدة وقعت في ذي قار وانتهى أمرها بانتصار العرب على الفرس، بل هو جملة معارك وقعت قبلها ثم ختمت بـ «ذي قار»، حيث كانت المعركة الفاصلة فنسبت المعارك من ثم إلى هذا المكان. ومن هذه الأيام: يوم قُراقر، ويوم الحنو. حنو ذي قار، ويوم حنو قراقر، ويوم الجبابات، ويوم ذي العُجرم، ويوم الغدوان، ويوم البطحاء: بطحاء ذي قار، وكلهن حول ذي قار» أ.هـ

وقد صور عدد من الشعراء العرب وخاصة الشعراء الوائليين هذا اليوم التاريخي ومنهم الاعشى ميمون بن قيس وقد مدح بني ذهل قائلاً:

فدىً لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء، وقلت
هم ضربوا بالحنو، حنو قراقرٍ مقدمة الهامرز حتى تولت
وأفلتنا قيسٌ وقلت لعله هنالك لو كانت به النعل زلت

وقال المؤرخ الطبري عن شعراء وائل:

وقال بكير، أصم بني الحارث بن عباد، يمدح بني شيبان:

إن كنت ساقية المدانة أهلها فاسقي على كرمٍ بني همام
وأبا ربيعة كلها ومحلماً سبقاً بغاية أمجد الأيام
ضربوا بني الأحرار يوم لقومهم بالمشرفي على مقيل الهام
عرباً ثلاثة آلفٍ وكتيبةً ألفين أعجم من بني الفدام
شد ابن قيس شدةً ذهبت لها ذكرى له في معرقٍ وشآم
عمروٌ وما عمروٌ بقحمٍ دالهٍ فيها، ولا غمرٍ ولا بغلام

فلما مدح الأعشى والأصم بني شيبان خاصة غضبت اللهازم وهم

عنزة وتيم وقيس وعجل، فقال أبو كلبة، أحد بني قيس يؤنبها بذلك:

جدعتما شاعري قوم أولى حسبٍ   حزت أنوفهما حزاً بمنشار

أعني الأصم وأعشانا إذا اجتمعا   فلا استعانا على سمعٍ بإبصار

لو لا فوارس لا ميلٌ ولا عزلٌ   من اللهازم ما قاظوا بذي قار

نحن أتيناهم من عند أشملهم   كما تلبس ورادٌ بصدار؟

ملاحظات هامة على تاريخ ربيعة الجاهلي

لقد رأينا تسليط بعض الضوء على احوال ربيعة في الجاهلية وبشكل خاص الجذمين الكبار بكر وتغلب، ولو لاحظنا ان ربيعة كانت تلك الفترة تحتك وتصطدم بقبيلة بني تميم، وخاصة بكر وعنزة، ذلك ان تغلب كانوا تلك الفترة بعيدين عن ديار تميم ومناطق انتشارهم في نجد.

وقد صح معنا اننا تناولنا التاريخ الربعي على اساس ان بكر بن وائل هم الجذمين: اللهازم والذهلان، ومن اللهازم قبيلة عنزة التي التحقت في بكر في حين انفصلت حنيفة عنها وكونت كيانا قبليًّا مستقلًّا، وبالتالي يتضح الجذور التاريخية للعزوة الوائلية التي لا تزال معروفة بها قبيلة عنزة إلى يومنا هذا، رغم ان عنزة بن أسد هو عم وائل وليس ابنه بحسب ابن الكلبي النسابة، وسنرى ان هذا الوضع لجذمي ربيعة الكبار بكر وتغلب قد استمر حتى بعد ظهور الإسلام وتوافد القبائل العربية معلنة إسلامها.

ونحن في كتابنا هذا ليس هدفنا تكرار معلومات معروفة مدونة بالكتب القديمة والمعاصرة، بل هو الرؤية لحاجة المكتبة العربية لكتاب يتناول تاريخ ربيعة بن نزار كقبيلة موحدة، والربط بين بطونها المختلفة عبر مراحل تاريخها الطويل، وحاجة القاريء العربي لمعرفة مصير هذه القبيلة العربية وصولاً إلى وضعها الراهن المختزل في قبيلة عنزة الوائلية

الحالية اكبر قبائل العرب اليوم وورثة التاريخ الربعي، كذلك وضع الاسس الصحيحة التي سار عليها التاريخ الربعي، فدراسة تاريخ قبيلة مثل النمر بن قاسط يجب أن يكون على اساس انها من تغلب حتى لو كان النمر لا ينتسب إلى تغلب مباشرة عند ابن الكلبي ومن نقل منه، وليس على اساس انه بطن وقبيلة مستقلة، كذلك عنزة التي رأينا اشتراكها مع بكر في كل الايام في الجاهلية بما فيها ايام حرب البسوس.

فكثير من المؤلفين المعاصرين يعتقدون ان قبائل ربيعة متشتتة عن بعضها، وقد اعتقدوا ان ما حصل لمضر يجب أن يحصل لربيعة من باب التناظر، وهم بذلك قد اتخذوا حكماً منطقيًّا مسبقاً قائم على المناظرة الخاطئة بين جذمين، فمثلاً لو قارنا ذلك بالتناظر بين جذمي عدنان وقحطان سنجد ان عدنان لم يعد أحد ينتسب إليه، لم ينتسب إليه أحد قديماً، ولم يعد مذكوراً ومحفوظاً في عصرنا، واختفى اسمه لصالح من انتسب إلى فروعه، في حين نجد الجد (قحطان) لا زال محفوظاً ومتواتراً إلى يومنا هذا متمثلاً بتلك القبيلة المعروفة بنفس الاسم اليوم، فليس من الضروري اذن ان تنتهي العصبة القحطانية لصالح فروعها إن كان هذا قد حصل لبني عدنان.

إن المستقريء لتاريخ ربيعة ومن المصادر القديمة يرى أنه امام قبيلة محددة وواضحة ومتصلة، وقد رأينا كيف تداخلت البطون الربعية في مابينها وارتبطت ببعضها تاريخيًّا وجغرافيًّا، وفي الوقت الذي ماتت في العصبية لأسم مضر لصالح الفروع المضرية التي تحولت لقبائل لا صلة لها ببعض، بقيت عصبة ربيعة متماسكة، وبقي اسمها متداولاً، وعندما تفرق الربعيون لم تنشأ بينهم قبائل كثيرة متفرقة بل كان الانقسام الربعي على الجذمين بكر وتغلب ابني وائل ربيعة.

الفصل الثالث

ربيعة في صدر الإسلام

بدأ تاريخ الإسلام الحقيقي بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢م، ومعه مجموعة مسلمة عرفو تاريخيًّا بإسم (المهاجرين) بينما عرف الأوس والخزرج وهم مناصري الرسول من اهل المدينة وعرفو بإسم (الأنصار). وعرف الجميع بإسم صحابة الرسول ﷺ.

كانت هجرة الرسول إلى المدينة المنورة حدثاً غير عادي في تاريخ جزيرة العرب والعرب ككل، بل على مستوى العالم كله، ففيه تأكد أن دولة ما ستنشأ في جزيرة العرب، ولم تعد مجرد نبوة عابد، خاصة عندما بدأ الرسول بتكوين مجتمع متماسك من المسلمين داخل المدينة المنورة ومن ثم الانطلاق نحو القرشيين بمكة وتهديد تجارتهم وعلاقتهم مع القوى الأخرى في جزيرة العرب، ومنها علاقة مكة وقريش بقبائل ربيعة التي كانت تعتبر من اقوى قبائل العرب..

تأثيرات بني حنيفة على الدعوة المحمدية

كانت قبيلة بني حنيفة اول قبيلة ربعية تحتك بالمسلمين نظراً لقربها الجغرافي من الحجاز مقارنة بغيرهم من بطون ربيعة الآخرين، ومن ذلك تدخل زعيم بني حنيفة في وقته وهو ثمامة بن اثال الحنفي، وكان ذلك

أول تأثير لقبائل ربيعة على الأمور الجارية بين مكة والمدينة، اذ مالت القبائل العربية إلى جانب القرشيين - وهو امر طبيعي - وكان ثمامة يغير بقبائله على الرسول ﷺ، ووصل به الأمر إلى محاولة اغتيال الرسول الكريم بنحريض من قريش، فأهدر الرسول دمه لأصحابه تبعا لذلك..

إلّا أن سرايا لرسول الله ﷺ تمكنت من أسر ثمامة بن أثال وهم لايعرفونه، فلم يقتلوه وكانوا سيفعلون لو علموا به، بل أتو به إلى رسول الله وأمر بربطه إلى سارية المسجد وهو يعرف انه ثمامة الحنفي، وقد سأل الرسول ثم عن مايتوقع ان يفعله به فقال ثمامة[1]:

«إن تعاقب تعاقب ذا ذنب، وإن تعف تعف عن شاكر» فعفا عنه الرسول وأصبح ثمامة بذلك من خيرة ومشاهير الصحابة رضوان الله عليهم، وكان لإسلامه تأثير على الاحداث التي تلت وفاة الرسول وارتداد قبائل ربيعة كما سنرى..

عندما انتصر رسول الله في حروبه مع أهل مكة وانقادت قريش للرسول وصحبه اهل المدينة، بدأت قبائل العرب الأخرى تهاب اسم الرسول ﷺ، والمتتبع لتوافد القبائل على الرسول في المدينة كما وثقها المؤرخين للسيرة النبوية، يلحظ ان ان القبائل هابت اسم الرسول وصيته الذي ذاع في جزيرة العرب أكثر من رغبة تلك القبائل في دخول الإسلام والاقتناع فيه كدين سماوي، ويظهر ذلك بوضوح في القبائل التي كانت مواطنها بعيدة عن المدينة المنورة - مركز الرسالة - بعكس القبائل التي كانت قريبة من المدينة مثل بلي وجهينة وغفار ومزينة..

وقبائل ربيعة بن نزار كانت من القبائل البعيدة عن المدينة المنورة،

(١) ثمامة اسمه الكامل: ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة، والقصة والترجمة من كتاب الطبقات الكبرى لأبن سعد.

فهي كما قلنا أربع قبائل رئيسية وهي حنيفة وبكر وتغلب وعبد القيس، ولكل من هذه القبائل وفد وصل إلى الرسول وأعلن إسلامه بشكل مستقل، وسيتضح أن إسلام هذه القبائل غير عميق، باستثناء قبيلة عبد القيس بن افصى، وسيكون عدم العمق في الدين تأثيره الواضح على قبائل ربيعة بعد وفاة الرسول وقيام الخلافة الإسلامية على يد أبي بكر الصديق ﵁.

بدأت الوفود العربية إلى رسول الله معلنة إسلامها في تاسع سنة بعد هجرته ﵇ وهي السنة التي سميت بسنة الوفود، وذلك بعد غزوة تبوك في السنة الثامنة للهجرة، وبعد أن تأكد لقبائل العرب أن رسول الله ومن معه من المسلمين هم القوة السياسية الوحيدة في جزيرة العرب، ويهمنا هنا وفود قبائل ربيعة بن نزار والتي سنتناولها ببعض من التفصيل..

١- وفد عبد القيس بن أفصى

قلنا سابقاً أن عبد القيس ينزلون البحرين ويمتدون منها إلى اطراف العراق، وقد عرفوا بأمر الرسول ﷺ كغيرهم من القبائل، فقاموا ببعث وفد إليه على رأسهم الجارود بن بشر العبدي..

جاء في (تهذيب سيرة ابن هشام):

«قال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم عن الحسن قال: لما انتهى الجارود إلى رسول الله ﷺ كلمه فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ورغبه فيه فقال: يا محمد إني قد كنت على دين وإني تارك ديني لدينك أفتضمن لي ديني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه قال: فأسلم وأسلم أصحابه» أ.هـ[1]

والذي يظهر من سيرة الجارود وتعامله مع رسول الله ﷺ أنه كان

(١) تهذيب سيرة ابن هشام (عبد السلام هارون) الصفحة: ٤١١.

صادق النية في إسلامه، ويظهر ذلك بوضوح عندما اختار الجارود المكوث في المدينة المنورة لتلقي العلوم الشرعية والتفقه في مباديْ الإسلام، وهو الأمر الذي كان له تأثيره كم سنرى على قبيلة عبد القيس ككل عندما ارتدت قبائل ربيعة في عهد أبي بكر الصديق فبقيت عبد القيس على إسلامها في حين تورطت بكر وحنيفة في الردة..

كما أن بني عبد القيس كانوا على اتصال برسول الله والمسلمين قبل مرحلة توافد الوفود على المدينة، فقد سبق للرسول ﷺ أن بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي - زعيم عبد القيس في البحرين - الذي اسلم على يد العلاء، وحسن إسلامه، وكان العلاء الحضرمي سفيراً لرسول الله عند عبد القيس في بلاد البحرين..

٢ - وفد بني حنيفة

كانت بني حنيفة تشكل ثقلاً في اليمامة مستقلاً عن قبيلة بكر بن وائل وسائر ربيعة، ورغم أن بني حنيفة من اوائل القبائل الربعية التي احتكت بالإسلام عن طريق الصحابي ثمامة بن أثال الذي سبق واشرنا عنه، إلّا أن الوفد الذي مثل حنيفة إلى رسول الله ﷺ لم يكن بالمستوى الذي ظهر به وفد عبد القيس. اذ ظهرت بوادر العصيان الحنفي كما سجلها مؤرخو السيرة النبوية واضحة من خلال اشتمال الوفد الحنفي على اسم مسيلمة بن حبيب والذي عرف فيما بعد بمسيلمة الكذاب، وبعكس قبائل ربيعة الأخرى كانت بني حنيفة سباقة إلى اظهار الردة قبل وفاة الرسول ﷺ، ولم تنتظر وفاة الرسول كما فعلت القبائل التي كانت تضمر الكفر وتتحين الفرصة لأعلان ذلك.

جاء الوفد الحنفي إلى المدينة في السنة العاشرة للهجرة[(١)]، ونزلو

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير المؤرخ الصفحة: ٣٤٩.

على امرأة من الانصار وفيهم مسيلمة بن حبيب الذي واجه الرسول ﷺ.

يروي المؤرخ الطبري (ت ٣٥٦هـ) عن ابن اسحاق[١] روايتين عن مواجهة مسيلمة الكذاب لرسول الله.

الرواية الأولى.. تنص على ان بني حنيفة أتت بمسيلمة بن حبيب، ورسول الله جالس في أصحابه، ومعه عسيب من سعف النخل، في رأسه خوصات، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب، كلم رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله: لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك!

ويبدو من هذه الرواية أن الرسول الكريم كان على اطلاع بما سيقدم عليه مسيلمة فيما بعد من ادعاء النبوة والردة..

اما **الرواية الثانية**.... فيشكك الطبري بصحتها رغم نقلها، وهي مسندة إلى ابن اسحاق عن طريق شيخ من أهل اليمامة فيقول الطبري:

«كان حديث مسيلمة على غير هذا؛ زعم أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة في رحالهم؛ فلما أسلموا ذكروا له مكانه، فقالوا: يا رسول الله؛ إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظهما لنا. قال: فأمر له رسول الله بمثل ما أمر به للقوم؛ وقال: أما إنه ليس بشركم مكاناً، يحفظ ضيعة أصحابه؛ وذلك الذي يريد رسول الله. قال: ثم انصرفوا عن رسول الله » أ.هـ[٢]

قلت: الرواية الثانية تنص على أن مسيلمة لم يواجه الرسول ﷺ، بل بقي عند ركاب الوفد خارج المدينة، وأن الرسول امر له بمثل م أمر للوفد.. وان الرسول لم يرد مواجهة مسيلمة وجها لوجه..

وسواء واجه مسيلمة الرسول ام لم يواجه، فالمفهوم من الروايتين

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٥٨٧.

(٢) تاريخ الطبري ج١ ص ٥٨٨.

أن الرسول كان على علم بما سيقدم عليه مسيلمة مع قومه من بني حنيفة كما سنرى فيما بعد.

٣ - وفد بكر بن وائل

أو وفد (ربيعة) كما اطلق عليه بعض المؤرخين نظراً لشموله قبائل ربعية داخلة في بكر منذ زمن البسوس، وهم بنو عنزة بن أسد وضبيعة بن ربيعة، فكانت قبائل بكر بن وائل تنقسم على عهد الرسول إلى جذمين هم: اللهازم وتضم عنزة وقيس بن ثعلبة وتيم الله وعجل، والقسم الثاني من بكر يقال له الذهلان وهم: يشكر وشيبان وبنو ضبيعة بن ربيعة..

كانت قبائل بكر بن وائل بدوية تتنقل بين اليمامة والعراق والبحرين، وهم في صراع مع تميم على مناهل المياه في تلك النواحي، وقد جاء خبر انتصارهم على الفرس في موقعة ذي قار إلى الرسول وفرح به فرحاً شديداً كونه انتصار للعرب ككل وقد اشرنا إلى ذلك..

وبصرف النظر عن شهرة قبائل بكر ومدح الرسول لهم على ذي قار، إلّا أن إسلامهم جاء طاعة لحكم حاكم قائم فرضه الواقع، ولم يكن وفدهم إلى رسول الله وفد مصدق ومؤمن بدعوة إسلامية قوامها الايمان بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا، فقد جاء الوفد البكري بعد معركة الشيطين بين بكر وتميم، حيث قرر البكريون أن يحاربو تميم ويقتلوهم ثم يعتنقون الإسلام تهرباً من الديات والقصاص التي سيلزمهم بها الإسلام لو قاتلوا تميم وهم مسلمون، كما تمكنهم هذه الحيلة السياسية من اتقاء شر انتقام بني تميم باعتبار أن الإسلام يجب ماقبه.

قام البكريون بإرسال وفد اشتمل على عدد من شخصياتهم الهامة في تلك الحقبة..

ويشير ابن الاثير المؤرخ في مصنفه (اسد الغابة في معرفة الصحابة) إلى أن يزيد بن ظبيان البكري قد شهد مع الرسول غزوة حنين،

وقام الرسول بايفاد يزيد إلى قومه في اليمامة ليعلمهم القرآن ويقرأ لهم الكتاب، فلم يجد فيهم من يقرأ الا رجلاً من ضبيعة بن ربيعة وقيل لأعقاب هذا الرجل بنو القاريء[1]

خبر ألأعشى الشاعر البكري مع رسول الله

هناك العديد من الشعراء يلقبون بالاعشى، والمقصود هنا هو الشاعر ميمون بن قيس من قيس بن ثعلبة من اللهازم من بكر، وهو شاعر مخضرم مشهور، عاصر الرسول ﷺ.

ويبدو أن ميمون بن قيس قد اعجب برسول الله اعجاباً شخصيًّا، فقد سبق قومه ووفدهم الذي اوفدوه إلى السول واعلنوا بموجبه إسلامهم، فمدح الرسول بقصيدة طويلة نقلها ابن هشام صاحب السيرة النبوية ويظهر فيها ايمانه بنبوة الرسول مما يعني تصديقه بالدعوة فمما قاله:

أيهذا السائلي أين يممت   فإن لها في أهل يثرب موعدا

إلى أن قال:

أجدك لم تسمع وصاة محمد   نبى الإله حيث أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى   ولا قيت بعد الموت من قد تزودا

قال ابن هشام[2]:

«فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش، فسألوه عن أمره، فأخبرهم أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم، فقالوا له: يا أبا بصير إنه يحرم الزنا! فقال الأعشى: والله إن ذلك الأمر مالي فيه من

(١) أسد الغابة ابن الأثير المؤرخ الصفحة: ٣٣١، وهذا يؤكد ماسبق واشرنا إليه أن بني ضبيعة بن ربيعة كانوا بعداد بكر بن وائل.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون الصفحة: ١١٢.

أرب! فقالوا له: يا أبا بصير! فإنه يحرم الخمر! فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات! ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا ثم آتيه فأسلم، فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله ﷺ» أ.هـ

قلت: اذن يكون اعشى قيس مات على الكفر ولم يسلم، رغبة في الخمر التي فضل أن يستمر عليها عاماً آخر ثم يقلع ولكن الموت عاجله وسبحان مدبر الاقدار.

٤ - وفد تغلب بن وائل والنمر

كانت قبيلة تغلب تمثل خليطاً من قبائل ربيعة التي دخلت في تغلب منذ حرب البسوس، كشأن بكر تماماً، فقد كانت تغلب تضم بني تغلب وبني النمر بن قاسط (اخو وائل) وبنو أخيه غفيلة بن قاسط وبنو عميرة بن اسد أخو عنزة بن أسد. إلّا أن اشهر هذه القبائل كان بني النمر بن قاسط.. وتشير بعض ألمصادر أن منهم الصحابي صهيب بن سنان المعروف بـ (صهيب الرومي) وقد وافى الرسول في بداية دعوته وكان من المهاجرين الاوائل وهو من أهل الموصل.

وقد نزلت هذه القبائل الربعية الجزيرة الفراتية ووسط العراق، منذ انتهاء حرب البسوس، وانخرطوا في خدمة ملوك الفرس والروم واعتنقوا الدين النصراني.

والذي يظهر لي أن نصرانية تغلب قبل الإسلام كانت اسمية، أي بالاسم فقط، فلم يكن الدين النصراني ومصطلحاته ظاهرة في أشعار قدمائهم مثل عمرو بن الكلثوم والمهلهل بن ربيعة وأخوه وائل سيد ربيعة في زمنه، بيد أن نصرانية بني تغلب تظهر بوضوح عند وفودهم على الرسول، وفي مراحل تاريخهم اللاحقة في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الاموي.

ونتيجة لبعد قبائل تغلب عن المدينة المنورة، وكون ديارهم خارجة عن ديار بقية العرب فقد قبل الرسول ﷺ نصرانية تغلب، فلم يقاتلهم عليها، بل اشترط عليهم أن لا ينصروا أولادهم إن هم أرادوا الإسلام..

قال ابن سعد في (الطبقات الكبرى):

«جاء بني تغلب ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى عليهم صلب الذهب فنزلوا دار رملة بنت الحارث فصالح رسول الله ﷺ النصارى على أن يقرهم على دينهم على أن لا يصبغوا أولادهم في النصرانية وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم» أ.هـ[1]

كما ترتب على بقاء تغلب على النصرانية، أن ابتعدوا عن مواطن الصراع الذي دار بين قبائل العرب والمسلمين من قريش عندما ارتدت هذه القبائل عن الإسلام، وخاصة انهم بعيدين كما ذكرنا عن مواطن العرب في نجد والحجاز، إلّا أنهم اصطدموا بالمسلمين ايام أبي بكر بعد أن بدأت الفتوحات الإسلامية في عهده وحين فكر المسلمين في ضم العراق إليهم..

عهد أبي بكرٍ الصديق وردة قبائل ربيعة (١١هـ - ١٣هـ)

ذكرنا سابقاً توزيع قبائل ربيعة الاربعة بحسب وفودهم إلى الرسول ﷺ، وكيف ان وفودهم هي وفود المذعنين لحاكم تربصوا منه القوة فأرادوا أن يتقوه بإعلان إسلامهم، واظهار كل ما يترتب عليه دخول الإسلام من أمور الدين الإسلامي وخاصة تلك الأمور التي تظهر من خلالها سلطة المسلمين مثل دفع الزكاة لبيت المال. ومن الملاحظ أن المحظوظين من هذه القبائل هم فقط الذين تشرفوا وواجهوا الرسول نيابة عن قبائلهم، اما عامة ابناء قبائل ربيعة البعيدين عن مواطن المدينة

---

(١) الطبقات الكبرى ابن سعد ج١ الصفحة: ١٤٣.

المنورة فلم يجاوز ايمانهم السنتهم ومن الواضح انتظارهم الفرصة لاعلان الردة باستثناء قبيلة عبد القيس، وسنناقش اخبار ردة ربيعة مبتدئين ببني حنيفة.

ردة بني حنيفة وما حدث فيها

واول القبائل الربعية التي اظهرت ردتها هي قبيلة بني حنيفة بقيادة مسيلمة الكذاب، فالحنفيين لم ينتظروا اعلان وفاة الرسول بل اعلنوا ردتهم بمجرد تنامي الاخبار إليهم بمرض الرسول ﷺ. .

وقد عبر مسيلمة الكذاب الذي لم يكتفي بالكفر بل أعلن نبوته برسالة بعث بها إلى المدينة مع أثنين من اتباعه لتسليمها للرسول ﷺ وذلك في سنة عشر للهجرة.

وجاء في رسالة مسيلمة الكذاب إلى رسول الله:

«من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك؛ فإني قد أشركت في الأمر معك؛ وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون» أ.هـ[(١)]

وقد وجه الرسول إلى الرسولين الذين كلفهما مسيلمة بتسليم هذا الخطاب إلى الرسول، وقد اجاب الرسولان انهما يقولان ماقال مسيلمة ولا يخالفانه[(٢)].

وواضح ان مسيلمة الكذاب يرى نبوة الرسول ما هي إلّا دعوى تفوق لقريش على قبائل العرب، وليست بني حنيفة - في نظر مسيلمة طبعاً - بأقل من قريش التي انجبت نبيًّا فليكن اذن نبي في حنيفة!!

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٥٩١.

(٢) نفس المصدر.

موقف الرسول ﷺ من مسيلمة

لم تكن بني حنيفة بالقبيلة الهينة عندما اعلنت عصيانها، فقد مر معنا ان الرسول كان يأمل في إسلام ثمامة بن أثال على الاقل ليكسب صوتاً من هذه القبيلة القوية، فمابالنا نراها الآن قد اعلنت ردتها وتبعت زعيمها مسيلمة بن حبيب ودعواه بالنبوة، وبالطبع كان موقف الصحابي ثمامة بن اثال ايجابيًّا مع الرسول، فقد بقي لوحده ومع مجموعة بسيطة من مسلمي بني حنيفة، اما الاغلبية فقد فضلوا اتباع مسيلمة فيما ذهب فيه.

نعود إلى موضوع رسالة مسيلمه ورسله إلى رسول الله.. فبعد أن قرأ الرسولين الخطاب على مسامع الرسول، وأعلنوا أن موقفهم مع زعيمهم، قال لهما عليه السلام:

أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما!

ثم وجه عليه السلام رسالة إلى مسيلمة بن حبيب واتباعه جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وقد مات رسول الله ومسيلمة الكذاب لا زال مستقلا بقومه في اليمامة وقد انضمت إليه سجاح التميمية وهي مدعية للنبوة مثل مسيلمة.

وقد اورد المؤرخ الطبري خبراً يفيد بأن ردة بني حنيفة لها ارهاصات سابقة لأعلان مسيلمة، فقد نقل عن عدد من رواة التاريخ الاوائل أن أثال الحنفي - وكان مع ثمامة بن أثال - قد روى له بأن شخصاً اسمه نهار بن عنفوة الحنفي وهو من المهاجرين إلى الرسول وقد ارسله الرسول إلى حنيفة لحث الحنفيين على الإسلام وتكذيب مسيلمة، إلّا أن نهاراً هذا خالف ما ارسل من اجله واخذ يكذب على الناس ويقول انه سمع رسول الله يقر بشراكة مسيلمة الكذاب مع النبي في الرسالة..

حروب بني حنيفة مع المسلمين

اعلن مسيلمة الكذاب نبوته وعرض على رسول الله ﷺ اقتسام النبوة، وقد مات الرسول وفتنة مسيلمة لا زالت قائمة حتى تولى المسلمين أبي بكر الصديق ألذي تولى محاربة المرتدين وعلى راسهم بني حنيفة أشد المرتدين قوة.

وكانت سجاح التميمية قد اقبلت من الجزيرة الفراتية ومعها ناس من تغلب وبني النمر - وهم اخوالها وقيل أنها من تغلب -، ووافقت مسيلمة الكذاب في ماذهب إليه وتحالفت معه بل وتزوجته.

أرسل الخليفة أبي بكر رضي الله عنه عدة سرايا إلى مسيلمة كان اولها بقيادة عكرمة بن أبي جهل إلّا أنه هزم امام بني حنيفة، ثم تدخل القائد العظيم خالد بن الوليد وقاد بنفسه جيشاً لقتال بني حنيفة الذين بلغ عدد مقاتليهم حينئذ أربعين الف مقاتل.

يوم عقرباء

وعقرباء بقرب الرياض اليوم، وفيها التقى جيش المسلمين مع مرتدي حنيفة بقيادة مسيلمة، وجزء من تغلب والنمر بقيادة سجاح، حيث اشتهر قول طلحة النمري الذي سأل مسيلمة عن حقيقة نبوته، ثم قال له: أشهد انك كاذب وان محمد لصادق! ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!

وقد قتل طلحة النمري هذا كافراً مع مسيلمة..

وقد واجه خالد بن الوليد صعوبة شديدة في هزيمة بني حنيفة ومن معهم، خاصة وان المناخ في اوله كان سجالاً عنيفاً لم ينتهي الا بقتل مسيلمة الكذاب، وخاصة بعد أن تمكن المسلمون من فتح الحصن المعروف بالحديقة التي تحصن فيها مسيلمة مع اتباعه والتي تولى فتحها الصحابي البطل البراء بن عازب، فما ان فتحت هذه الحديقة حتى انهزم

الحنفيون وقتل مسيلمة، وكان الذي دل المسلمين على مسيلمة هو مجاعة الحنفي ولم يكن مسلماً، بل أراد ان يحمي قومه من القتل ونساء قبيلته من السبي، وقد وقع خالد بن الوليد مع مجاعة هذا الصلح الذي بموجبه انتهت الحرب بين الطرفين.

الصلح

كان مجاعة الحنفي قد لعب لعبة عسكرية على خالد بن الوليد، فبعد انتهاء يوم عقرباء وقتل مسيلمة قتل معه من بني حنيفة أكثر من سبعة آلاف، وكان لدى بني حنيفة عدد من الحصون توهم المسلمين انها مليئة بالمقاتلين، فاراد مجاعة اقناع خالد بن الوليد في هذا الوهم حتى يحمله على ان يكف القتال عن قومه وبالفعل انطلت الحيلة على خالد بن الوليد ووقع الصلح على الكف عن القتل، ولكن الحصون عندما فتحت لم يجد فيها المسلمين الا النساء والصبيان! ثم قام خالد بن الوليد بصادرة املاكهم ونخيلهم..

بني حنيفة يدخلون اللهازم من بكر

اللهازم هم قبيلة من بكر ربعية كانت تؤلف نصف قبيلة بكر بن وائل، وقبائل اللهازم هي: عجل، وعنزة، وقيس بن ثعلبة، وتيم اللات وهم الاساس في قبيلة اللهازم، وقد انضم الحنفيون إلى بني عجل بن لجيم، لأن عجل هو أخو حنيفة بن لجيم.

وقد تحدث الاصفهاني في كتابه المعروف الاغاني عن قبيلة اللهازم وعلاقة بني حنيفة بها:

«وقد دخل بنو قيس بن عكابة مع إخوتهم بني قيس بن ثعلبة بن عكابة. وأما حنيفة فلم تدخل في شيء من هذا لانقطاعهم عن قومهم باليمامة في وسط دار مضر، وكانوا لا ينصرون بكراً ولا يستنصرونهم.

فلما جاء الإسلام ونزل الناس مع بني حنيفة ومع بني عجل بن لجيم فتلهزموا ودخل معهم حلفاؤهم بنو مازن بن جدي بن مالك بن صعب بن عليٍ، فصاروا جميعاً في اللهازم» أ.هـ

وقد أكد أيضاً المؤرخ الطبري الذي اعتمدت عليه في هذه النبذة، اكد أيضاً ان بني حنيفة دخلوا في بني عجل بن لجيم وأصبحوا من اللهازم داخلين في عجل تحديداً وليسوا بطناً مستقلاً، وهذا يخالف ما يذهب إليه الكثيرين من المعاصرين في بقاء ملك بني حنيفة في اليمامة حتى انتهى على شكل بضعة اسر صغيرة اليوم..

وقد ذكر الشاعر موسى بن جابر الحنفي عوامل رجوع قومه إلى عشيرتهم بكر حين قال:

وجدنا أبانا كان حل ببلدةٍ سوًى بين قيسٍ قيس عيلان والفزر
فلما نأت عنا العشيرة كلها أقمنا وحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا بعد في يوم وقعةٍ ولا نحن أغمدنا السيوف على وتر

فالسبب واضح، فبني حنيفة بعد هزيمتهم امام المسلمين، اصبح موقفهم ضعيفاً امام قبائل قيس عيلان، فارادوا اللحاق بقبيلتهم الام ومن ذلك الوقت بدأ العد التنازلي لذوبان اسم بني حنيفة، وقد هجاهم الشاعر المعروف الفرزدق - اعني هجى حنيفة - بتبعيتهم لبني عجل فكان مما قال:

عجبت لعجل إذ تهاجي عبيدها كما آل يربوع هجوا آل دارم

قال صاحب الاغاني: يعني بعبيد بني عجل قبيلة بني حنيفة...

ويعطينا هذا مبرراً ليس فقط لاختفاء مسمى بني حنيفة وذوبانه في حلف اللهازم، بل حتى مسميات ربيعة الأخرى مثل اللهازم ذاته، وضبيعة وتيم اللات وعجل، لأن البطون تتداخل في مابينها ويبقى اسم القبيلة التي يعم اسمها على الجميع، ومن الطبيعي حدوث ذلك عبر ١٥٠٠ سنة من التاريخ، ومن الواضح عموم اسم عنزة ووائل عل بطني بكر الكبار

(الذهلان واللهازم) مع مرور الزمن حتى انتهى إلى عنزة الوائلية التي كانت مجرد بطن صغير في هذا البطن الوائلي.

بني حنيفة في بكر

بما أن بني حنيفة اصبحت في عجل من اللهازم، فقد اصبحت قبائل ربيعة ثلاث اجذام بدلاً من اربع، وهم: تغلب ومن فيهم، وبكر ومن فيهم، وعبد القيس ومن فيهم. غير بني عنز في اليمن، ومن هنا يتغير مسار التاريخ الربعي على هذه البطون الثلاث الكبرى.

ردة قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن افصى

مر معنا الوفود التي ارسلها هذين البطنين من ربيعة إلى الرسول ﷺ، ومر معنا ان قبائل بكر لم يسلموا إلّا بعد معركة الشيطين مع تميم والتي هي محسوبة على الفترة الجاهلية.

في تلك الفترة وصل إلى سدة الزعامة في بكر أحد فرسانها واسمه شريح بن ضبيعة، وقد استطاع ان يصل بغزواته إلى قبائل اليمن، وكان شاعر بكر في تلك الفترة هو رشيد بن رميض العنزي وقد مدح شريح بن ضبيعة فكان مما قاله:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم   قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعي إبل ولا غنم   ولا بجزار على ظهر وضم

وقد لقب شريح هذا بلقب (الحطم) بعد قول رشيد العنزي واشتهر امره في جزيرة العرب، وهو قائد قبائل بكر بن وائل في ردتهم عن الإسلام التي هي موضوعنا.

ولما مات الرسول ﷺ خرج الحطم يقود قبائل بكر بن وائل، واظهر الردة والكفر.

ويظهر من خلا الاستقراء التاريخي لردة قبائل بكر انهم قد عولوا على قوتهم، وتأييد قبائل ربيعة الأخرى لهم، فعبد القيس بن افصى كانت جماهيرها قد اظهرت الردة وهم ببلاد البحرين.

اختار الحطم أن لا يصطدم بالمسلمين، فجمع قبائله واتجه بهم إلى البحرين لينضم لمرتدي ابناء عمهم بني عبد القيس هناك.

والذي يبدو أن الحطم لم يكن ينوي قتال المسلمين أبداً، وفي نفس الوقت هو يجب أن يكون حذراً لأن الأخبار تواترت على نية أبي بكر جمع الناس على الإسلام كما كان الأمر أيام الرسول.

غير أن امراً حدث لم يكن بحسبان الحطم وقبائله، وهي ان بني عبد القيس أقنعهم زعيمهم بالعودة للإسلام، فطاوعوه على ذلك وخالفوا الحطم وقبائله، فاضطر الحطم أن يواجههم ويحاصرهم في بلدة جواثا قرب القطيف.

ولم يكن بنية أبي بكر الصديق على ما يبدو إرسال أية حملة إلى قبائل بكر لحملها على الإسلام، غير أن الحصار الذي ضربه الحطم على عبد القيس كان شديدا فجعل أحد شعرائهم يوفد إلى أبي بكر قصيدة يطلبه النصرة:

ألا أبلغ أبا بكر رسولاً وفتيان المدينة أجمعينا

فهل لكم إلى قوم كرام قعود في جؤاثى محصرينا!

فأرسل أبو بكر حملة عسكرية بقيادة أبو بكر العلاء بن الحضرمي، ومعه من المسلمين ثمامة بن أثال ومسلمة بني حنيفة الذي لم يرتدوا.

وكانت الحملة التي قادها العلاء الحضرمي تواجه صعوبة شديدة، ولعلها اكبر حملة عسكرية في عهد أبي بكر الصديق، وزاد من صعوبتها أن المسلمين لما قطعوا صحراء الدهناء في طريقهم إلى البحرين نفرت رواحلهم ليلاً بما عليها من ماء وطعام وانعكس هذا على معنويات الجنود المسلمين مما جعل العلاء الحضرمي يجمعهم ويخطب فيهم قائلاً:

ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم؟ فقال الناس: وكيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحم شمسه حتى نصير حديثاً! فقال: أيها الناس؛ لا تراعوا، ألستم مسلمين! ألستم في سبيل الله! ألستم أنصار الله! قالوا: بلى، قال: فأبشروا؛ فواله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم[(١)].

ثم جمع العلاء الفرسان وصلوا ودعو الله في تلك الليلة العصيبة، فمن الله عليهم بعد أن رأو سرابا واتجهوا إليه فإذا ابلهم ورواحلهم هاهي بما عليها من ماء وطعام.

بعد هذه المعجزة التي ظهرت للمسلمين في صحراء الدهناء، اكملوا مسيرتهم نحو مرتدي بكر بن وائل في جواثا.

فلما وصلوا إلى هناك وجدوا قبائل بكر وقد حفروا خندقاً، وعسكر العلاء بجنوده في الجهة المقابلة، واخذا الطرفان يتناوخان شهرا كاملاً دون نتيجة تذكر أو تسجل لأي من الطرفين.

وفي إحدى ليلي الحصار سمع المسلمون أصواتاً عالية من جهة العدو، فقرر العلاء أن يرسل مخبراً سريًّا إليهم ويستطلع احوالهم وياتي بخبرهم وسر الضوضاء الآتية من معسكرهم.

ووقع اختيار العلاء الحضرمي على عبدالله بن حذف ليقوم بدور الجاسوس على قبائل بكر، وخاصة أن البكريين يعرفونه لأن امه من بني عجل من اللهازم.

اتجه عبدالله بن حذف إلى المعسكر البكري لينفذ مهمته التجسسية، فلما وصل إلى المعسكر البكري استقبله الحطم زعيم بكر وسأله: من أنت؟

فقال الحطم وقد تظاهر انه ينتخي بهم ضد الحطم:

---

(١) تاريخ الطبري.

لا أضيعن الليلة بين اللهازم! علام أقتل وحولي عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة! أيتلاعب بي الحطم ونزاع القبائل وأنتم شهود!؟

فقال له الحطم:

والله إني لأظنك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة! فقال عبدالله بن الحذف: دعني من هذا وأطعمني؛ فإني قد مت جوعاً.

فقرب له طعاماً؛ فأكل ثم قال: زودني واحملني وجوزني، ففعل وحمله على بعير، وزوده وجوزه؛ وخرج عبدالله بن حذف حتى دخل عسكر المسلمينمرة اخرى، فأخبرهم أن القوم سكارى، وليست الحرب والمناوخة في رؤوسهم.

ولم علم الحطم بذلك قرر اقتحام معسكرهم وهم في حالتهم هذه، وكان ذلك الأمر ووقع فرسان بكر بين قتيل وجريح بما فيهم الحطم الذي قتل.

وكان مع المسلمين في ذلك اليوم قيس بن عاصم التميمي عدو بكر منذ الجاهلية، ومعهم أيضاً ثمامة بن أثال الحنفي، وقد تقاسم هؤلاء الغنائم التي اخذها المسلمون من قبائل بكر.

نتج عن هذه الهزيمة الشنيعة لقبيلة بكر ان استسلم اللهازم (عنزة وتيم) للمسلمين، بينما استمر بنو الذهلان (شيبان وضبيعة) في امر الردة وهربوا إلى البحر وركبوا سفنا اقلتهم إلى احدى الجزر في الخليج العربي، وكان هناك من اللهازم من لا زالوا يبطنون الكفر ويتمردون أو يهربون من الاسر، ومنهم أعداد بسيطة تمكنت من الهرب وبدأت بحرب عصابات ضد المسلمين، ومنها ان قام افراد من اللهازم بقتل الصحابي الجليل ثمامة بن أثال انتقاما منه لمشاركته الغزو ضدهم.

ونتيجة لهذا الموقف امر العلاء الحضرمي كل من مسمع

الجحدري والمثنى بن حارثة (وكانوا من القلائل الصادقين على إسلامهم) امرهم بلزوم اللهازم وان يضمنوا عدم تسرب أي منهم في الطرقات، ونجح مسمع والمثنى بن الحارثة على إعادة تنظيم اللهازم تنظيماً رائعاً وجعلوهم ورقة رابحة في يد العلاء الحضرمي.

اما بقية بكر وهم الذهلان ركب إليهم العلاء الحضرمي، وعبر الماء إلى الجزيرة التي نزل فيها المرتدين، وصاولهم وقاتهلم حتى انتهى الأمر إلى هزيمتهم وعاد العلاء ظافراً وقد انهى شوكة قبائل بكر المرتدة واعادها إلى حظيرة الإسلام.

ولما عاد العلاء من حملته في البحر وجد ان اللهازم قد اجمعوا على نصره ونصر الإسلام بتأثير من الزعيمين الكبار المثنى بن حارثة ومسمع الجحدري.

وقد حاول مفروق الشيباني أن يعيد الكرة على العلاء الحضرمي والمسلمين، فكان أن جمع جموعا من بكر قليلة العدد، ولكن بني تغلب والنمر قد ارسلو لهم مدداً من الجزيرة الفراتية، وبدلاً من مواجهتهم اختار العلاء ان يقوم اللهازم البكريون بمواجة مفروق هذا بمن معه من ربيعة، لتصبح المواجهة ربعية ربعية، ويبدو أن هذا كان اختباراً من العلاء لصدق ولاء اللهازم للمسلمين وللإسلام، وعندما وجد مفروق انه سيواجه ابناء عمه رأى السلم افضل، فتفرق جمعه وانتهت بذلك قصة الردة لقبيلة بكر بن وائل الذي اختاروا الإسلام بصدق هذه المرة.

وقد أصبح مسمع الجحدري زعيماً لبكر بعد أن عادت لحظيرة الإسلام، وتوارثت ذريته الزعامة من بعده وعرفوا بالمسامعة وأصبح لهم شأن في مراحل تاريخ بكر اللاحقة، بينما اصبح المثنى بن حارثة أحد ابرز فرسان بكر المسلمين، اذا اصبحت قبيلة بكر عوناً للمسلمين في فتوحاتهم التي سنلقي الضوء عليها لاحقاً.

عوامل ردة قبائل ربيعة:

كانت قبائل ربيعة تنظر إلى قبيلة قريش نظرة احترام وتقدير وذلك قبل ظهور الإسلام، وخاصة ان قريش كانوا سدنة بيت الله العتيق والذي يقدسه كل العرب، إلّا أن لكل قبيلة عربية سيادتها على نفسها وعلى ارضها، وقد مر معنا في تاريخ ربيعة الجاهلي ما يؤكد مدى الاستقلالية التامة لهذه القبائل.

فلما جاء الإسلام وظهر النبي وتوافدت القبائل عليه، كان الربعيون يؤمنون به كنبي وليس كحاكم سياسي، وبوفاته اعتبروا أن الأمور يجب أن تعود إلى اصولها وان لكل قبيلة استقلالها السياسي كما كان في الجاهلية.

ولم يكن هذا الاعتقاد عند قبائل ربيعة أو تلك القبائل البعيدة عن مواطن الرسالة فحسب، بل حتى المدينة المنورة ذاتها بما فيها من الانصار والمهاجرين لم تكن لديهم اية فكرة عن عن ما يجب فعله بعد وفاة الرسول، وهل يعين أحداً بدلاً منه؟!

بالنسبة للأنصار وهم قبيلتي الاوس والخزرج فقد حسموا وضعهم بأن يعود اهل مكة القرشيين إلى ديارهم، بينما يبقى الانصار ملازمين لمدينتهم وينتخبون رئيسا لهم كما كان قد قرروا قبل مدة يسيرة من هجرة الرسول إليهم. أي ان الانصار وكافة العرب كانوا مجمعين انه بوفاة الرسول انتهى كل شي وليعود جميع العرب كما كانوا باستثناء التغيير الديني الذي احدثه النبي كرسول رباني وليس كحاكم سياسي، فنستطيع ان نقول أن العرب قبلوا مفاهيم محمد الدينية وليست السياسية.

إلّا أن اجتماع السقيفة في المدينة المنورة ورفض أبي بكر وجمع المهاجرين لما قرره الانصار قد غير الأمور تماما، ولعل ابرز النتائج التي خلص إليها مؤتمر السقيفة وتسببت في حروب الردة هي:

١- إن محمد بجانب كونه نبي وداعية إلى الله هو حاكم، ومع القول انه لا نبي بعد محمد إلّا أن ذلك لا يعني أنه لا خليفة له ويمارس نفس سلطاته ما عدا النبوة، من جمع للزكاة ودفع الناس عن بعضها وسياستهم.

٢- إن خلافة الرسول ﷺ حصرية على قومه وهم قبيلة قريش..

ورغم ما تسببت فيه هذه الافرازات لمؤتمر السقيفة من مشاكل بين المهاجرين والانصار إلّا أنها انتهت - ولو بصعوبة بالغة - على الصعيدين القرشي والانصاري، ولكن كان من الطبيعي ان لا تنتهي هذه الإشكالات على الصعيد القرشي مع قبائل العرب الأخرى البعيدة عن مواطن الرسالة، وهي التي ترى نفسها ككيانات مستقلة في شؤونها، وترى في ما حصل في السقيفة تكريسا لحكم قبيلة قريش المباشر على سائر قبائل العرب.

ورغم ان عمر بن الخطاب كان من انصار ما حصل في السقيفة إلّا أنه رأى ضرورة امتصاص الغضب الشعبي عند القبائل العربية، فنجده يقترح على أبي بكر ان يقاتل على الدين فقط لا على الزكاة، لعلمه ان القتال في سبيل الدين أكثر مشروعية من القتال على الزكاة التي كانت ينظر لها انها اتاوة يؤديها الضعيف للقوي، وليست القبائل العربية مثل ربيعة وتميم بضعيفة امام قريش لتؤدي لهم الاتاوة، ولقد كان القرشيين يبروون حصر الامارة فيهم بسبب أن الله اختار النبي قرشيًّا فيكون الخليفة منهم، فنجد بالمقابل ان عدداً من القبائل العربية حاولت ان تبز القرشيين بهذه الخاصية لنجد أكثر من ادعاء للنبوة في عدد من القبائل، ففي ربيعة ظهر مسيلمة وظهرت سجاح في بني تميم، وفي قبائل أخرى ظهر أيضاً من ادعى النبوة في محاولة للقطع على قريش وتخريب فرصتهم التاريخية في استثمار النبوة لاقامة اول دولة عربية تحت حكمهم.

ورغم انتهاء حروب الردة وانتصار الموقف القرشي وخضوع الناس

للخلافة بمفاهيمها التي حددها مؤتمر السقيفة، إلّا أن جذوة الامتعاض من قريش لدى القبائل الأخرى وخاصة (ربيعة وتميم) لم تنطفيء، وسنجد انها ظهرت في عصور لاحقة وادت إلى افراز حركات سياسية مثل الخوارج والشيعة وكان لقبائل ربيعة وتميم دور كبير في تغذية هذه الفرق.

ونستطيع ان نقول أن من العوامل التي انجحت الموقف القرشي وفشل العرب في ردتهم، هو ان كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب قد اعتمدوا على شرعيتهم كأصحاب ووزراء للرسول ﷺ وليس لمجرد انهم من قريش، كذلك فأن كل من أبي بكر وعمر قد اعتمدوا عتماداً كليًّا في الفتوحات على القبائل المواجهة وخاصة قبائل ربيعة وتميم، ولم يسمحوا لقريش أن يشاركوا ابناء هذه القبائل في غنائم الفتح، بل اقتصر التواجد القرشي في الفتوحات على بضعة قواد ورؤساء من ابرزهم خالد بن الوليد، اما عامة القرشيين فسوادهم الاعظم بقي في مكة والمدينة ولم يكن لهم أي حضور خارج مواطنهم التقليدية في شبه جزيرة العرب، رغم ذلك كان لدى عامة ابناء قبيلة قريش رغبة عارمة في المشاركة في الجهاد والفتوحات والغنائم، وكان عامتهم تواقين إلى أن يكون لهم نصيب في الاملاك التي وزعت على قبائل العرب في العراق أو الشام أو مصر، غير أن سياسة عمر وابي بكر الصديق كانت صارمة في هذا الأمر حتى جاء عهد عثمان الذي خرجت فيه قريش لتعود العصبية القبلية ضد قريش مرة أخرى على هيئة الخوارج والشيعة.

ولا ننسى أن نضيف عاملاً مهما ادى إلى نجاح مؤتمر السقيفة وتحقق اهدافه في تكريس ما عرف تاريخيًّا بدولة الخلافة، وهو تفرق قبائل العرب وعدم توحدها ضد القوى السياسية في المدينة المنورة، فقبيلة بكر بن وائل كانت على الجذمين: اللهازم والذهلين، وفي الوقت الذي وجدنا اللهازم انضموا إلى المسلمين نجد الذهلين اختاروا العصيان

وركبوا البحر، ولما عاد الذهلان تحت قيادة مفروق الشيباني امر أبو بكر ان يكون في مواجهتهم اللهازم، فهذا يعني ان اللهازم اختاروا الموقف المخالف لابناء عمومتهم، وخاصة ان علمنا ان القبائل دائماً ماتنشأ بين كبارها الصراعات على زعامة القبيلة، فيدعم خالد بن الوليد مثلاً رجلاً مغموراً مثل عتيبة العجلي ويعينه اميراً على اللهازم بدلاً من مفروق الشيباني أو الحطم القيسي الزعماء البارزين في ربيعة، كذلك اصرار خالد بن الوليد على اصطحاب ثمامة بن اثال الحنفي ليشاركه في قتال المرتدين من بكر، ومثلاً هذا يضعف موقف القبيلة ويشتتها عن هدفها الرئيسي وتفشل كل خططها في الاستقلال الذي تنشده.

قبائل ربيعة والفتوحات في عهد أبي بكر الصديق

كل الأحداث السابقة عن الردة وقعت في سنة ١١ للهجرة، فلما انتهت الردة واخضعت القبائل للإسلام بدا عهد الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق في مطلع عام ١٢هـ، وكان ابرز القواد العسكريين هو خالد بن الوليد الذي لا زال معسكراً في اليمامة بعد أن هزم بني حنيفة في الردة.

ثم صدرت الأوامر لخالد بن الوليد من المدينة بضرورة التحرك من اليمامة وغزو العراق والحاقه بالدولة الإسلامية الناشئة، والعراق آنذاك يخضع لدولة الفرس، وخرجت قبائل اللهازم من بني حنيفة مع خالد بن الوليد بقيادة عتيبة بن النهاس العجلي[١].

كانت قبائل بكر التي اصبحت الآن مسلمة قريبة من ارض العراق، وكان فرسان بكر اعلم القبائل بأحوال الفرس واكثر تمرساً في قتالهم، وقبل بدء الصراع العربي الفارسي رسميًّا كان المثنى بن حارثة الشيباني

---

(١) الإكمال لابن ماكولا الصفحة: ٤٤٤.

ومعه فارس من اللهازم هو سويد بن قطبة العجلي يكثران الاغارة على الفرس في العراق باسم الإسلام ولكن بشكل غير رسمي، قبل ان يتولى خالد بن الوليد رسميًّا وبتكليف من أبي بكر زمام الحملات العسكرية الموجهة والمنظمة.

وكان المثنى قد ارسل رسالة إلى المدينة افاد فيها انه الاقدر على قيادة قبيلته نيابة عن المسلمين لفتوحات العراق، إلّا أن أبا بكر قد عين خالد بن الوليد رسميًّا قائداً للجبهة العراقية وامر المثنى ان يكون تحت رئاسته.

وعلى هذا سارت قبائل بكر بن وائل خلف خالد بن الوليد إلى العراق، وكان اول بلد طردوا النفوذ الفارسي عنه هو الحيرة ثم السيطرة الكاملة على الانبار التي كانت بادية لربيعة، ثم توجه خالد ومعه المثنى إلى عين التمر أهم مدن الانبار.

يوم عين التمر

كانت عين التمر هي ديار لتغلب وبكر بن وائل منذ الجاهلية، وفي تلك الاثناء كان بها عدد كبير من قبائل تغلب والنمر بن قاسط ومعهم لفيف من قبائل البكر التي كانت لا تزال متنصرة، وقد مر معنا ان الفرس بالجاهلية قد خصصوا عين التمر لتغلب وبكر ومن معهم من قبائل ربيعة ليمتاروا منها.

وإلى جانب قبيلة تغلب في عين التمر كان يوجد عدد من الفرس، وكان بني تغلب والنمر بقيادة عقة بن أبي العقة والهذيل بن عمران التغلبي، بينما الفرس بقيادة مهران بن بهرام.

واتفق الفرس وبني تغلب ان يخرج بني تغلب من عين التمر لمواجهة خالد بن الوليد ومن معه من قبائل بكر بقيادة المثنى بن حارثة.

والتحم جيش تغلب بجيش خالد بن الوليد فانهزم بنو تغلب واسر

زعيمهم عقة، في حين هرب الفرس الذين كانوا بعين التمر ففتحها خالد بن الوليد، ثم غادر خالد بن الوليد العراق إلى الشام لمساعدة حملة أبي عبيدة هناك، فتزعم المثنى بن حارثة جبهة العراق كاملة بدلاً منه.

وأصبحت عين التمر بعد ذلك حاضرة لبكر وتغلب في المراحل اللاحقة من تاريخ ربيعة، والنصيب فيها لبكر بعد الإسلام كان أكثر نظرا لأنهم مسلمون، اما تغلب فقد ظلوا نصارى فقل حظهم حتى اسلم معظمهم في العهد العباسي.

والملاحظ ان الفتوحات في العراق كانت على يد قبائل بكر بن وائل وقائدهم المثنى، لانها كان اعرف القبائل بمسالك العراق، إضافة إلى عدو المسلمين من العرب العراقيين كان بنو تغلب، وهم ابناء عم بكر بن وائل، ولذلك كان المسلمون يريدون ان تكون مواجهة تغلب بمن يعرف حربهم جيداً، وخاصة ان تغلب كانت من اقوى قبائل العرب تلك الفترة حتى ان قيل انه لولا ظهور الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس.

قبائل ربيعة في عهد عمر بن الخطاب (١٣هـ - ٢٣هـ)

لا زلنا في مسار التاريخ الربعي حتى عهد عمر بن الخطاب، ويجب أن نضع في اعتبارنا ان قبائل ربيعة تلك الفترة لا تتجاوز ثلاثة بطون رئيسية وهي:

١- عبد القيس الذين كانوا في البحرين أو منطقة الاحساء حاليًّا، وكانوا في قلة عدد رغم دخول بعض من بطون ربيعة معهم.

٢- قبائل بكر والتي كانت بقيادة مسمع الجحدري كشيخ قبيلة والذي تولى الزعامة بعد الحطم المقتول في الردة، اما مقاتلي بكر مع المسلمين فكانوا بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني، ومع بكر طبعاً عنزة بن اسد وضبيعة بن ربيعة وبني حنيفة الذين لحقوا ببكر بعد هزيمتهم بحرب الردة وقتل زعيمهم مسيلمة ثم اغتيال ثمامة بن أثال.

٣- قبائل تغلب ومعهم النمر، وهم اهل الجزيرة والانبار في العراق، وكان مرزهك عين التمر وقد مر معنا انهم طردوا من هناك.

يوم القادسية:

في عهد عمر بن الخطاب كان تاريخ بكر هو الابرز من عبد القيس وتغلب، فبعد تنصيب عمر بن الخطاب أميراً للمؤمنين سنة ١٣هـ كان الاضطراب السياسي عند الفرس قد بلغ اوجه بعد موت ملكهم تلك الفترة وعدم وجود من يخلفه مما سهل على المسلمين الفتوحات التي حدثت في عهد أبي بكر، لكن اعيان الفرس بايعوا ملكاً صغير السن ليضمنوا الوحدة تجاه اعدائهم من العرب بعد أن قيل لهم انه هذا الفتى من ابناء الملك من إحدى جواريه.

علم المثنى وهو الخبير بالشؤون الفارسية بالتطورات السياسية عند الفرس فنزل على قبائله اللهازم بمنطقة ذي قار والتي كانت منهلاً لهم من بلاد فارس.

ومن هناك بعث المثنى بن الحارثة رسالة إلى عمر بن الخطاب اوضح فيها خطورة الامر، وما يمكن ان يودي إليه من خسارة المسلمين لأرضهم التي غنموها من العراق في عهد أبي بكر الصديق.

وجاءت توقعات المثنى بمكانها، اذ لم يلبث اهل الحيرة بعد أن علموا ان الفرس سيساعدونهم حتى كفروا ونقضوا على المسلمين وذلك قبل ان تصل توجيهات الخليفة عمر بن الخطاب إلى المثنى.

وأصبح المثنى بقبيلته بكر مواجهاً وحيداً للفرس في ذي قار، وعلم عمر بخطورة الأمر فكتب إلى كافة الامراء ان يوجهوا كل من يستطيع حمل السلاح إلى المدينة المنورة لتجهيزهم وبعثهم في مساندة المثنى.

ومما يدل على خطورة الموقف ان عمر فكر نفسه ان يخرج على رأس هذا الجيش الكبير، إلّا أن اهل الرأي من كبار الصحابة قد اشاروا

على عمر ببعث الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص على رأس هذا الجيش، فكان ان اقتنع عمر بصواب هذا الرأي وتم بالفعل بعث سعد بن أبي الوقاص على رأس جيش كبير إلى العراق في محرم من سنة ١٤هـ.

كان تعداد قبيلة بكر بن وائل المواجهة للفرس ٨٠٠٠ رجل(١) تقريباً من اللهازم والذهلين وممن تلهزم من بني حنيفة بعد يوم اليمامة.

وقبل وصول سعد بن أبي وقاص بمدده من المدينة المنورة كان المثنى قد اشتبك بالفعل مع الفرس، ونتج عن هذا ان اصيب المثنى اصابة بالغة مات على اثرها قبل وصول سعد بن أبي الوقاص بالمدد.

ووصل سعد بن أبي الوقاص إلى ميدان المعركة في العراق، وانضمت إليه قبائل بكر بعد موت زعيمها المثنى، وقائد الفرس هو رستم نائب يزدجرد.

وتقابل الطرفان نحو اربعة اشهر مناوخةً، حتى نزل الفرس القادسية، وحاول الفرس ان يفتحوا باب التفاوض مع المسلمين إلّا أنها وصلت إلى طرق مسدودة واشتبك الطرفان في معركة رهيبة انتهت بانتصار العرب نصراً ساحقاً.

المواجهة بين المسلمين وقبيلة تغلب بن وائل في العراق

بموت المثنى فقدت بكر قيادة الجبهة العراقية في الفتوحات، وأصبحت قيادة الجبهة بيد سعد بن أبي وقاص الذي تزوج امرأة المثنى بن الحارثة الشيباني.

ولكن قبائل بكر ظلت هي محور القبائل المشاركة في فتوحات العراق، خاصة ان المسلمين مضطرين الآن لمواجهة بني تغلب وهم الجذم الثاني من ربيعة بعد هزيمتهم للفرس، ولذلك قام سعد بن أبي

(١) ايام العرب في الإسلام، محمد أبو الفضل، ص ٢٤٥.

الوقاص بتعيين كل من: إلّا فكل العنزي وفرات العجلي كزعيمين لقبائل بكر المحاربة في العراق.

سبق ان ارسل التغلبيون وفداً إلى الرسول ﷺ ووقعوا معه معاهدة تنص على حقهم في البقاء على نصرانيتهم بشرط ان لا ينصروا احداً من ابنائهم أو من يرغب الإسلام منهم.

وهذه المعاهدة هي محل اعادة النظر في عهد عمر، فالمسلمين في وقت الرسول لم يكن العراق من ديارهم، اما اليوم هاهم يستعدون إلى ادخال العراق بقبائله إلى حظيرة بلاد العرب.

وقد مر معنا بعض الاشتباكات بين تغلب وبين المسلمين في عهد أبي بكر الصديق، وتتجدد هذه الحروب في عهد عمر لأن المسلمين يريدون السيطرة الكاملة على عرب العراق وطرد الفرس عنه. ومن الواضح اعتماد عمر بن الخطاب على المثل القائل (لا يفل الحديد الا الحديد) فقد اعتمد على قبائل ربيعة المسلمة في حروبه مع تغلب والنمر في بلاد الرافدين.

يوم تكريت سنة ١٦هـ:

قلنا ان المثنى عين الافكل العنزي قائداً لقبائل بكر في العراق وكذلك فرات العجلي وكلاهما من اللهازم.

اما الفرس فقد انسحبوا بعد هزائمهم المتلاحقة إلى تكريت وطلبوا المعونة من عرب العراق الذين أهمهم بنو تغلب والنمر، فأرسل سعد بن أبي الوقاص عبدالله بن المعتم مع مجموعة من القبائل على رأسهم بكر، وقائد بكر هو ربعي ابن الافكل العنزي ومعه من بكر الحارث بن حسان الذهلي وفرات العجلي.

حاصر هؤلاء الفرس في تكريت، واستثار عبدالله بن المعتم الحمية

العربية عند بني تغلب والنمر، فاستجاب هؤلاء له ووقفوا إلى جانب المسلمين بدافع التعصب للعرب.

وكان لهذا الموقف اثره في اضعاف كفة الفرس، ففتح المسلمين البلد ةطرد الفرس منها.

اما تغلب والنمر فقد اوكل امرهم إلى ربعي بن الافكل العنزي وقاد بهم فرسانا إلى الموصل ونينوي وفتحها.

وقد ادت هذه الحروب إلى اضعاف نفوذ الفرس في العراق عبر اضعاف اقوى حلفائهم العرب - قبيلة تغلب - وأصبح موقف قبائل بكر هو الاقوى لانها كانت على الإسلام، لكنها على كل حال لم تغير موقف بني تغلب من دينهم وهو النصرانية، اذ ظل موقف تغلب من دينهم صارماً، حتى انهم ارسلو وفدا سنة ١٧هـ إلى عمر ليفاوضوه بخصوص وضعهم بعد أن اصبحت ديارهم ضمن ارض المسلمين، فماكان من عمر الا اتخذ موقف الرسول ذاته في قبول نصرانيتهم على شرط أن لا ينصروا اولادهم، إلّا أن عمر لم ياخذ منهم جزية بل اكتفى باخذ زكاتهم كما توخذ من المسلمين وهذا موقف غريب بالفعل ولا تفسير له الا لكون تغلب من العرب.

ويمكن بسهولة فهم موقف عمر بن الخطاب هذا، فقد اراد ان يقف بنو تغلب على الاقل محايدين في المواجهة بين العرب والفرس، فأراد ان تنشط الحمية العربية لدى تغلب فيكسبهم إلى جانب المسلمين ضد الفرس بدلاً من يتخذوا موقفاً عكسيًّا، فنجده يلغي قراراً اتخذه عامله (وهو الوليد بن عقبة) على الجزيرة الفراتية يقضي بأن لا يقبل من تغلب والنمر إلّا الإسلام لأنهم عرب، فأجاب عمر عامله بأن هذا القانون يطبق فقط في جزيرة العرب وليس خارجها وان لبني تغلب نصرانيتهم بالشروط المتفق عليها منذ عهد الرسول ﷺ، بل وعزل عامله وعين بدلاً منه فرات

العجلي من اللهازم على الجزيرة، بينما تولى ربعي بن الافكل العنزي أمور الموصل ونينوى.

وقد أدت سياسة عمر هذه اهدافها، فقد ساند التغلبيون على رغم من نصرانيتهم المواجهات الكبرى بين الفرس والمسلمين والتي استهدف المسلمون منها فارس ذاتها، ومن هذه المواجهات يوم القادسية ويوم نهاوند الذي انتهت فيه الدولة الفارسية وخضعت ماتعرف اليوم بايران للمسلمين نهائيًّا، وأصبح العراق بعد ذلك مقرًّا لقبائل ربيعة وخاصة المدن التي استحدثت في عهد عمر مثل الكوفة، ونزلت قبائل ربيعة العراق فنزلت عنزة وبكر مناطق مثل عين التمر والموصل والجزيرة وجاورت تغلب فيها كما ذكرنا سابقاً.

الأوضاع الديمغرافية والاجتماعية لقبائل ربيعة في عهد عمر بن الخطاب

تغيرت أمور العرب في العهد العمري، فقد توحدت قبائل العرب تحت حكم دولة مركزية، وأصبح العراق والشام خاضع لنفوذ هذه الدولة مباشرة، فكانت القبائل العربية قد ابطلت الغزو فيما بينها واستبدلته بالغزوات الإسلامية المنظمة ضد الفرس أو الروم.

استحدثت في عهد عمر بعض المدن كثكنات عسكرية للقبائل، وبما ان ربيعة الذين هم بكر وتغلب وعبد القيس كانوا يعتبرون قبيلة حدودية أي تقيم على اطراف جزيرة العرب الشمالية وتتعمق حتى اليمامة، فقد كان لهم نصيب الاسد من ارض العراق.

وقد مر معنا أن بني تغلب ارسلوا وفداً إلى عمر بن الخطاب لبحث اوضاعهم الدينية بعد أن صار العراق تابعاً للحكم الإسلامي، ويقول المؤرخ ابن الاثير ان بني تغلب بعد أن زاروا عمر بن الخطاب اتخذ بعدها قراراً ببناء الكوفة وتقسيمها بين القبائل المحاربة.

فأصبحت الكوفة مقر مشيخة بكر في عصور الاستقرار، حيث أصبح آل مسمع هم شيوخ بكر.

اما بني تغلب والنمر فقد ظلوا في ديارهم في الجزيرة والموصل، وأصبحت عين التمر قاسماً مشتركاً بين كل من بكر وتغلب وبها كنيسة لبني تغلب النصارى.

كما كان هناك دياراً لقبائل بكر في اليمامة والبحرين مثل قرية ثاج التي كانت للهازم وهم (عنزة وقيس بن ثعلبة) ومنفوحة وهي أيضاً لللهازم، والنباج وثيل وقد ورثتها تميم منهم.

اما بني حنيفة فقد تلهزموا ودخلوا في بني عجل بعد هزيمة حرب الردة في اليمامة، وبعد ضعف قوتهم وخاصة أن حولهم في اليمامة قبائل قوية كبيرة العدد مثل بني عامر وبطونهم الكبرى (بنو نمير.. بنو عقيل.. بنو كلاب).

وقد اصبح مسيلمة الكذاب وما فعله من مثالب بني حنيفة، حيث تشير روايات ان الحنفيين اسقطوا عمود النسب الحنفي وأصبحوا ينتسبون مباشرة إلى ربيعة أو عجل من اللهازم.

اما عبد القيس بن افصى فقد اصبحوا ما يشبه التابع لقبائل بكر بن وائل واشارت بعض المصادر ان الرجل من عبد القيس كان ينسب بكريًّا أو شيبانيًّا.

ربيعة في عهد عثمان بن عفان (٢٣هـ -٣٥هـ)

مما سبق نستنتج ان قبائل ربيعة الثلاث (بكر وتغلب وعبد القيس) كان قريبة لأرض العراق وبلاد فارس، وقد انتهت اغلب المعارك الرئيسة على الجبهة العراقية واختطت مدن البصرة والكوفة وأصبح هناك نوع من الاستقرار في تلك الجبهة.

في عهد عثمان بن عفان تركزت الفتوح على الجبهات الغربية سواء مصر أو حتى الشام، ولم يكن لربيعة تواجداً ملحوظاً في لك الفترة ضمن هذا النطاق.

لكن أموراً اجتماعية حدثت في عهد عثمان، وقد سبقوا وان تحدثنا ان القبائل العربية مثل ربيعة كانت تنظر للخلافة كحكم مركزي لقريش القبيلة وليست خلافة دينية، هذا الأمر عاد مجدداً في عهد عثمان بن عفان، اذا ان القرشيين الذي كانوا تواقين لمغادرة الحجاز والحصول على نصيب من غنائم المناطق الغنية، وقد سبب ذلك تذمر القبائل العربية ومنها ربيعة التي رأت ان النزعة القرشية بدأت بالظهور مجدداً، وهاهي تتحول من استئثار بالحكم إلى مشاركة بالغنائم.

وزاد الأمر سوء ان قريش اصيبت ذاتها بمرض العصبية القبلية الداخلية، فقد كان ينظر عامة قريش ان عثمان انما يكرس عودة سلطة بني امية وهم البطن الذي ينتمي إليه عثمان نفسه.

ولسنا بصدد تفاصيل هذا الأمر لأن حديثنا منصب على موقف ووضعية قبائل ربيعة في خضم هذه الاحداث، فقد كانت ربيعة ممتعضة من الحكم القرشي منذ ايام النبوة، ورأينا كيف كانت الحروب العنيفة بينهم وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر، وهم الآن في خلافة عثمان لا تزال في نفوسهم مسألة التعصب للقبيلة والانفة من التبعية لطبقة قبلية هي قريش التي تحكم باسم الإسلام والخلفاء الراشدين.

وقد وصل امر معارضة عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب ﷺ، الذي كانت القبائل العربية البعيدة عن شؤون الحكم مثل ربيعة تعول عليه في اصلاح المآخذ على عثمان بن عفان، ونتيجة لذلك اتخذت القبائل الربعية وهم بكر وعبد القيس الموقف المعادي لعثمان بن عفان والمائل إلى علي بن أبي طالب، اما تغلب فلم يكونوا قد دخلوا الإسلام في تلك الفترة ولم يكن لهم ناقة ولا جمل في هذا الامر.

ويظهر لي أن قبائل ربيعة لم تكن تؤيد بالفعل علي بن أبي طالب انصافا لحق أو غيره، بل هي الرغبة في صب الزيت على نار اول خلاف قرشي قرشي، رغبة من قبائل ربيعة - وبل حتى غيرها في القضاء على الهيبة القرشية واقناع عامة الناس ان الخلافة امر متاح لجميع القبائل وليس حكرا على قريش، وسنجد أن هناك قرائن تاريخية تؤيد مانذهب إليه في هذا الخصوص عندما تناول ظروف خلافة علي بن أبي طالب وموقف قبائل ربيعة في تلك الفترة.

انتهت المعارضة العارمة لحكم عثمان ان جيشت الجيوش لحصار المدينة سنة ٣٥هـ، ومن ثم قتل عثمان بن عفان رضي الله وتنصيب الإمام علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين واميرا للمؤمنين.

ربيعة في عهد الإمام علي بن أبي طالب (٣٥هـ - ٤٠هـ)

عندما بويع الإمام علي بن أبي طالب ﷺ كانت قبائل العرب البعيدة عن المدينة المنورة في العراق ونجد ومنها ربيعة مؤيدة للموقف العلوي، مما اشعل جذوة التعصب القرشي في مكة المكرمة والشام.

وكان قادة الموجة القرشية هم كل من عائشة بنت أبي بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله ومروان بن الحكم والزبير بن العوام وهؤلاء في الحجاز، بينما تولى معاوية بن أبي سفيان جبة الشام المعارضة لمقتل عثمان وتنصيب علي بن أبي طالب.

كانت قبيلة بكر بن وائل ذات دور كبير في هذه الفترة حيث كانت مقر مشيختهم الكوفة، وقد شكلت عائشة بمعونة طلحة والزبير جيشا هدفه استمالة قبائل بكر بن وائل وعبد القيس في العراق ومصادمة قتلة عثمان المبايعين لعلي.

كان زعيم عبد القيس هو حكيم بن جبلة العبدي، وقد رفض الانضمام إلى جيش عائشة وطلحة، وفي تاريخ ابن الاثير أن بني

عبد القيس عندما رفضوا الانصياع إلى ماجاء به جيش عائشة ادى ذلك إلى اشتعال الحرب بين الطرفين وانضمت قبائل بكر إلى عبد القيس في حربهم لطلحة وعائشة.

كان هدف جيش عائشة هو اجبار قبائل ربيعة ومن معهم من العرب النازلين في سواد العراق لخلع بيعتهم لعلي والانضمام لهم في المطالبة بدم عثمان، وتمسكت قبائل ربيعة في بيعتها لعلي بالخلافة وان لا علاقة لهم بمقتل عثمان حتى يناصرون اية مطالب بدمه.

إلّا أن جيش عائشة الذي كان مجهزاً من كبار اثرياء قريش في مكة تمكن من الانتصار في الاشتباكات، وقتل حكيم بن جبلة زعيم عبد القيس، فهرب عدد كبير من قبائل بكر بن وائل وعبد القيس إلى علي بن أبي طالب الذي خرج بدوره إلى العراق للحاق بعائشة ومساندة من بايعه من العرب، وأصبح موقف جذمي ربيعة الكبار: عبد القيس وبكر مع الإمام علي بن أبي طالب ضد عائشة وطلحة والزبير لتبدأ بين الطرفين معركة الجمل.

موقعة الجمل سنة ٣٦هـ:

بلغ الإمام علي ما فعله طلحة والزبير وقتال قبائل ربيعة لهم في ارض العراق قرب البصرة ووفاة حكيم بن جبلة أحد اهم رجالات ربيعة، وقد علمنا ان قبيلة ربيعة خرجت من العراق ملاقاة الإمام علي ومناصرته فقال أبياتاً عنهم عندما سمع عن حربهم لجيش عائشة:

يا لهف نفسي على ربيعه ربيعة السامعة المطيعه
قد سبقتني فيهم الوقيعه دعا علي دعوةً سميعه
حلوا بها المنزلة الرفيعه

ولكن الإمام علي بن أبي طالب فضل أن يكون النزاع قرشيًّا داخليًّا

لا دخل لقبائل العرب الأخرى فيه، فقد قال لوفد من بكر بن وائل أنه لا يريد تدخلاً منهم في صفه، وان امر طلحة والزبير بين المهاجرين والانصار من الصحابة فقط، ومع ذلك اتحدت راية ربيعة مع الإمام علي بن أبي طالب، بل أن تغلب وعلى الرغم من نصرانيتهم اتحدوا مع بكر وعبد القيس تحت رئاسة وعلة بن محدوج الذهلي[1].

وسبب التحاق بني تغلب مع بكر وانضمامهم لعلي بن أبي طالب هو أن معاوية الذي كان مستقلًّا بحكم الشام ومعارضاً لعلي بن أبي طالب قد استمال قبيلة تغلب وهم في الجزيرة الفراتية، فعزم علي على قتالهم وارسل لهم سرية بقيادة الحارث بن نمر التنوخي إلّا أن قبائل بكر اخذتهم الحمية على ابناء عمهم من تغلب ولم يريدوا ان يحارب ابناء عمهم، فكلموا الإمام علي فيهم وقالوا لعلي أنهم معنا ومعك، فكان ان انضمت تغلب إلى اخوانها من ربيعة وهم عبد القيس وبكر.

وكان من ابرز زعماء ربيعة الذين مع علي يوم الجمل: شقيق بن ثور من بكر، وعمرو بن مرحوم العبدي من كبار عبد القيس.

وقد يجدر بنا ان ننوه أن جمعاً بسيطاً من ربيعة كان بجانب عائشة وطلحة والزبير، انما تحدثنا عن موقف جمهرة ربيعة والسواد الاعظم منها وموقفهم المؤيد لعلي في هذا الصراع الذي انتهى بمعركة دامية انتهت بهزيمة اتباع عائشة رضي الله عنها وقتل طلحة والزبير، وسميت المعركة باسم الجمل نظراً لأن عائشة رضي الله عنها كانت تركب جملاً تحث اتباعها بواسطته الاستماتة في القتال.

وقد انتهت المعركة بنصر حاسم للامام علي واتباعه، وقتل جمل عائشة رضي الله عنها، وقتل طلحة والزبير، وجرح مروان بن الحكم الذي كان إلى جانب عائشة، ويروي المؤرخ الطبري ان مروان عندما جرح وجده رجل

(١) الكامل في التاريخ – ابن الأثير المؤرخ الصفحة: ٥٤٠.

من ربيعة هو أبو الحفص العجلي، وأخذه بشكل سري وذهب به إلى مضارب بكر بن وائل دون علم اتباع علي بن أبي طالب، والتجأ إلى بيت من قبيلة عنزة وتطبب فيه رغم موقف عنزة المؤيد للامام علي، وقال مروان للعنزيين: علموا مالكا ابن مسمع بمكاني!، وكان مالك هو زعيم بكر في المعركة، فلما علم مالك ان مروان لاذ بقومه قال مالك بن مسمع لعنزة: التمسوا له الأمان من عليّ، فإن آمنه فذاك الذي نحبّ وإن لم يؤمنه خرجنا به وبأسيافنا؛ فإن عرض له جالدنا دونه بأسيافنا، فإمّا أن نسلم، وأمّا أن نهلك كراماً![1]

وهذا يدل على ان مالك بن مسمع اختار وفضل القتال دون الدخيل، ولكن الإمام علي بن أبي طالب صفح عن مروان اكراماً لمالك، والدخيل عادة عربية معروفة حتى في الازمنة القريبة، كما تدل هذه الحادثة على أن عنزة هي جزء من بكر بن وائل وفي عدادها، ذلك ان مروان قد دخل فيهم اولاً ثم بزعيم بكر مالك بن مسمع، ويقول الطبري في تاريخها ان مروان عندما اصبح خليفة حفظ لعنزة وآل مسمع هذا المعروف مما ساهم في تحسن العلاقات الربعية الاموية في عهده.

الصراع بين علي ومعاوية وموقف قبائل ربيعة منه

بعد أن ضمن علي بن أبي طالب جبهة قبائل العراق وعلى رأسها بطون ربيعة الثلاثة، بقي له جبهة الشام وفيها معاوية بن أبي سفيان الذي طعن في شرعية علي كخليفة للمسلمين طالما ان دم عثمان لا زال معلقاً، وزاد من قوة معاوية ان انضم إليه عمرو بن العاص وبدا يضع الخطط لمواجهة علي بن أبي طالب.

أوفد علي بن أبي طالب بعد انتصاره في معركة الجمل وفدا إلى

---

(١) تاريخ الطبري حوادث سنة ٣٦هـ.

معاوية اخبره ان الناس قد اجتمعت عليه وجل قبائل العرب والمهاجرين والانصار تحت رايته وان على معاوية الاجتماع على ما اجتمع الناس عليه، وكان من الطبيعي أن يرفض معاوية الانصياع لعلي لتكون المواجهة المسلحة أمراً لا بد منه وهو ما حدث بالفعل في معركة صفين بين العراق والشام.

معركة صفين سنة ٣٧هـ:

يظهر دور قيلة ربيعة وتأثيرها على مجرى الاحداث في معركة صفين أكثر من أي قبيلة اخرى، وتعتبر هذه الواقعة وما حدث بعدها نقطة تحول في التاريخ الإسلامي وتاريخ قبائل ربيعة.

لقد ذكرنا سابقاً ان الهدف من هذه الدراسة تأكيد الوحدة الربعية عبر مراحل تاريخها ومنها هذه المرحلة في اواخر العهد الراشدي، وتجاور البطون الربعية وتداخلها وعدم تفرقها عن بعضها، هذا التداخل الذي ذكرنا انه تم في الجاهلية بعد حرب البسوس، نجده لا زال كما هو ذاته يوم صفين، حيث تكون بكر تضم اللهازم والذهلان وتحتها قبيلة عنزة وضبيعة وتيم ومن تلهزم من بني حنيفة تحت بني عجل بن لجيم، كذلك البطن الربعي الآخر وهم بني عبد القيس بن افصى.

ولقد كان الموقف الربعي ذو اهمية بالغة للطرفين المتنازعين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، يدلنا على هذا موجة الغضب التي انتابت معاوية على قبائل ربيعة وصلت إلى أن يهدد معاوية قبيلة ربيعة بأنه سيقتل رجالهم ويسبي نسائهم ان هم استمروا في موقفهم الداعم كلية لعلي بن أبي طالب، ولم ينسى معاوية بن أبي سفيان فشله في استمالة بني تغلب في الجزيرة منذ معركة الجمل.

على أن هذا لم يجعل معاوية ييأس من استمالة الربعيين أو تحييدهم على الاقل، فقد نقل ابن مزاحم في كتابه (موقعة صفين) ان معاوية راسل

خالد بن معمر السدوسي وهو من كبار بني شيبان، وبلغت الاخبار علي بن أبي طالب الذي جمع قبائل ربيعة وخطب فيهم قائلاً:

أما بعد يا معشر ربيعة فأنتم أنصاري، ومجيبو دعوتي، ومن أوثق حي في العرب في نفسي، ولقد بلغني أن معاوية قد كاتب صاحبكم خالد بن المعمر، وقد أتيت به، وقد جمعتكم له لأشهدكم عليه وتسمعوا أيضاً مني ومنه». ثم أقبل عليه فقال: «يا خالد بن المعمر، إن كان ما بلغني عنك حقا فإني أشهد الله ومن حضرني من المسلمين أنك آمن حتى تلحق بالعراق أو بالحجاز، أو أرض لا سلطان لمعاوية فيها. وإن كنت مكذوبا عليك فأبر صدورنا بأيمان نطمئن إليها».

فحلف له بالله ما فعل، وقال رجال من ربيعة كثير: والله لو نعلم أنه فعل لقتلناه[1].

وعندما اشتبك الطرفان في اوائل المعركة كان الإمام علي بن أبي طالب يمر بقبائل العرب المناصرة له ويحثها على القتال، فمر برايات ربيعة وعليهم شقيق بن ثور حاملا لوائهم، فسألهم بصوت جهوري:

لمن هذه الرايات؟!

قالوا: رايات ربيعة.

فقال الإمام علي:

بل هي رايات الله، عصم الله أهلها وصبرهم وثبت أقدامهم.

وهذا يدل على ان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ كان أكثر اهتمامه منصبا على تشجيع الموقف الربعي أكثر من غيره، نظراً للثقل الذي تشكله هذه القبائل مما قد يقلب الموازين فيما لو غيرت ربيعة موقفها لأي

(١) وقعة صفين - ابن مزاحم الصفحة: ٨٢.

سبب، هذا الموقف الربعي كان يعظمه الإمام علي بن أبي طالب حتى انه قال شعرا عندما رأى راية عبد القيس ذات اللون الاحمر:

لمن راية حمراء يخفق ظلها — إذا قيل قدمها حضين[1] تقدما

ويدنو بها في الصف حتى يديرها — حمام المنايا تقطر الموت والدما

تراه إذا ما كان يوم عظيمة — أبي فيه إلا عزة وتكرما

جزى الله قوما صابروا في لقائهم — لدى البأس حراما أعف وأكرما

وأحزم صبرا حين تدعى إلى الوغى — إذا كان أصوات الكماة تغمغما

ربيعة أعني، إنهم أهل نجدة — وبأس إذا لا قوا خميسا عرمرما

وقد صبرت عك ولخم وحمير — لمذحج حتى لم يفارق دم دما

ونادت جذام يال مذحج ويلكم — جزى الله شرا أينا كان أظلما

أما تتقون الله في حرماتكم — وما قرب الرحمن منها وعظما

أذقنا ابن حرب طعننا وضرابنا — بأسيافنا حتى تولى وأحجما

وفر ينادي الزبرقان وظالما — ونادى كلاعا والكريب وأنعما

وعمرا وسفيانا وجهما ومالكا — وحوشب والغاوي شريحا وأظلما

وكرز بن نبهان وعمرو بن جحدر — وصباحا القيني يدعو وأسلما

ونتيجة لموقف قبائل ربيعة فإن معاوية كان يحرض قبائل الشام من لخم وجذام وحمير ان تشد على ربيعة حتى انه قال لأهل الشام:

يا أهل الشام! هذا الحي (يعني ربيعة) من أهل العراق قتلة عثمان بن عفان، وأنصار علي بن أبي طالب. وإن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان وهلك علي وأهل العراق».

تأثر اهل اشام بما قاله معاوية فشددو الهجوم على قبائل ربيعة،

---

(١) هو الحضين بن المنذر من فرسان عبد القيس وحامل الراية الحمراء.

فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلا قليلاً من الضعفاء، وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ، وقاتلوا قتالاً شديداً. فلما رأى خالد بن المعمر أناساً قد انهزموا من قومه انصرف؛ فلما رأى أصحاب الرايات قد ثبتوا ورأى قومه قد صبروا رجع وصاح بمن انهزم بالرجوع، فقال من أراد أن يتهمه من قومه: أراد الانصراف فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا؟ وقال هو: لما رأيت رجالا منا قد انهزموا رأيت أن أستقبلهم ثم أردهم إليكم، فأقبلت إليكم بمن أطاعني منهم. فجاء بأمر مشتبه، وكان بصفين أربعة آلاف فارس من عنزة المنضوين في بكر بن وائل.

وهذا يدل ان قبائل ربيعة لا تزال تشكك في حقيقة موقف خالد بن معمر من علي بن أبي طالب ويتهمونه بميله لطرف معاوية، رغم ان الإمام علي قد اعاد طرح الثقة فيه وجعله من حملة الرايات وسط تذمر من قبائل بكر وعنزة، هذا التذمر حاول خالد بن معمر امتصاصه وخطب في قومه قائلاً:

يا معشر ربيعة، إن الله عز وجل قد أتى بكل رجل منكم من منبته ومسقط رأسه فجمعكم في هذا المكان جمعا لم تجتمعوا مثله، منذ نشركم في الأرض، وإنكم إن تمسكوا أيديكم تنكلوا عن عدوكم، وتحولوا عن مصافكم، لا يرضي الرب فعلكم، ولا تعدموا معيرا يقول: فضحت ربيعة الذمار، وخامت عن القتال، وأتيت من قبلها العرب» أ.هـ

وبعد أن انهى خطبته قام إليه رجال من ربيعة قائلين له:

«ضاع والله أمر ربيعة حين جعلت أمرها إليك، تأمرنا ألا نحول ولا نزول حتى نقتل أنفسنا ونسفك دماءنا. ألا ترى إلى الناس قد انصرف جلهم».

وهذا يدل ان الربعيين كانوا غير راضين لقيادة خالد بن معمر هذا، ومع ذلك استمر خالد بن معمر أحد اهم حملة اللواء مستفيداً من ثقة

الإمام علي به، وقد سبق وأن أشرنا إلى معاوية بن أبي سفيان قد توعد رجال ربيعة بالقتل ونسائهم بالسبي فقال خالد بن معمر ابياتاً هجا فيها معاوية:

تمنى ابن حرب نذرة في نسائنا ودون الذي ينوى سيوف قواضب

ونمنح ملكا أنت حاولت خلعه بني هاشم قول امرئ غير كاذب

سبق وأن قلنا أن بني حنيفة قد دخلوا قبيلة اللهازم من بكر إلى جانب عنزة وتيم اللات وعجل، وهؤلاء الأخيرين هم من اندمج بهم بني حنيفة، لأنهم الأقرب لهم فحنيفة هو اخو لجيم بن صعب بن بكر بن وائل.

وكان زعيم بني حنيفة يوم صفين على رواية ابن أبي الحديد المعتزلي حريث بن جابر الحنفي، وكانت راية حمير المؤيدة لمعاوية هي من واجهت ربيعة، وكانت راية حمير مع عبيد الله بن عمر بن الخطاب المناصر الشديد لمعاوية، حتى قيل أن حريث الحنفي هو من قتل عبيد الله بن عمر، وكان عبيد الله بن عمر يقول في ابيات له في الحرب:

أنا عبيد الله ينميني عمر خير قريش من مضى ومن غبر

إلا رسول الله والشيخ الأغر قد أبطأت عن نصر عثمان مضر

والربعيون فلا أسقوا المطر وسارع الحي اليمانون الغرر

والخير في الناس قديماً يبتدر

فأجابه الحريث الحنفي منافحا عن ربيعة:

قد سارعت في نصرها ربيعه في الحق والحق لها شريعه

فاكفف فلست تارك الوقيعه في العصبة السامعة المطيعه

حتى تذوق كأسها الفظيعه

وانتهى الأمر بقتل عبيد الله بن عمر على يد بني حنيفة، وكما شارك

الحنفيون مع اللهازم في معركة صفين، شارك أيضاً جمع من الاراقم من بني تغلب بن وائل الذين دخلوا بدورهم في اللهازم تحت لواء بكر بن وائل، وهم رهط الشاعر كعب بن جعيل التغلبي والذي عاصر احداث صفين.

ونحن ننقل هذه الحقائق التاريخية عن التداخل والتوحد الربعي لكي نؤكد ان المسار التاريخي لقبائل ربيعة انما هو مسار واحد في كافة مراحل تاريخها، فهانحن وبعد مرور الثلث الأول من القرن الأول الهجري نجد قبيلة ربيعة قبيلة موحدة، لم تفترق قبائلها وبطونها عن بعضها وتتباعد في الديار، حتى نصل إلى المرحلة التاريخية التي تعيشها قبيلة ربيعة اليوم وقد انضوت كلها في اسم عنزة الوائلية القبيلة المعاصرة، وعنزة التي كانت بطناً بارزاً ومنضوياً في بكر بن وائل كانت من أهم من شارك من ربيعة في حرب صفين حتى اننا لاحظنا حرص المؤرخين على ذكر عدد فرسانها المشاركين مع علي بن أبي طالب، وسنجد ان قبائل ربيعة ستلعب دوراً مهمًّا في محادثات الصلح والتي عرفت تاريخيًّا باسم التحكيم بين علي ومعاوية بن أبي سفيان.

التحكيم ودور قبائل ربيعة فيه

تعد هذه المرحلة هي الفاصلة التاريخية بقبائل ربيعة وعلاقتها مع الحكم الإسلامي الذي كان يتأرجح بين علي ومعاوية، ونحن لانريد أن نفصل كل ماجاء في حديث التحكيم الا غير أننا مجبرين أن نحدد ما هو التحكيم الذي حدث نظرا للدور التي لعبته قبيلة ربيعة في موقفها من التحكيم.

عندما حمي وطيس معارك صفين وقتل عدد من خيار المسلمين مثل عبيد الله بن عمر الخطاب وعمار بن ياسر وغيرهم رأى معاوية أن ينهي حالة الصراع وان يتم التحكيم بين الطرفين على كتاب الله، وأن تكتب

وثيقة بذلك يشهد عليها كبار قادة المعسكرين، ويتباحث عليها وفدين من كل من الطرفين، وقد عرفت هذه الوثيقة بوثيقة التحكيم.

كانت قبيلة ربيعة اثبت واهم من قاتل مع علي، ولذلك كان رأيهم في هذه الوثيقة في غاية الأهمية.

وظهر الاختلاف بين انصار علي بعد كتابة الوثيقة، اذ أظهرت قبائل ربيعة عدم رضاها عن المفاوضات السلمية بحجة أن هذا يعتبر تحكيما للرجال على حكم الله، وخاصة أن الإمام علي كان يحث أنصاره في بداية الصراع مؤكدا لهم انهم يقاتلون لله، وكان اول المحكمين من ربيعة هم اخوين من عنزة من اللهازم وهما اسمهما جعد ومعدان[1]، رفض هؤلاء مسألة التحكيم والصلح وأصرا على القتال حتى قتلا، وقد ادى قبول علي لمبدأ المفاوضات مع معاوية مضافاً عليها مافعلته قبائل ربيعة إلى أن انشقت جموع كبيرة من جيشه، واعتبرت ماقام به من قبول للتحكيم كفراً، وبذلك ظهرت بوادر تيار سياسي جديد، فقبائل العرب التي كانت تسلم بأن الخلافة امر قرشي رأت اليوم ان كل من كبار قريش يختلفون في ما بينهم، ولذلك فقد رأى هؤلاء أن الخلافة هي امر عام لكل الناس ليس حكرا على قريش، رأى هؤلاء الخوارج أن ينشقوا عن الإمام علي بن أبي طالب وينصبوا خليفة من عندهم يرضونه، اما معاوية فقد سلمت له قبائل الشام وبايعته خليفة للمسلمين، وكان التحكيم في مصلحة معاوية، لأن علي بن أبي طالب عليه الآن مواجهة المنشقين وأضطر أن يتحول من قتال معاوية إلى قتال الخوارج.

ورغم ان قبائل ربيعة لم تنشق مع الخوارج بداية إلّا أننا نرى أن التمهيد لولادة هذه الحركة في تاريخ العرب قد حصل في معركة صفين ونتائجها، كذلك فإن لقبائل ربيعة مساهمة في تغذية حركة الخوارج في مراحل لاحقة.

---

(١) الأخبار الطوال أبو حنيفة الدينوري الصفحة: ٧٨.

وقد كان الخوارج الذي انشقوا عن علي قرابة الاثني عشر الف رجل[١]، ولم يكن فيهم من ربيعة الا عدد قليل مثل عبدالله بن الكواء اليشكري، وأخذ هؤلاء يشنون ما يشبه حرب العصابات على الإمام علي واتباعه حتى احتشد لقتالهم في النهروان وهزيمتهم أواخر سنة ٣٧هـ، فكان لقتال الخوارج اثره الكبير على قوة الإمام علي، فآثر العودة إلى الكوفة وجعلها عاصمة له ولممناطق التي تخضع لحكمه وهي: العراق والحجاز ومصر ومايتبع هذه المناطق، غير أن الاحوال تبدلت عندما استغل معاوية انشغال علي بقتال الخوارج فأرسل عمرو بن العاص على رأس جيش استولى على مصرسنة ٣٨هـ، فخرجت مصر من يد الإمام علي تبعا لذلك.

معاوية يرسل وفداً سريًا لقبائل العراق ويحذر الوفد من قبائل ربيعة:

بعد مقتل محمد بن أبي بكر واستيلاء عمرو بن العاص على مصر سير معاوية عبدالله بن عمرو بن الحضرمي إلى البصرة وقال له: إن جل أهلها يرون رأينا في عثمان وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حنقون يودون أن يأتيهم من يجمعهم وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم إمامهم، فانزل في مضر وتودد الأزد فإنهم كلهم معك، وادع ربيعة فلن ينحرف عنك أحد سواهم لأنهم كلهم ترابية فاحذرهم[٢].

وهذا يدل ان ربيعة لا تزال على موقفها المعادي لمعاوية ومن حجته في القتال ضد علي وهي الثأر لعثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد وصفها معاوية بالترابية نسبة لعلي بن أبي طالب حيث كان يعرف بأبي تراب.

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير المؤرخ الصفحة: ٥٧٨.

(٢) نفس المصدر ص ٥٩١، وترابية نسبة لعلي بن أبي طالب.

ونقل أبن الاثير في تاريخه ان وفد معاوية جوبه برفض شديد من عدد من اعيان ربيعة في البصرة منهم المثنى بن صحار العبدي وعمرو بن مرحوم وغيرهم من عبد القيس وبكر، إلّا أن مالك بن مسمع الجحدري شيخ بكر كان ميالاً لمعاوية ومعه الحضين بن منذر زعيم عبد القيس، وكانت البصرة في ذلك الوقت تحت امرة زياد بن أبيه والذي عينه علي بن أبي طالب، وخاف زياد من أن تنجح خطة معاوية في استمالة ربيعة إلى جانبه ولا يأتيه المدد من علي فقرر استدعاء كل من زعيمي ربيعة الكبار مالك بن مسمع والحضين بن منذر العبدي فاجتمعا عنده، فأما الحصين فقد أكد له موقف بني عبد القيس المؤيد للامام علي، اما مالك بن مسمع فقد بدا متردّداً أو ابدى ميولاً لأن يكون في صف معاوية مما ادخل الرعب في قلب زياد بن ابيه ان اطاعت قبائل بكر وهم (عنزة وتيم وعجل وشيبان) مالك بن مسمع في ميولها لمعاوية، وقام زياد واستجار بشيخ قبائل الأزد فأجاره وقاتل رجال عبدالله الحضرمي وهزمهم بصعوبة بالغة وعادت البصرة علوية.

ورغم موقف مالك بن مسمع من جيش معاوية القادم للبصرة إلّا أن قبائل بكر ظلت على موقفها مؤيدةً لعلي بن أبي طالب، حتى ان قرابة المئة والعشرون بكريًّا شاركوا زياد بن ابيه في قتال الخوارج الذين تزعمهم الخريت بن راشد من بني ناجية أحد اشرس الخوارج الذين انشقوا بعد التحكيم.

واستفحل امر الخريت هذا، حتى تواجه مع جيش علي بن أبي طالب ومعه قومه، فانتصر معقل التميمي وهو قائد جيش علي الخريت وسبى نسائه ونساء قبيلته، وفي طريقهم للكوفة كان أحد أعيان بكر بن وائل واسمه مصقلة الشيباني قد أخذته العاطفة تجاه نساء الخريت ونساء قبيلته، فعرض على معقلة أن يشتريهم منه بخمس مائة الف درهم، فلما علم الإمام علي غضب لهذا مما اضطر مصقلة الشيباني إلى الهروب نحو

معاوية في العراق، وكانت مصقلة اول رجل من اعيان ربيعة ينشق على الإمام علي بن أبي طالب.

تزايد عدد الخوارج من ربيعة على الإمام علي بن أبي طالب:

ذكرنا سابقاً ان اول من رفض التحكيم هم لرجلان من عنزة وقد قتلا يوم صفين وهم ساخطين على المفاوضات بين علي ومعاوية، وبعد أن كسر الإمام علي شوكة الخوارج بالنهروان لم يتبق لهم جمع كبير أو قيادة ذات شأن وثقل، فتحولوا مجموعات تظهر من حين لآخر وأكثرها من تميم ثم ربيعة ومن ذكر في كتب التاريخ من ربيعة:

أشرس بن عوف الشيباني، وقد خرج على علي بن أبي طالب ووجه له جيشاً هزمه ربيع الآخر سنة ٣٨هـ، ثم خرج سعيد بن قفل التيمي من تيم الله بن ثعلبة في رجب بالبندنيجين ومعه مائتا رجل فأتى درزنجان، وهي من المدائن على فرسخين، فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ٣٨هـ[١].

أهم شخصيات الخوارج الربعيين

وفي تلك الفترة كان هناك علمين من الخوارج من ربيعة، لم يشتهرا في عهد علي بن أبي طالب، وهما نافع بن الأزرق الحنفي ونجدة بن عامر الحنفي، وقد انضموا للخوارج الذين نزلوا حروراء وهي بالقرب من الكوفة ولذلك عرفوا بالحرورية، ومذهبهم كفر علي ومعاوية وأن الخلافة ليست حكراً على قريش، وانه يجب الجهاد ضد الحكام الكافرين، وقد وقع بين نافع بن الأزرق والخوارج انفسهم خلاف على أمور منها قتل اطفال من يكفرونهم، وقتل الغير المحارب، وقتل المبايع

(١) تاريخ ابن الأثير حوادث سنة ٣٨هـ.

لعلي أو معاوية الكفار في نظرهم، فكان نافع يرى ان هؤلاء يجب أنت يقتلوا ولا يجوز لهم التقية، فانعزل نافع ونجدة سوية بهذه الافكار وعرفوا لوحدهم بالحرورية، وقد تطور امرهم في العهد الاموي كما سنرى.

معاوية يشن الغارات على قبائل ربيعة

وبعد كثرة حوادث الخروج على الإمام علي رأى معاوية بن أبي سفيان ضرورة استغلال الموقف لصالحه، وإرسال السرايا التي تتوعد مخالفيه بالحرب ولمناصريه بالخير، وكانت قبائل ربيعة من أهم الأهداف التي استهدفها معاوية بسراياه، فأرسل سرية لعين التمر وهي من بلاد ربيعة لبكر وتغلب، ثم أرسل سرية إلى بادية الأنبار وأغارت هذه السرية على قبائل بكر وغنمت منها الشيء الكثير، وقتلت من فرسانها أشرس البكري وهو أبو ربيع بن أشر الذي خرج على الإمام علي.

كذلك حاول معاوية غير مرة استمالة بني تغلب في الجزيرة الفراتية، فلم يطعه أحد يذكر فقد ظل التغلبيون مع بكر يوالون من والى بكر ويعادون من تعادي فهم بذلك سائرين مع قومهم، وخاصة الأراقم الذي هم مسلمون وقد دخلوا قبيلة اللهازم البكرية إلى جانب عنزة وبني حنيفة وعبد القيس.

فنستطيع أن نقول وفقاً لهذه الأحداث أن قبائل ربيعة ظلت علوية الهوى حتى وان اشترك بعضهم في الخروج على الإمام علي بن أبي طالب، ولم يصبح لربيعة تأثير كبير على الخوارج حتى قتل علي وتولى الخلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان الخوارج كما قلنا قد أسسوا عدد من العصابات التي اقلقت العراق والحجاز بشكل كبير وذلك عبر تنفيذ سلسلة من الاغتيالات انتهت بتدبير محاولة اغتيال لزعماء قريش الثلاثة علي ومعاوية وعمرو بن العاص حاكم مصر، ولكن المخطط نجح في

العراق وفشل في مصر والشام، أي ان معاوية قد تمهدت له الأمور ليصبح خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين، وبتولي معاوية للسلطة يكون قد بدأ ما عرف تاريخيًّا في العهد الاموي.

الفصل الرابع

ربيعة في عهد الدولة الاموية (٤١ - ٩٠هـ)

كان الحسن بن علي بن أبي طالب قد صالح معاوية، وفاجأ الجميع بتنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رغبة منه في حقن دماء المسلمين، ونكاية بكثير من اهل العراق الذي انضموا للخوارج، ونتيجة لموقف الحسن هذا فليس لقبائل ربيعة إلّا التسليم للحاكم الجديد وأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان الذي بويع بالاجماع في العراق سنة ٤١هـ.

ولم تكن بيعة معاوية بقاطعة لدابر الخوارج، فهم مصرون على أن تخرج الخلافة من اطارها القرشي، وهم وقد كفروا عليًّا على الرغم من كونه من كبار الصحابة وابن عم للنبي ﷺ واستحلوا قتاله وطعنوا في شرعيته كخليفة، فمن باب اولى أن تكون نظرتهم إلى معاوية اشد وانكى.

لكن قبائل ربيعة في تلك الفترة لا تزال على ولائها لعلي وآل بيته، وهم وان بايعوا معاوية، فهم دخلوا فيما دخل فيه عامة الناس واهل الحل والعقد من كبار الصحابة الذين لا زالوا احياء عند تولي معاوية للسلطة.

ونستطيع أن نستثني من ربيعة قبيلة تغلب بن وائل والنمر وغيرهم من نصارى ربيعة، فقد ظلوا موالين لأية حكومة مسلمة سواء كانت

علوية ام اموية، فالخلافة هي امر يتعلق بالمسلمين فقط ولا علاقة للنصارى به من حيث شرعية من يجب أن يتولى هذا المنصب دون غيره.

نتيجة لذلك فإن العلاقة بين معاوية ومسلمي ربيعة من بكر ومن تحت لوائها مثل عنزة ظلت متوترة إلى حد كبير، فميل الربعيين للتمرد على السلطة في عهد معاوية كان ظاهرا، ولذلك فإن معاوية حرص على تولية العراق لرجالٍ يثق فيهم وفي كشفهم لأي معارضة فكرية أو مسلحة لدولته، وكان شيخ بكر بن وائل زمن معاوية هو مسمع بن مالك الجحدري، كذلك كان مشيخة مسمع تشمل عبد القيس وكل ربيعة المسلمين.

ألزم معاوية كل عشيرة وقبيلة ان تبلغ عن أي معارض للسلطة من أبنائها، وان هذه القبائل ملتزمة بالبيعة العامة ولا يسعها شرعاً ان تنقض هذه البيعة.

ومع ذلك ورغم أن جماهير ربيعة كانت مسالمة للحكم الاموي، إلّا أن معاوية بن أبي سفيان كان حريصاً أن يعاقب الربعيين كلما سنحت له الفرصه، فعلى سبيل المثال قام معاوية بن أبي سفينا بتشجيع قبائل قيس عيلان وهم بنو كلاب وبنو النمير على مزاحمة قبائل ربيعة ديارها في نجد وخاصة في اليمامة، وقام معاوية أيضاً بإخراج بعض بطون حنيفة وصادر قراهم في اليمامة واعطاها لبعض الموالي لقريش مثل قرية الخضرمة، وقد تسببت هذه السياسة لمعاوية في صراع طويل امتد لأكثر من قرنين بين ربيعة وقبائل قيس عيلان.

معاوية يقتل اتباع حجر بن عدي الكندي ومعه عدد من أشراف ربيعة

في اثناء فترة حكم معاوية كان المناخ السياسي العام هادىء تحت قيادة صارمة وقوية، ولم يعكر صفو الهدوء السياسي سوى بعض

مضايقات الخوارج، إلّا أن امرا ما حدث وهو قيام المغيرة بن شعبة وهو الوالي من قبل معاوية في العراق بتعرض الأمام علي بن أبي طالب وشتمه على المنبر في أحدى خطبه، مما أغضب محبي الإمام علي ومنهم حجر بن عدي الكندي والذي كان من أشد مناصري العلوية.

وقد خرج حجر وتبعه بعض المعارضين، وعزل معاوية المغيرة وعين بدلاً منه زياد بن ابيه والذي كان موالي لعلي بن أبي طالب قبل مقتل الأخير، قام زياد بجمع قبائل العراق ومنها ربيعة، وألزمهم بأحضار كل من يعرفون موالاته للعلوية ومعارضته لمعاوية.

وعلى الفور جاء الربعيون بكل من يعرفون من من قومهم لكي يتقوا الفتنة، فكان الربعين المعارضين لمعاوية من كبار ربيعة وهم:

صيفي بن فسيل الشيباني، كدم بن حيان العنزي، عبد الرحمن بن حسان العنزي، عامر الأسود العجلي.

وتم القبض على هؤلاء ضمن ثلاثة عشر شخصاً من قبائل أخرى في العراق من تميم والأزد، ووجهت إليهم تهمة تفريق جماعة المسلمين، ونقض البيعة المتفق عليها عام الجماعة (٤١هـ) والعداء لأمير المؤمنين، وقد صدر بحقهم القتل الفوري في دمشق، وقد حاول الأزد التوسط لإعفاء حجر بن عدي فلم يفلحوا.

وأصر معاوية على ان ينقض هؤلاء بيعة علي ويعتبروها باطلة، إلّا أنهم تمسكوا فيه، ومما ينقله المؤرخون عن عبد الرحمن بن حسان العنزي ان معاوية قال له:

يا أخا ربيعة ما تقول في علي؟

فقال عبد الرحمن: دعني ولا تسألني فهو خير لك!

قال: والله لا أدعك!

فقال عبد الرحمن العنزي: أشهد أنه كان من الذاكرين الله تعالى كثيراً من الآمرين بالحق والقائمين بالقسط والعافين عن الناس.

ثم قال له معاوية: ماذا تقول في عثمان؟

قال عبد الرحمن: هو أول من فتح أبواب الظلم، وأغلق أبواب الحق.

قال له معاوية: قتلت نفسك! قال: بل إياك قتلت؛ ولا ربيعة بالوادي، يعني ليشفعوا فيه، فرده معاوية إلى زياد وأمره أن يقتله شر قتلة، فدفنه حيًّا[1].

ولم تكن هذه الشخصيات الربعية التي قتلت إلّا ذات مكانة كبير سواء على صعيد قبائل ربيعة أو حتى على صعيد القبائل العراقية، إلّا أن قتلها رغم ذلك لم يؤثر كثيراً على موقف زعماء ربيعة بكر وعبد القيس الذين ظلوا موالين للخلافة الاموية معتبرين أنفسهم محايدين في مسألة الصراع على الخلافة وانها أمر يختص به القرشيين وحدهم، ومن تجمع قريش عليه هو من يكون لزاما على بقية العرب القبول به، ولم يخالف في ذلك الا الخوارج ألذين تبلورت عندهم في ذلك العهد عدة نظريات في الشكل الذي يجب أن تكون الخلافة عليه، ويعود الفضل للأستقرار السياسي زمن معاوية إلى خلافات هؤلاء الخوراج التي تطورت فيما بعد بحيث أصبحت ربيعة منجبة لأهم شخصيات الخوارج وأكثرها اثارة وهم نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر ومن معهم من ربيعة.

ونحن نرى ضرورة إعطاء القارىء فكرة عامة عن هؤلاء الخوارج الذين عرفوا بالأزارقة، ذلك انهم جزء من التاريخ الربعي لا محالة، فنافع بن الأزرق الحنفي كان من ألذين انشقوا على علي بين أبي طالب، وتبع الخوارج في اكفارهم علي بسبب التحكيم، لكن نافعاً نفسه اختلف

(١) تاريخ ابن الأثير ص ٦٣٦.

مع الخوارج ذاتهم في ما بعد وادعى الخلافة وسمى نفسه أمير المؤمنين، وكفر كل من لم يتبعه حتى من الخوارج أنفسهم، وظهر نافع في عهد معاوية في حروراء وتبعه جملة من كبار فرسان ربيعة مثل: نجدة بن عامر الحنفي وأبو طالوت الشيباني وعطية بن ألاسود اليشكري، ومن معهم من قبائل اخرى.

لكن انشغال الخوارج بينهم أشغلهم عن مضايقة معاوية وحكمه، ونجد ان الهدوء السياسي شمل أيضا فترة ما بعد معاوية عندما تولى ابنه يزيد الحكم سنة ٦١هـ، ولم نجد أن الخوارج الأزارقة قد رتبوا أمورهم الا بتولي بعدة وفاة يزيد وانهيار الاوضاع السياسية مجددا وسنورد تفصيلاً لذلك.

تولي يزيد الخلافة بعد وفاة معاوية سنة ٦١هـ:

لم يجد يزيد ابن معاوية قبولاً عند أغلب القوى المعارضة لحكم معاوية وخاصة الشيعة والخوارج، لذلك اضطربت الأوضاع في عهد يزيد بظهور شخصيات لها وزنها لم تبايع يزيدا على الخلافة وهم: الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن الزبير، ونافع بن الازرق الحنفي زعيم خوراج ربيعة، اما ربيعة في ذلك الوقت فقد والت يزيدا وابتعد مالك بن مسمع بقبائله بكر وحتى عبد القيس عن ساحات الصراع والاصطدام المباشر، حتى ان الحسين بن علي عندما قرر الخروج على يزيد سنة ٦١هـ فإن قبائل ربيعة في جمهرتها وقفت ضمن من وقف ضد الحسين بن علي رغم ان الحسين راسل مالك بن مسمع الجحدري وراسل كذلك امير قبائل عبد القس يدعوهم لنصرته فكتموا امر الرسائل التي وصلتهم وتجاهلوها، واضطر الحسين ان يواجه جيش يزيد بلا شوكة حقيقية سوى قبائل من بني هاشم ومعها بعض المتعاطفين.

وبمقتل الحسين بن علي فإن الاوضاع السياسية استقرت إلى حد

كبير، ولم يعكرها الا الخوارج الذين لم تكن حركتهم ذات تأثير نظراً لقوة الحكم في عهد يزيد، حتى المعارض الكبير عبدالله بن الزبير لم يقم بأي عمل مسلح يذكر واكتفى بالاعتصام في البيت الحرام في مكة المكرمة وسط حصار شديد من القوات الاموية.

والذي بدا لنا ان كراهية قبائل ربيعة لحكم يزيد ان استثنينا بني تغلب، فقد مدح الأخطل التغلبي وهو شاعر تغلب في تلك الفترة يزيد بن معاوية بعدد من قصائده، ووقفت قبائل تغلب موقفاً مؤيداً ليزيد بن معاوية فيما عدا المسلمين من تغلب الذين دخلوا اللهازم من بكر وهم رهط الشاعر كعب بن جعيل التغلبي.

تدخل يزيد بن معاوية في مشيخة بكر بن وائل:

وقولنا أن قبائل ربيعة كانت من ضمن الكارهين لحكم يزيد انما هو مبني على بعض حركات التمرد على يزيد والتي تأتي من العراق حيث تتمركز قبائل بكر وتغلب وعبد القيس اجذام ربيعة الكبرى، فقبائل ربيعة كانت إلى جانب تميم والازد تميل إلى مناصرة العلويين، غير أن يزيد بن معاوية اتبع سياسة فرق تسد مع قبائل ربيعة، فمالك بن مسمع كان شيخ بكر بن وائل الذين هم اللهازم والذهلين، ولقد كان مالك يعاني من منافسة بعض أعيان بكر له على رئاسة القبيلة مثل أشيم بن شقيق السدوسي والذي كان لوالده شقيق دور مهم في تاريخ بكر في الجاهلية، وقد قام أشيم بالذهاب إلى يزيد في دمشق وأقره يزيد على رئاسة بكر، مما أغضب اللهازم وهم: عنزة وتيم اللات وبني عجل ومن تلهزم فيهم من بني حنيفة[1]، فنعرف ان موقف قبائل بكر كان موالياً لمالك بن مسمع والذي جده هو جحدر بن ضبيعة بطل يوم تحلاق اللمم في حرب

(١) تاريخ الطبري.

البسوس، ووسط هذا الخلاف تم توسيط الشاعر عمران بن عصام العنزي والذي كان ميالاً ليزيد فحكم بالرئاسة لأشيم بن شقيق وخرجت الرئاسة بذلك عن مالك بن مسمع مؤقتاً ولكنها سعتود إليه كما سنرى.

انهيار الأوضاع السياسية بعد وفاة يزيد سنة ٦٤هـ:

عندما مات يزيد بن معاوية بويع ابنه معاوية الثاني سنة ٦٤هـ، إلّا أنه كان صغيراً فترك الحكم مخافة الفتن، مما اوقع الامة الإسلامية في مأزق وفراغ سياسي كبير، فعبدالله بن الزبير عندما علم ان معاوية بن يزيد ترك الخلافة لم يلبث إلّا أن اعلن نفسه أميراً للمؤمنين في الحجاز، بينما قام نجدة بن عامر الحنفي بالاستقلال باليمامة والبحرين وكون اول دولة للخوارج الربعيين.

اما أنصار العلويين فقد غضبوا لمقتل الحسين وكونوا جيشاً أطلقوا عليه اسم (التوابين) بقيادة المختار الثقفي وتتبعوا كل جندي اشترك مع القوات الاموية التي قاتلت الحسين وأخذوا يغيرون على كل قبيلة وكل قرية مثيرين الرعب مثل الخوارج.

نبذة عن نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق الحنفيان:

الخوارج كلهم كان لديهم مدرستهم في الخلافة التي تختلف كلية عن الفكرة السائدة، فهم يرون احتكار الخلافة لقريش دون القبائل الأخرى لا يجوز، وقد بدأ الخوارج كما مر معنا في عهد علي بن أبي طالب واجتمعوا في النهروان حيث هزموا وتحولو إلى ما يشبه العصابات.

كان الخوارج يكفرون كل الحكام في زمنهم، ولما قتل علي كانوا يكفرون معاوية وكذلك ابنه يزيداً من بعده، إلّا أنهم كانوا يعذرون الناس الذي يبايعون مكرهين، ولايرون أن الضعيف من عامة المسلمين يجب أن يلتحق بهم.

إلّا أن نافع بن الأزرق الحنفي ومعه ثلة من بكر بن وائل وهم: أبو طالوت الشيباني وعطية بن الأسود الحنفي وأبو فديك كان لهم وجهة نظر اخرى، فهم يكفرون كل من بايع الحكام الكفار سواء اجبروا أو لم يجبروا، وهم لم يستثنوا حتى اطفال من يكفرونهم.

ونافع بن الأزرق كان شجاعاً مقدماً في فقه الخوارج، وإليه تنسب الأزارقة، وكان يفتي بأن الدار كفر، وأنهم جميعاً في النار، وكل من فيها كافر، إلا من أظهر إيمانه، ولا يحل للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يناكحوهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره، وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم، والتقية لا تحل، لأن الله تعالى يقول: «إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية»، وقال فيمن كان على خلافهم: «يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائمٍ»[1].

هذه الافكار لنافع بن الأزرق لاقت معارضة من عامة الناس الذي كرهوا الخوارج، وساهم انتشار هذه الافكار عن الخوارج في زيادة شعبية يزيد بن معاوية مما يضيف تفسيراً مهمًّا لحالة الاستقرار السياسي في عهد معاوية ورغبة الناس في الانضواء في ظل دولة مستقرة خيراً لها من هذه الافكار السوداء.

وقبل وفاة يزيد كان نجدة بن عامر الحنفي قد حالف عبدالله بن الزبير ضد بني امية، وقاتلوا معه الجيش الذي ارسله يزيد قبل وفاته سنة ٦٤هـ. إلّا أن اختلاف الخوارج مع ابن الزبير حول بعض المفاهيم أدى بهم إلى ترك ابن الزبير واعتبار خلافته غير شرعية هو الآخر، وبالتالي بعد وفاة يزيد اصبح للخوارج فرصة في السيطرة على مقاليد الأمور إلّا أنهم

(١) ترجمة نافع بن الأزرق من كتاب شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد.

اختلفوا بسبب افكار نافع المتطرفة والتي جعلت كل من نجدة وابي طالوت الشيباني أن يفارقوه ويكونون حكماً مستقلاً لهم شمل اليمامة والبحرين[1]، بينما نظم عبدالله بن الزبير أموره ليبدأ مشروعه كخليفة للمسلمين وكان العراق حيث تقيم ربيعة هو المقصد.

اما الامويين في الشام فقد اختلف حالهم وسط هذه الأزمة السياسية، ولم يعرفوا أين يضعون الخلافة بعد رفض معاوية الصغير لها، إلّا أن مروان بن الحكم وصل من الحجاز إلى الشام وجمع الامويين في مؤتمر كبير في مدينة الجابية انتهى بتنصيب مروان بن الحكم خليفة ليزيد بن معاوية كتأكيد للجميع بأن البيت الاموي هو البيت الشرعي للخلافة وعلى الجميع مبايعته، إلّا أن مروان اكتفى مع بالاحتفاظ بالشام وترك بقية الاقاليم تتصارع فيما بينها: عبدالله بن الزبير في الحجاز، والمختار الثقفي في العراق، ونجدة بن عامر الحنفي في البحرين ونجد، وكل واحدٍ من هؤلاء يقول عن نفسه انه خليفة المسلمين ويريد ان يبسط نفوذه على الاقاليم الأخرى، وسنتطرق لاحقاً إلى اهم الاحداث في دولة نجدة بن عامر الحنفي.

حرب بكر بن وائل وتميم في البصرة بسبب انهيار الاوضاع السياسية سنة ٦٤هـ:

كان عبيد الله بن زياد هو امير البصرة عندما مات يزيد بن معاوية، وقد رأى انه في ظل هذه الفوضى التي خلفها الفراغ السياسي وعدم وجود خليفة بعد يزيد أن يصبح أميراً مستقلًّا حتى يجتمع اهل الحل والعقد على امام واضح.

---

(١) اتخذت هذه الدولة الخارجية مدينة ثأج في البحرين عاصمة، وثأج هي من قرى اللهازم من بكر بن وائل ويسكنها تبك الفترة عنزة وقيس بن ثعلبة وغلبهم عليها فيما بعد بنو سعد من تميم (ياقوت الحموي - معجم البلدان ج٣ ص ٨٣٨).

ووجه عبيد الله بن زياد عامر بن مسمع شقيق مالك أمير قبائل بكر بن وائل (والذي خلعت رئاسته في عهد يزيد) ليأخذ له البيعة من اهل الكوفة، وقام عامر بإلقاء كلمة على مسامع اهل الكوفة يدعوهم للاجتماع على عبيد الله ريثما تستقر الاوضاع، إلّا أن جماهير بكر بن وائل من اللهازم والذهلين رفضوا بيعة عبيد الله بن زياد مماجعله يفر من البصرة ويستجير بزعيم قبائل الازد مسعود بن عمرو، وانهارت الاوضاع الامنية بقدوم نافع بن الازرق الحنفي الذي استغل الوضع وهجم على السجن في البصرة واطلق من به وعاثت بالبلاد، وكان اتباع نافع يبحثون عن عبيد الله بن زياد لقتله

اما بكر بن وائل فيظهر انهم ينتظرون نتيجة النزاع بيت تميم الرافضة لعبيد الله بن زياد وبين الازد الذين يجيرون عبيد الله ويرغبون بأعادته لإمارة البصرة.

غير أن حادثة وقعت في البصرة أدت إلى تغير موقف قبائل بكر، اذ ان التميميين قد بايعوا أميراً على البصرة والكوفة هو عبدالله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب القرشي المنبوز بـ ببة حتى أن زعيمهم الاحنف بن قيس قد بايعه، ثم جاءت الاصوات المرسلة من عبدالله بن الزبير تدعوا اهل الكوفة والبصرة لمبايعة ابن الزبير خليفة للمسلمين.

في وسط هذا الجو المحتقن في العراق حدث نزاع بين رجل من قريش ورجل من بكر بن وائل بحضور مالك بن مسمع في مسجد البصرة، وهاج السفهاء من كلا الفريقين تعصباً وامر شقيق بن ثور (وهو شيخ بكر المعين من قبل يزيد) بقتل كل تميمي، اما مالك بن مسمع المعروف بحكمته فقد أقبل يهديء قومه بكر بن وائل ويسكن الناس حتى هدأوا، إلّا أن الهدوء لم يستمر الا شهرا أو اقل حتى اندلع مرة أخرى بسبب قتل رجل من بكر بن وائل على يد أحد رجال تميم.

وقد كانت تلك الحادثة فرصة لمالك بن مسمع ان يستعيد مشيخته

المسلوبة منه منذ ايام يزيد، اذا أن قبائل بكر اجتمعت عليه لأخذ الثأر من تميم، والذي يبدو ان مالك يعرف ان تميم ستكون مؤيدة من قبل قريش وقوات ابن الزبير المتوقع بسطها للنفوذ على البلاد، لذلك طلب مالك بن مسمع الحلف مع الأزد الذين يجيرون عبيد الله بن زياد، وقد كان الأزديون رفضون التحالف مع بكر نهائيًّا حتى قال شاعرهم:

نزعنا وأمرنا وبكر بن وائل   تجر خصاها تبتغي من تحالف
وما بات بكريٌّ من الدهر ليلةً   فيصبح إلا وهو للذل عارف

غير أن عبيد الله بن زياد رأى في تحالف الازد وبكر فرصته لاستعادة نفوذه في العراق أو على الاقل حمايته من أي حكومة قادمة سواء من قبل التوابين شيعة الحسين أو من قبل اتباع عبدالله بن الزبير، ولذلك نجده قد الح على زعيم الأزد مسعود بن عمرو أن يقبل العرض الربعي عليه حتى أنه دفع اموالاً طائلة لشيخ الأزد مقابل قبوله الحلف، ووثق الحلف بين القبيلتين وكتب في ورقة ووضعت عند كل من الزعيمين مالك بن مسمع الجحدري ومسعود بن عمرو الأزدي(١).

قررت القبيلتان المتحالفتان (بكر والأزد) مهاجمة البصرة ومقاتلة تميم وقريش واميرهم عبدالله بن الحارث وكان يلقب (ببة) كنبز له، ولما علمت تميم بما فعل مالك بن مسمع ومعه الازد قالوا لعبدالله بن الحارث:

إن مسعوداً وأهل اليمن وربيعة قد ساروا، وسيهيج بين الناس شر، فلو أصلحت بينهم أو ركبت في بني تميم عليهم! فقال: أبعدهم الله! لا

(١) كان الأزد من آخر القبائل النازلة في البصرة، وعند قدومهم، حاول بنو تميم محالفتهم حتى انهم قالو لزعيمهم: بادر إلى هؤلاء قبل ان تسبقنا إليهم ربيعة. فقال: إن أتوكم فاقبلوهم، وإلا لا تأتوهم فإنكم إن أتيتموهم صرتم لهم أتباعاً. (تاريخ الطبري ص ١٣١٥).

والله لا أفسدت نفسي في إصلاحهم[1].

وجعل الربعيون والأزد يسخرون من عبدالله بن الحارث وسط البصرة ويذكرون لقبه ببة[2]:

لأنكحن ببه جاريةً في قبه
تمشط رأس لعبه

ولم يواجه الجيش الربعي اية مقاومة في البداية من قبل تميم أو قريش أو قيس عيلان، وقد طفقت بكر بن وائل وقبائل الازد تتجول في البصرة دون مقاومة تذكر، حتى أن مالك بن مسمع حرق الكثير من دور تميم في البصرة دون أدنى ردة فعل من تميم وزعيمهم الاحنف بن قيس، وكان الاحنف يرى أن لاشرعية لقتال بكر والازد حتى اذا ماثبت ان قبائل بكر سلبت امرأة تميمية قرر الاحنف أخذ ردة الفعل، وأشتبك الطرفان في معارك حامية الوطيس ظهر فيها تفوق بني تميم على بكر ومن معها من الازد، حتى أن أشيم بن شقيق السدوسي قد طعن في خضم هذه المعارك وقال الفرزدق[3] التميمي فيه:

لو أن أشيم لم يسبق أسنتنا وأخطأ الباب إذ نيراننا تقد
إذاً لصاحب مسعوداً وصاحبه وقد تهافتت الأعفاج والكبد

وهجم التميميون على دار مالك بن مسمع واحرقوها، وقتل مسعود بن عمرو زعيم الازد، اما عبيد الله بن زياد فخسر كل مابذله وبقيته غنمته قبائل تميم وفرسانها ولكنه نجا بنفسه وتمكن من الهروب إلى دمشق حيث كان الامويين قد بايعوا هناك مروان بن الحكم.

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) ويقال ان هذه الانشودة كانت تقال لعبدالله بن الحارث وهو طفل.

(٣) الفزدق هو همام بن غالب التميمي وهو معاصر لهذه الواقعة وله متناقضات مع كل من الاخطل وجرير التميمي سنتطرق لها لاحقاً.

وبعد مقتل زعيم الأزد مسعود بن عمروا تامر عليهم اخوه زياد بن عمرو، واجمعو هم وبكر بن وائل على على الانتقام لقتلاهم من بني تميم.

وجاءت عبد القيس من هجر مساندة لأبناء عمها لبكر بقيادة الحكم بن مخربة، وجاءت بكر والفافها عنزة والنمر بن قاسط[1] بقيادة مالك بن مسمع الجحدري.

واستعدت تميم وعليهم الاحنف بن قيس للمواجهة الثانية، واندلعت المواجهات مجدداً، وحاول أهل الخير من الطرفين تذكير الجميع بالإسلام وانه دين يعصم الدماء والاموال بين من يؤمن به، فكيف الحال اذن بين القبائل المتجاورة ومالها من حق الجيرة على بعضها!

واتفق الطرفين ان يكتب كل منهم اسماء قتلاهم، وكانت المشكلة في أن الاحنف رفض الاقرار بمسؤولية تميم في قتل مسعود بن عمرو زعيم الازد، اذ زعم الاحنف أن الخوارج هم من قتل مسعود والخوارج في ذلك الوقت هم اتباع نافع بن الأزرق.

إلّا أن مالك بن مسمع أصر على الحكم لمسعود بدية تعادل دية عشرة قتلى، طبعاً غير ديات بقية من قتل من ربيعة، فكان ان دفع التميميون الدية المغلظة، وانتهت المعركة في ذي القعدة سنة ٦٤هـ

---

(١) نقلنا العبارة كما جاءت في كتاب نقائض جرير والفرزدق لمؤلفه معمر بن المثنى التيمي البصري المتوفى سنة ٢٠٩هـ، والمؤلف هنا يصف عنزة وبني النمر بن قاسط بألفاف بكر في حين ان الصحيح انهم ابناء قبيلة واحدة وعنزة داخلة في بكر واليوم أصبح اسم عنزة هو الشائع على بني وائل، ولعل تعصبه لقبيلة تميم جعله يقول مقالته هذه، كما أن الصحيح ان النمر بن قاسط كانوا مدد تغلب بن وائل لمالك بن مسمع لمواجهة تميم وليسوا داخلين في بكر مثل عنزة بن ربيعة، وسنرى أن بني تغلب بن وائل سيستمدون بكر وعنزة في صراعهم القادم مع قبائل قيس عيلان في الجزيرة الفراتية.

ولا زال عبدالله بن الحارث أميراً على البصرة والكوفة حتى جاءت وفود عبدالله بن الزبير في نفس السنة وهم انس بن مالك الصحابي المعروف ومعه عمر بن عبيد الله بن معمر أميراً على البصرة. ويجدر بالذكر ان ابن الزبير لم يسطير بهذا على البصرة وقبائلها، حيث أنه لم يأخذ البيعة بعد من رؤساء القبائل مثل الاحنف بن قيس زعيم تميم ومالك بن مسمع زعيم بكر

وفي تلك الفترة ومع كثرة الأحزاب التي تدع لنفسها وتدعي انها الأولى بالخلافة تشتت زعماء القبائل العربية فيمن يبابعون ويهمنا بطون ربيعة هنا وموقفهم، وقد رأينا ان كل من قبيلتي بكر وعبد القيس لم يكن لأي منهما ميول لأحد كما يتضح من مواقفهم المتضاربة، حتى لأبن عمهم نجدة بن عامر الحنفي ألذي أستطاع في هذه الفترة ان ينشيء دولة له في البحرين رغم اظهار نجدة التعصب لربيعة، اما الجذم الآخر المهم من ربيعة وهم تغلب ومن معهم فقد بدأ منهم الميل لبني امية في دمشق، ولذلك بدأ فتيل صراعهم مع قبائل قيس عيلان في الجزيرة الفراتية والتي كانت مائلة لعبدالله بن الزبير، وكان زعيم قيس عيلان تلك الفترة هو زفر بن الحارث الكلابي ومقره قنسرين وهي من مدن الجزيرة، وسننتطرق لهذه الحروب لاحقاً بعد الاشارة إلى دولة نجدة بن عامر الحنفي في اليمامة والبحرين.

أخبار دولة نجدة بن عامر الحنفي في اليمامة والبحرين (٦١هـ - ٧٣هـ):

ثار نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق الحنفيان في اليمامة بعد مقتل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ٦١هـ، واستطاعوا ان يستقلون باليمامة مستغلين انشغال يزيد بن معاوية بمحاصرة عبدالله بن الزبير في مكة.

ثم حدث الاختلاف الفكري الذي اشرنا له بين كل من نافع ونجدة فبقي نجدة في اليمامة، بينما رحل نافع بن الأزرق إلى العراق حيث حاول الاستيلاء على البصرة وطرد بني تميم من هناك.

وأول اعمال نجدة التي قام بها هي اتخاذ بلدة ثاج العاصمة والمقر الرئيسي له، وقد أشرنا إلى أن نافع ونجدة كانوا يزورون عبدالله بن الزبير في مكة ويدافعون معه جيش يزيد، وقد ظن اغلب المراقبين لهذا الوضع ان نجدة ونافع سيبايعون ابن الزبير لا محالة ويدخلون في رايته.

في بداية الأمر كان أبو طالوت وأسمه سالم بن بن مطر المازني من بني شيبان[1] هو امير الجماعة التي يدخل فيها نجدة بن عامر، وكانت اول غزوة لهم بعد وفاة يزيد سنة ٦٣هـ هي قرية الخضارم والتي هي قاعدة اليمامة ذلك الوقت، وقد مر معنا أن معاوية بن أبي سفيان استولى عليها وجعلها للرقيق في سياسته المناوئة لقبيلة ربيعة.

غير أن الخوارج من بكر وبني حنيفة رأووا خلع أبي طالوت ومبايعة نجدة أميراً عليهم، وتم الأمر وأصبح نجدة زعيماً لهذه الدولة الخارجية الربعية الطابع، ومع نجد رموز من ربيعة أبرزهم عطية بن الأسود اليشكري، وأثبت نجدة انه اوسع نظراً وحكمةً من نافع بن الأزرق، حيث تورط الأخير بالمواجهة مع المهلب بن أبي صفرة الذي انتدبه اهل البصرة من تميم لقتاله وقتال الخوارج في العراق، وقد دخلت قبائل بكر وعنزة وعبد القيس تحت راية المهلب بعد الصلح الذي عقده مالك بن مسمع مع الاحنف بن قيس زعيم تميم.

واما نجدة فقد بدأ ينظم أمور دولته، وكانت البداية هي الاغارة

(١) بني مازن هم بطن من بكر دخلوا في بني حنيفة بعد حرب البسوس وقد أشرنا إلى هذا في الكلام عن بطون ربيعة وتداخلاتها مع بعضها، ولذلك تنسب بعض المصادر أبو طالوت إلى بني حنيفة رأساً وهو صحيح.

على قوافل الحجاز الذاهبة من والي العراق والتي كانت تتبع عبدالله بن الزبير ونهب ما فيها، ومنها ما حدث سنة ٦٤هـ عندما اغار نجدة ومعه ستين راكباً على قافلة قرب هجر لابن الزبير.

وقد خافت قبائل بني حنيفة ردة الفعل من افعال نجدة والتي كانت متوقعة من قبل ابن الزبير، وينقل لنا البلاذري في كتاب انساب الأشراف أن سراج بن مجاعة الحنفي ذهب إلى عبدالله بن الزبير ليأخذ لقومه أمانا ويؤكد له انهم بريئون من افعل نجدة ومن تبعهً، فقال له ابن الزبير: يا سراج ألم ترى ما صنع قومك؟! والله لأوجهن إليهم جيشاً، فقال: والله ما صنع هذا إلا حرورية[١].

لكن ابن الزبير لم يكن جتى ذلك الوقت يملك الامكانات الحقيقية للتصدي لمن هو مثل نجدة ومن يتبعه من ربيعة، فقد تقاطرت فرسان ربيعة من العرق للحاق بنجدة هذا تعصباً لقومهم ونكاية بقبائل قيس عيلان المسيطرة على نجد في تلك الحقبة ومن أهم فرسان ربيعة المساندين لنجدة: أبو مخنف الهزاني من عنزة، أبو سعدة العجلي، وحي بن وائل اليشكري، وغيرهم كثير، وكثر اتباع نجدة حتى أصبح دولته القوة الضاربة في جزيرة العرب.

وقرر الأزد في عمان والبحرين مبايعة نجدة أميراً، وحاولوا اقناع عبد القيس وقالوا لهم: انكم اقرب منا إلى نجدة وهو ابن عمكم فبايعوه، إلّا أن العبديين رفضوا ذلك واصطدموا بجيش نجدة في البحرين وهزمهم نجدة وسخر أحد شعراء الازد من عبد القيس بعد هزيمتهم:

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها   وما نفع نصحٍ قيل لا يتقبل

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري، وسراج هو ابن مجاعة الحنفي ألذي احتال على خالد بن الوليد بعد يوم اليمامة ومقتل مسيلمة الكذاب، وسراج هنا يقول حرورية نسبة لبلد حروراء وهي مكرز تجمع الخوارج الأول.

غير أن جماعة من عبد القيس تمكنوا من قتل ابن نجدة واحد قواده وهو مطرح بن نجدة واخوه طارق في بلدة الثوير قرب القطيف اليوم، وقال أحد شعراء عبد القيس:

إن تقتلونا بالقطيف فإننا قتلناكم يوم الثوير وصحصحا

وإن تقتلوا منا وكيعا وعاصما فإنا قتلنا طارقا والمطرحا

لكن هذا لم يغير من مجرى الأمور لأن نجدة سيطر على البلاد بكاملها.

الحرب بين نجدة وقبائل قيس عيلان في نجد:

وبعد أن شعرت قبائل قيس أن نجدة يميل إلى توسيع نفوذ قبيلته في نجد حتى قرروا الاغارة على بعض القرى التابعة لنجدة في محاولة لتحجيم الربعيين، فأغاروا على ذي المجاز وهي قرية في الطريق بين البصرة ومكة المكرمة[1]، لكن نجدة خرج إليهم من البحرين سنة ٦٦هـ وهزمهم هزيمة شنيعة رغم استماتتهم في القتال، وقال أحد شعراء قيس يوم عبدالله بن الزبير لسكوته على هذا الوضع الذي عاشت به بني حنيفة:

على أي شيء أنت بالركن واقفٌ مقيم وقد سارت بهن الركائب

ولا شيء إلا الموت إذ برزت لنا حنيفة أرباب السيوف القواضب

وخاف نجدة ان يستولي ابن الزبير على اليمامة، وعين عليها عمارة بن سلمى الحنفي، بينا استقر هو في ثأج عاصمة دولته.

نجدة يهزم جيش ابن الزبير:

في سنة ٦٩هـ قرر ابن الزبير قتال نجدة، وضع يده على اليمامة

(١) وقيل انها في اليمامة ويطلق عليها اليوم حوطة بني تميم وقذكرها الهمداني في صفة جزيرة العرب وان من قرى بني هزان من عنزة والقول الأول أقرب إلى الصحة.

والبحرين والعراق، فوجه اخوه مصعب إلى العراق، ووجه جيشاً إلى القطيف لقتال نجدة بقيادة عبدالله بن عمير الليثي الملقب بالأعور.

ورغم ان نجدة اسثار الحمية الربعية لقبائل عبد القيس إلّا أنها لم تتدخل، واضطر لمواجهة جيش ابن الزبير بمن معه من قبائل بني حنيفة وبكر وغيرهم ممن يحملون الفكر الخارجي، وانتصر نجدة على هذا الجيش مما زاده قوة ونفوذاً.

استثمر نجدة هذا الانتصار الكبير فوجه عطية بن الأسود اليشكري لبسط نفوذه على عمان، ثم امر نجد البوادي في كل مكان أن تأتيه بالزكاة باعتبار الخليفة الشرعي للمسلمين، ثم سيطر على كاظمة (الكويت) وبها تميم وفرض الصدقة عليهم، وبلغت دولة نجدة بن عامر اوج عظمتها عندما بايعه اهل اليمن وأصبحت دولته مترامية الاطراف فطمع نجدة بع ذلك في حكم الحجاز حيث الحرمين الشريفين.

حاول نجدة أن يهجم على المدينة المنورة، ثم عدل عنها إلى الطائف واختطف أحد النساء هناك، وكتب عبدالله بن الزبير رسالة تهديد شديدة اللهجة إلى مسيلمة:

والله لئن أحدثت فيها حدثاً لأطأن بلادك وطأة لا يبقي بها بكري!

لكن نجدة حصل مع ذلك على بيعة اهل اطئف وهم قبيلة ثقيف، وأعطاهم نجدة حكماً ذاتيًّا للطائف وكان زعيمهم عروة بن مسعود الثقفي.

وأغار على بني هلال وبني نمير اهم بطون بني عامر من قيس عيلان، واخذ منهم الاموال والصدقات.

ثم سيطر نجدة على سراة الازد جنوب الطائف وعين عليها الحازوق الحنفي أميراً من قبله، وأصبح السيد المهاب المطاع في كل انحاء الجزيرة العربية، ولسنا مبالغين ان قلنا ان دولة نجدة بن عامر الحنفي

كانت حتى ذلك الوقت تعتبر في نفس المستوى من الشرعية التي تتمع بها دولة ابن الزبير في الحجاز ودولة مروان بن الحكم في الشام، وقبل تناول نهاية دولة نجدة بن عامر في جزيرة العرب يتوجب علينا تناول احوال بقية بطون ربيعة في العراق لأن للأحداث صلة ببعضها.

أحوال بكر وتغلب ايام دولة نجدة بن عامر:

في تلك الفترة كانت قبائل بكر وتغلب تنظر باعجاب لما فعله نجدة بن عامر الحنفي، وخاصة قتاله لبطون قيس عيلان بنو كعب وهلال ونمير، وسب أن أشرنا إلى عدداً كبير من فرسان بكر وعنزة في العراق سار إلى ثأج وانضم إلى نجدة ودولته الناشئة.

وقد امتدت جذوة النزاع بين بني حنيفة وقيس عيلان في نجد إلى العراق حيث تغلب وبكر وعنزة، وقد بدأت بوادر الحرب بين تغلب وقيس عيلان العراق بسبب ميل قبائل قيس إلى عبدالله بن الزبير، وهزيمة قبائلهم امام قوات مروان بن الحكم ومن معه من قبائل كلب ولخم وجذام، واكن عمير بن حباب وزفر بم الحارث قد أكثروا الغارات على قبائل كلب الموالية لمروان، ولعلمهم ان قبيلة تغلب - وهم نصارى - مائلين إلى مروان فقد كان ابناء قبيلة قيس يسخرون كثيراً من بني تغلب مما اوجد الاحتقان بين الطرفين وهاجت تغلب وبدأت بوادر الصراع في الجزيرة الفراتية سنة ٦٨هـ.

ولكن هذا العامل ساقه المؤرخ ابن الأثير لا نعتقد به كثيراً ، ولعل اهم العوامل المقنعة لهذه الحرب المستعرة بين تغلب وقيس هي عاملين:

الأول- هو الصراع بين نجدة ومن معه من ربيع في الجزيرة العربية، وهذا الصراع نظرت له قبائل ربيعة وخاصة بكر ومن معها بالاعجاب حيث رأت في نجدة ممثلاً قويًّا لقبائل ربيعة في الصراع على لقب الخلافة وامارة المؤمنين.

الثاني- هو أن كل من مروان بن الحكم الحاكم في الشام وعبدالله بن الزبير الحاكم في الحجاز ذلك الوقت لم يرسلا جيوشاً من قبلهما للعراق، بل اكتفوا بأخذ موالاة زعماء القبائل بشكل شكلي ومبطن، وقد سبق وأن عرفنا ميول قبائل قيس إلى ابن الزبير، وميول تغلب إلى مروان، ولا ريب أن كل زعيم من هذين الزعيمين اخذ يحرض الطرفين - قيس وتغلب - على بعضهما حتى اندلع الصراع بين الطرفين.

فهذه العوامل هي التي نراها جديرة بأن تكون السبب في هذه الحرب القبلية العنيفة، ونرى كذلك أن قبائل بكر ومن يتبعها من ربيعة لم تكن بذلك الوقت إلّا محايدة بين جميع الاحزاب المتصارعة على الخلافة، ولكن قبيلة بكر لم تستطع - رغم جهود زعيمها مالك بن مسمع - أن تحتفظ بالحياد وتجاهل الصراعات المحيطة، وقد رأينا كيف تعرضت قبائل بكر وعنزة إلى الحرب العنيفة في البصرة بعد محالفتهم للأزد، وسنرى انهم دخلوا مع أبناء عمهم تغلب في حربهم هذه ضد قيس.

بداية الحرب بين قيس وتغلب في الجزيرة الفراتية:

كانت أهم بطون قيس عيلان التي في الجزيرة هم بنو كلاب وأميرهم زفر بن الحارث، وبنو سليم ونمير وبقية بطون عامر بقيادة عمير بن حباب وهم من ابتدأ الصراع مع تغلب ربيعة.

وفي ذلك الوقت أغارت قافلة قيسية على أمرأة من تغلب وسلبت اموالها، مما هيج بني تغلب وحليفتهم النمر بن قاسط فأغاروا على قيس في بلدة الحريش في الجزيرة، وقد أجج الأخطل[1] بشعره ونقده اللاذع هذا الصراع اذ قال بعد غزوة الحريش:

فإن تسألونا بالحريش فإنّنا بلينا بنوكٍ منهم وفجور

(١) الأخطل اسمه غياث بن غوث من أهم شعراء العرب تلك الفترة ويطلق عليه مع كل =

وتطور النزاع، وبدأت قيس بحشد فرسانها وابنائها في الجزيرة ومحاربة تغلب.

يوم ماكسين:

وفي هذا اليوم تقاتلت تغلب وقيس قتالاً شديد وقتل عدد كبير من الطرفين دون أي طائل لأي منهم، إلّا أن ما ظهر هو انتصار قيس حيث أن قائد بني تغلب وهو شعيث بن مليل قد قتل في تلك المعركة، ولما جاءت انباء النتيجة إلى زفر بن حارث الكلابي أخذ يلوم تقاعس قومه قيس لمناصرة بني سليم وقال: شغلت قيس بغزل نسائها عن هؤلاء النصارى!

يوم الثرثار الأول سنة ٦٩هـ:

خرج مالك بن مسمع وقبائله بكر وعنزة من صمتها وقرروا مساندة ابناء عمهم من تغلب ضد قبائل قيس عيلان، وقد اوفد بنو تغلب والنمر وفدا لمالك بن مسمع يحثونه على مساندتهم بمن معه من ربيعة ولما جاء الوفد إلى مالك بن مسمع قال لهم:

ما أحسبكم إلا من نبيط تكريت، ولو كنتم من بني تغلب لدافعتم عن أنفسكم وحرمكم!

فأجابوه: إنا حي فينا ما قد علمت من النصرانية، ومضر مضر وأي السلطانين غلب فهو مع قيس(١).

فأجابهم مالك بن مسمع: اذهبوا فإن أمدهم السلطان بفارس فلكم

= من جرير والفردق شعراء المثلث الاموي وأشتهر الاخطل بهجائه اللاذع ولذلك كان لشعره دور كبير في تأجيج الصراع الربعي مع قبائل قيس.

(١) يقصدون بقولهم مضر مضر ان كل من عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم هم من مضر وهم أقرب إلى التعصب لقبيلة قيس عيلان.

علي فارسان، وإن أمدهم برجل فلكم رجلان، إن السلطان اليوم لفي شغل عنكم وعنهم.

فلما علم عمير بن حباب ان قبائل بكر تساند تغلب وان هذا يعني اجتماع ربيعة كلها عليه أخذ يثير حمية قبائل قيس عيلان واخوانها في مضر بقصيدة منها قوله:

أيَّا أخوينا من تميمٍ هديتما ومن أسدٍ هل تسمعان المناديا

ألم تعلما إذ جاء بكر بن وائلٍ وتغلب ألفافاً تهزّ العواليا

ولكن تميم كانت منشغلة بقتال الخوارج الازارقة وبيعتها المضمنة لأبن الزبير والمهلب بن أبي صفرة، وبطون قيس الأخرى مثل بني كلاب وقائدها زفر بن الحارث كانت منشغلة مع عبد الملك بن مروان الذي خلف مروان في دمشق عند وفاة الأخير، لذلك فإن عمير خاب أمله واجتمعت عليه ربيعة فقال:

أناديهم وقد خذلت كلاب وحولي من ربيعة كالجبال

أقاتلهم بحي بني سليمٍ ويعصر كالمصاعيب النهال

لكن الأمور تغيرت بدخول سنة ٧٠هـ وتغيرت معها موازين القوى لصالح قيس عيلان، اذ ان بكر بن وائل وبقيادة مالك بن مسمع وجدوا انفسهم مضطرين لمواجهة عبدالله بن الزبير في الجفرة، مما يعني تصدع جبهة تغلب بن وائل، إضافة إلى أن وقاة مروان بن الحكم ازاحت الضغط عن زفر بن الحارث وقومه بنو كلاب فانضموا إلى عمير بن الحباب.

يوم الجفرة وهزيمة بكر بن وائل سنة٧٠هـ:

في اثناء القتال الدائر بين ربيعة وقيس في الجزيرة وعند توالي عبد الملك بن مروان الولاية في دمشق، اشار عليه أحد مشتشاريه وهو

خالد بن عبدالله بن أسيد أن يوجهه إلى البصرة لأخذ بيعة اهل العراق، وبالطبع كان عبد الملك يستثمر حالة الفوضى السياسية وعدم وجود بيعة صريحة لاهل العراق تجاه أحد سواء ابن الزبير في مكة أو نجدة بن عامر في ثأج، إضافة إلى القتال الدائر بين ربيعة وقيس في الجزيرة.

وتم تنفيذ ماتفق عليه الطرفين (عبد الملك وخالد بن عبدالله) فتوجه الأخير إلى البصر ونزلها مستخفياً، ودخل على بيت من بيوت تميم وصاحبه عمرو بن أصمع وهو من اشد الموالين لمصعب بن الزبير شقيق عبدالله، وشرح له الأمر وانه يريد ان ياخذ البيعة من اهل العراق لعبد الملك بن مروان.

رفض عمرو بن اصمع رفضاً قاطعاً ماذكره خالد بن عبدالله ووجه بطرده وانه في امان إلى أن يخرج من بيته، فاسقط في يد خالد بن عبدالله ولم يدري ماذا سيفعل الآن، فلم يجد إلّا أن يدخل على بيت مالك بن مسمع المشغول كما اسلفنا بحرب قيس عيلان مع ابناء عمه تغلب، ولأن مالك بن مسمع كان مشهورا بحماية الدخيل حيث مر معنا انه كان على استعداد لمقاتلة علي بن أبي طالب حماية لمروان بن الحكم، لذلك نجده قبل اجارة خالد بن عبدالله وادخاله في حمايته ومواجهة جيش مصعب بن الزبير.

علم مالك بن مسمع انه مضطر للمواجهة لا محالة، فاستنفر قومه بكر وحلفائه الازد، وذهبوا بدخيلهم إلى منطقة تسمى الجفرة، وارسل مصعب بن الزبير جيشاً إليهم بقيادة زحر بن قيس الجعفي، وعلم عبد الملك بن مروان بفشل خطة خالد واجارة بكر بن وائل له، فارسل بدوره مددا لهم وبدأت المواجهة، فاقتتلوا أربعة وعشرين يوماً وأصيبت عين مالك بن مسمع وضجر من الحرب ومشت بينهم السفراء فاصطلحوا على أن يخرج خالد من البصرة، فأخرجه مالك[1].

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير حوادث سنة ٧٠هـ.

وهزيمة بكر بن وائل في هذه المعركة التي لم يكن لهم فيها اية مصلحة سوى التقاليد العربية القاضية بضرورة حماية الدخيل، هذه الهزيمة اجبرت قبائل بكر على الرحيل إلى البحرين حيث دولة ابن عمهم نجدة بن عامر الحنفي، وهدم بيت مالك بن مسمع في البصرة ونهب ما فيه.

وقد احسن نجدة استقبال قومه وبني جلدته، فنزلت عنزة وقيس بن ثعلبة في ثأج، واعطى نجدة مالك بن مسمع اموالاً مما سبب في نقمة الخوارج عليه كما سنرى.

نهاية نجدة بن عامر الحنفي:

كان عبد الملك يعرف النتيجة الخطير لهزيمة بكر ورحيلها عن العراق نحو ثأج، اذ جعلت قبيلة تغلب - الموالية لمروان - تنكشف امام قيس عيلان في الجزيرة الفراتية، ولذلك قرر عبد الملك القيام بخطوتين:

الأولى هي اشغال جبهة قيس في الجزيرة عن طريق ارسال جيش لقتال بني كلاب لتخفيف الضغط على تغلب.

و**الثانية** هي مراسلة نجدة بن عامر وموادعته ومحاولة استمالته إلى صفه، واقراره على ماتحت يده من اقاليم ان هو بايعه على الخلافة.

ويبدو أن عبد الملك رأى في ما حدث لبكر بن وائل قد يجمع بينه وبين نجدة بن عامر، وقد رد نجدة رسالة عبد الملك بكل ادب وحنكة سياسية، هذه السياسة لم تعجب عدداً كبيراً من اتباع نجدة على رأسهم عطية بن الاسود، حيث رأوا فيها تنازلاً عن المباديء الثورية للخوارج في تكفير الحكام في زمنهم وعلى رأسهم بنو امية في دمشق، وابن زبير في مكة، ومن يواليهم أو يداهنهم أو يسكت عن جورهم من زعماء القبائل مثل مالك بن مسمع، وكان عطية يقول عن نجدة بحسب ما نقل المؤرخ ابن الاثير: ما كاتبه عبد الملك حتى علم منه دهاناً في الدين!

ومن الأمور الهامة التي نقم الخوارج على نجدة هي استقباله لمالك بن مسمع ومن معه من ربيعة وهم قادمين من العراق بعد أن وجه عبدالله الزبير جيشاً وهزمهم هناك كما ذكرنا، وكان مالك بن مسمع هو زعيم ربيعة الكبير في زمنه والخوارج رأوا في استقبال نجدة لمسمع تجسيداً للانتماء والتعصب القبلي المناقض للانتماء الديني ثم تتباعت مشاعر الغضب ضد نجدة فجمع أبو فديك من بني قيس بت ثعلبة من اللهازم جمعا من الخوارج واجمعوا على خلع نجدة عن ولايته التي اصبحت غير شرعية وتم خلع نجدة ودانت الأمور لابو فديك وهرب نجدة وتخفى باحدى قرى حجر اليمامة، غير أن اتباع أبو فديك تمكنوا من القاء القبض عليه وقتله ومبايعة أبو فديك حاكماً. وبقتل نجدة بدأت دولته تضعف لسقوطها بيد ثلة من المتعصبين وضيقي النظرة، حيث يبدو أن وصول نجدة إلى الحكم وتجربته في قيادة دولة قد علمته مدى الخطأ الكبير وما يمكن ان يجنيه التطرف ضد أي دولة يراد لها الاستمرار والبقاء.

عودة إلى صراع تغلب وائل مع قيس عيلان في الجزيرة:

رأينا قبل تكملة قصة الصراع التغلبي القيسي في الجزيرة أن نتناول يوم الجفرة وما حدث لقبائل بكر وادى إلى رحيلها إلى نجد والاحتماء بدولة نجدة بن عامر، وقد اشرنا إلى قيام عبد الملك بن مروان بإرسال حملة ضد زفر بن حارث رغبةٍ في تشتيت قبيلة قيس ومنعها من الاجتماع على تغلب التي فقدت ابناء عمها بكر.

يوم الثرثار الثاني سنة ٧٠هـ:

وهو اليوم الذي انضم زفر بن الحارث وقموه بنو كلاب إلى عمير زعيم قيس، مستغلين عدم وجود بكر بن وائل، وكان زعيم تغلب في هذا اليوم هوبر النمري من النمر بن قاسط - وهم كما قلنا في عداد تغلب -

لكن قيام مروان بغزو بعض بطون بني عامر ادى إلى أنتصار تغلب وميل الكفة لصالحهم بعد انحياز الكثير من بني عامر إلى الدفاع عن زفر بن الحارث.

يوم الفدين:

اغار عمير بن الحباب على قبيلة تغلب والنمر قرب قرية الفدين في الجزيرة الفراتية، بينما كانت اغلب بطون قيس في انشغالها مع عبد الملك بقرقيسيا، وبكر بن وائل وعنزة في حماية نجدة بالبحرين.

ورغم أن غارة عمير زعيم قيس على تغلب لم تأتي بنتائج حاسمة ضد تغلب في الفدين، إلّا أن عميراً نجح في قتل عدد من كبار فرسان تغلب والنمر بن قاسط، ثم اخذ يسخر منهم ومن ابناء عمهم بكر الذين انزاحوا إلى نجدة وتركوهم:

لو تسأل الأرض الفضاء بأمركم   شهد الفدين بهلككم والصوّر
كذبتك شيبان الأخوّة وانّفت   أسيافكم بكم سدوس ويشكر

يوم السكير:

السكير بلدة على نهر الخابور في الجزيرة الفراتية، ورااينا كيف انشغلت بكر بقتال مصعب بن الزبير، وانشغال بني كلاب بقتال عبد الملك، فيغير عمير بن الحباب - مرة أخرى - على تغلب والنمر في السكير ويهزمهم وكان فارس تغلب اسمه عمير بن جندل قد هرب فقال عمير شامتا فيه:

وأفلتنا يوم السكير ابن جندلٍ   على سابحٍ غوج اللبان مثابر
ونحن كررنا الخيل قبّاً شوازبا   دقاق الهوادي داميات الدوائر

يوم المعارك:

حول الموصل، حيث اقتتلت قيس وتغلب وانهزمت تغلب ايضا. ونلاحظ تتابع الهزائم على تغلب منذ هزيمة بكر على يد مصعب بن الزبير في يوم الجفرة، وتبع يوم المعارك عدة مناوشات بين الطرفين في انحاء متفرقة من الجزيرة الفراتية.

يوم الشرعبية:

الشرعبية من بلاد ربيعة في الجزيرة، والشراعبة بطن لا زال معروفا في قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة، وتم القتال بين تغلب وقيس في يوم الشرعبية على ذات المنوال، ولم يشارك زفر بن الحارث في هذا اليوم لانشغاله في الحرب ضد عبد الملك بن مروان، لكن تغلب والنمر انتصروا في هذا اليوم بقيادة ابن هوبر النمري ومما قال الاخطل التغلبي يفخر:

ولقد بكى الجحّاف لمّا أوقعت   بالشرعبيّة إذ رأى الأهوالا

يوم البليخ:

وهو من اعنف الايام بين الطرفين الربعي والقيسي، وجاءت نتائجه ضد تغلب والنمر للأسف، قال البلاذري في كتاب انساب الاشراف:

اجتمعت تغلب وسارت إلى البليخ وهناك عمير والقيسية، والبليخ نهر بين الرقتين، فقالوا، وعلى قيس عمير، وعلى تغلب ابن هوبر، فهزمت تغلب وقتلت وبقرت بطون نساء من نسائهم كما فعلوا يوم الثرثار، وفي ذلك يقول ابن الصفار:

زرق الرماح ووقع كلّ مهنّدٍ   زلزلن قلبك بالبليخ فزالا

وأنشدني أبو الوليد الكلابي لبعضهم:

تسامت جموع بني تغلبٍ   إليـنا فكنّا عليهم وبالا
بقّرنا النساء غداة البليخ   إذا جئتنا وقتلنا الرجالا

يوم الحشاك ومقتل زعيم قيس عيلان:

انتصر عبد الملك بن مروان على زفر بن الحارث وقومه بنو كلاب، مما اضعف جبهة قبائل قيس التي تقاتل تغلب بقيادة عمير بن الحباب، وانتهزت تغلب والنمر الفرصة للانتقام من من قيس، وجمعوا قومهم بادية وحاضرة من الهل الجزيرة وساروا إلى قيس عيلان قرب الشرعبية في منطقة يقال لها الحشاك.

تناوخ الطرفان وحمي وطيس القتال لثلاثة ايام متتابعة، واستمات التغلبيون في القتال وقائدهم ابن هوبر النمري، وبعد مصالح مؤقتة مع عبد الملك انضك زفر إلى قومه قيس، إلّا أنه وصل في الوقت المتاخر فانهزمت قيس، وقتل عمير بن الحباب، وسخر الاخطل من زفر بن حارث:

لعمر أبيك يا زفر ابن ليلى   لقد أنجاك جدّ بني معاز[1]
وركضك غير منقلبٍ إلينا   كأنّك ممسكٌ بجناح بازي

وقد اثبت الربعيون في هذا اليوم شجاعة منقطعة النظير، حتى ان عمير بن حباب قبل مقتله قد مدحهم رغم انهم اعداءه وهذه من عادات العرب في الاعتراف بفضائل بعضهم:

وإنّا لقينا من ربيعة معشراً   يقودون خيلاً للمنيّة ضمّرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها   على أنّهم كانوا على الموت أصبرا

(١) الصحيح انها (معاذ) وهو أحد اجداد زفر بن الحارث الكلابي، وفي البيت اقواء على مايعرفه اهل الاشعار.

وقال أحد شعراء قيس يرثي عمير بن الحباب ويقول ان تغلب لم تقتله الا بعد أن افنى اكثرهم:

فإن تك تغلبٌ قتلت عميراً ورهطاً من غنيٍ في الحراب

فقد أفنى بني جشم بن بكرٍ ونمرهم فوارس من كلاب

وقد أشرنا إلى أن زفر بن الحارث قد توصل إلى تسوية مؤقتة مع عبد الكل بن مروان، اعطى زفر بموجبها حرية البيعة لمن شاء من قومه لمروان، بينما اعطاه مروان حرية ان لا يبايعه لأن زفر بن الحارث كان قد بايع ابن زبير ولا يسعه - وفقاً للشرع والتقاليد - أو يخلع البيعة إلّا بموافقة ابن الزبير نفسه.

هذه التسوية بين زفر عبد الملك كان لها تأثيرها على تغلب والنمر، فهم لم يتوقعوا ان يتصالح زفر مع الامويين، لكن عبد الملك سعى أيضاً إلى أن ينتهي الصراع بين قيس وتغلب كما انتهى صراعه هو مع قيس، ورغم ذلك غضب الاخطال التغلبي الشاعر من تصرف عبد الملك فكان مما قاله:

بني أميّة قد ناضلت دونكم أبناء قومٍ هم آووا وهم نصروا

وقيس عيلان حتّى أقبلوا رقصاً فبايعوا لك قسراً بعد ما قهروا

ضجّوا من الحرب إذ عضّت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وبهذا انتهت الحرب التي يظهر واضحاً دور الأمويين فيها، فمجرد تصالح عد الملك بن مروان مع زفر بن الحارث انتهت الحرب مع تغلب والنمر، وقد اصبح زفر بعد ذلك زعيم قبائل قيس عيلان.

وبعد السلام الذي حل في الجزيرة الفراتية، اصبحت المنطقة الشمالية بكاملها تدين للامويين في دمشق، وفقد عبدالله بن الزبير انصاره في العراق والشام، بينما انكف أبو فيدك الشيباني - خليفة نجدة في ثأج - على قومه بكر بن وائل في البحرين واليمامة، وبقي على عبد الملك

بن مروان اخضاع كل من الزعيمين أبو فديك (الذي خلف نجدة) وابن الزبير الذي لا زال يقاوم في مكة، وسنوضح بشيء من التفصيل كيف قضى الامويين على أبي فديك ولن تعرض إلى تفاصيل القضاء على ابن الزبير لأنها خارجة عن موضوعنا وهو تاريخ ربيعة.

نهاية أبو فديك زعيم الخوارج سنة ٧٣هـ:

لما استقرت الأمور لعبد الملك بن مروان في العراق والشام، قرر انفاذ حملة عسكرية إلى اليمامة والبحرين وضمها للدولة الاموية، وكانت الحملة بقيادة عمر بن عبيد الله بن معمر احدا الزعماء البارزين في العراق، وقد نجحت الحملة نجاحاً باهراً وقتل أبو فديك ودانت بلاده لبني امية.

الاستقرار السياسي بعد القضاء على اغلب القوى السياسية المناهضة لبني امية:

وبدا يلوح في الافق الاستقرار السياسي، وتكرست الخلافة الآن بيد بني مروان، اذ تم القضاء على ابن الزبير في نفس السنة بعد أن قاد الحجاج بن يوسف الثقفي الحملة ضده.

اما مالك بن مسمع فقد عاد من نجد إلى العراق بقبائله وهم عنزة وبقية بطون بكر بن وائل، واستقروا بعين التمر وهي البلد التي فيها مواليهم والقائمين فيها على املاكهم من بساتين ومزارع، وفي سنة ٧٤هـ توفي مالك بن مسمع الزعيم الكبير لبكر بن وائل، وقد بلغ من اهمية هذا الرجل ان ينعي الفرزدق الشاعر ابنه ويشير إلى مالك هذا بقوله:

وقد مات بسطامُ بن قيسِ بن خالد   ومات أبو غسانَ شيخُ اللهازمِ

وكان مالك يلقب بـ (ابو غسان) واللهازم كما قلنا سابقاً هم عنزة وتيم اللات وقيس بن ثعلبة وعجل بن لجيم ومن تلهزم بهم من بني حنيفة.

وقد كانت السياسية الأموية قائمة على تهجير الربعيين من نجد وتوطين بطون مضر فيها وخاصة قيس عيلان، وقد يكون دافعهم في هذا هو الرغبة في بقاء الجمهرة من ربيعة في مناطق الاحداث وخاصة في العراق حيث تميل قبائل قيس هناك إلى مناهضة بني امية، بسبب الدعوات المستمرة من قبل ائمة الشيعة العلويين والخوارج الذين ينكرون الحق الأموي في الخلافة، وحاجة الامويين إلى قوى قبيلة موازنة للقبائل المائلة ضدهم.

ولكن علاقة ربيعة وقبائلها مع السلطات الاموية كانت على خير مايرام بشكل عام، لا سيما بعد تولية الحجاج بن يوسف على العراق من قبل عبد الملك، ووزعت لهم الاراضي في الديار التي عرفت اسم (ديار ربيعة) قرب الموصل إلى عين التمر جنوباً، وقرب الحجاج زعمائهم واشرافهم وعلى راسهم مالك بن مسمع امير بكر بن وائل، والشاعر المعروف عمران بن حصان العنزي[1]، الذي كان له دور خطير في محاولة تبديل ولاية العهد من عبد العزيز بن مروان شقيق عبد الملك إلى سليمان بن عبد الملك.

وملخص القصة ان الحجاج بن يوسف كان على علاقة غير جيدة مع ولي العهد الأموي عبد العزيز بن مروان شقيق عبد الملك، فجمع اهل قبيلة بكر بن وائل ووضح لهم ان من مصلحة ربيعة ومصلحته ومصلحة اهل العراق عدم البقاء لعبد العزيز في الخلافة، ولعل هذا مايفسر قول أعشى ربيعة يحث فيه عبد الملك على بيعة الوليد وخلع أخيه عبد العزيز:

(١) سبق وأن قام الشاعر عمران العنزي ان قام بلعب نفس الدور عندما اختلف زعماء بكر على الرئاسة في عهد يزيد بن معاوية حيث حكم بها لأشيم بن شقيق السدوسي وهاهو يتدخل الآن في أمر الخلافة.

ابـنـك أولـى بـمـلـك والـده   وعـمـه إن عـصـاك مـطـرح
ورثت عثمان وابن حرب ومر   وان وكـل لـلّـه قـد نـصـحـوا
فعش حميداً واعمل بسنتهم   تكن بخير وأكدح كما كدحوا

ثم اوفد الحجاج وفداً من اهل العراق برئاسة عمران العنزي إلى دمشق، ولما وصل الوفد إلى عبد الملك خاطبه عمران العنزي بقصيدة جريئة:

أمير المؤمنين إليك نهدي   على النأي التحية والسلاما
أجبني في بنيك يكن جوابي   لـهـم أكـرومـة ولـنـا قـوامـا
فـلـو أن الـولـيـد أطـاع فـيـه   جعلت له الخلافة والزماما
شبـيـهـك حـول قـبّـتـه قـريـش   به يستمطر الناس الغماما
ومثلك في التقى لم يصب يوما   لدن خلع القلائد والخداما
فـإن تـؤثـر أخـاك بـهـا فـإنـا   وجدك ما نطيق لها اتهاما
ولـكـنـا نـحـاذر مـن بـنـيـه   بني العلات إن نسقى السّماما
ونخشى إن جعلت الملك فيهم   سحاباً أن يكون لها جهاما

فقال عبد الملك: إنه عبد العزيز يا عمران!

فقال عمران: احتل له يا أمير المؤمنين!

ومن الواضح ميل عبد الملك لأن يخلفه ابنه الوليد، بدلاً من اخيه عبد العزيز، وخاصة أن أهل الشام من قبائل لخم وجذام وكلب كانت مائلة إلى عبد العزيز، ومع هذا فقد تدخلت القدرة الألهية وانهت الفتنة في مهدها، اذ توفى الله عبد العزيز وفاةً طبيعية سنة ٨٤هـ، والله اعلم ماذا كان سيحدث لو أن عبد الملك عزل أخيه واستجاب لعمران العنزي!

ربيعة في عصر الاستقرار الاموي (٧٥هـ - ٩٠هـ)

لقد زالت اغلب القوى السياسية المناهضة للحكم الاموي بعد القضاء على دولة نجدة بن عامر وعبدالله بن الزبير، عدا قليل من عصابات الخوارج على الاطراف، وسبق ان ذكرنا انه في هذا العصر بدأت تتبلور لربيعة ديارها الممتدة من عين التمر قرب البصرة إلى الموصل شمالاً، مقابل تقلص ملموس لبطون ربيعة في نجد لحلول قبائل أخرى هناك.

وفي هذه الفترة التي ساد فيه الاستقرار برز بوضوح اهمية الشعر والغناء، خاصة من شعراء المثلث الاموي (جرير والفرزدق والاخطل) وبدأوا يتذاكرون مفاخرهم ومفاخر قبائلهم في الايام الماضية من الجاهلية وحتى العصر الذي يعيشونه.

وقد نجح الخوارج - رغم ضعفهم واختلافهم - في استمالة عدد من بادية ربيعة في الموصل وتوضيفهم، ومن ابرز هؤلاء شبيب الشيباني الخارجي، وهو اشرس واشهر الخوارج الذين ظهروا في هذه الفترة واعلنوا العصيان ضد بني امية، ولأن ثورة شبيب هذا ذات علاقة بتاريخ ربيعة عموماً فإننا نرى ان من الضرورة القاء النظر لأن فيه الكثير من الدلالات التاريخية الهامة.

أخبار ثورة شبيب الشيباني سنة ٧٦هـ

كان أحد بني تميم - وهو صالح بن مسرح - من الذين يرون عدم شرعية الحكم الاموي في ذلك العهد، ويرى انهم - أي بني امية - ائمة جور وظلم، وكان صالح يقيم دعواه في بلاد ربيعة فيسمع دروسه وخطبه الكثير منهم، ولاتختلف مدرسة صالح كثيراً عن بقية مدارس من سبقه من الخوارج منذ زمن علي بن أبي طالب، فالقاسم المشترك بين جميع هذه المدارس هو تكفير الولاة والحكام وان اختلفوا ببعض التفاصيل.

أحد هؤلاء الذي تبعوا صالح بن مسرح التميمي هو شبيب بن يزيد الشيباني المكنى بـ (ابي الصحاري)[1]، وقد اتفق مع صالح على الخروج المسلح في سنة ٧٦هـ، الان ان الحجاج ارسل لهم جيشا تمكن من هزيمتهم وجرح صالح وتوفي في نفس السنة في منطقة يقال له جلولاء في بلاد ربيعة.

لكن شبيب تمكن من جمع بقية فلول اتباع صالح بن مسرح، وبايعوه كخليفة لصالح المذكور وبتوليه مكان صالح اصبح لحركته شأن آخر.

كان شبيب مقيماً لدى عنزة حول الموصل، وعنزة كما قلنا كانوا جزءاً من بكر تلك الحقبة، كما ان ام شبيب ذاته من عنزة.

وكان مع شبيب المحلل بن وائل اليشكري، واخوه مصاد بن يزيد الشيباني، وقد دعا شبيب كافة الخوارج إلى القوف معه ضد السلطات الاموية، وابرزهم سلامة بن سنان الشيباني الذي كان على عداء مع عنزة رغم انهم اخواله وابناء عمه.

شروط سلامة بن سنان للانضمام لشبيب:

كان سلامة بن سنان قد خرج قبل ثورة صالح بن مسرح، ولجأ إلى ديار عنزة حول الموصل قاعدة ربيعة، ولكن عنزة اختلفوا فيما بينهم على مناصرة سلامة بين قائلين بمناصرته كونه ابن لهم، وبين قائلين بوجوب ابلاغ السلطات عنه وعن الخوارج الذين معه.

وأجمعت عنزة على مقاتلة اتباع سلامة ما عدا بطن يقل لهم (بنو نصر) وهم اخوال سلامة، فهزم سلامة واتباعه وقتلوا إلّا أنه نجا بنفسه مما جعله يعاتب اخواله بقوله:

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني.

وما خلت أخوال الفتى يسلمونه   لوقع السلاح قبل ما فعلت نصر

ونتيجة لهذا وبعد ثورة شبيب اشترط سلامة بن سنان على شبيب ان يعطيه ثلاثين فارساً لغزو عنزة وقتالهم والانتقام منهم، وإن ضمن له شبيب عدم التدخل فإنه سينضم إليه.

وافق شبيب على شرط سلامة بن سنان، وانطلق الأخير إلى عنزة حول حرة انقيا قرب الموصل، وفاجأهم وقتل منهم عدداً كبيراً بما فيهم ابن خالته، ثم انضم بعد ذلك لحركة شبيب وبايعه على الموت.

ارعب ما فعله سلامة وبتواطوء من شبيب بقية بطون بكر وخاصة شيبان، ففروا ومعهم عنزة وبني يشكر إلى الجبال خوفاً من اجبار شبيب لهم على بيعته، ثم نزلوا في منطقة يقال له (دير خرزاد) في ديار ربيعة.

حاصر شبيب قومه بكر وهم نحو ثلاثة آلاف على رواية الطبري المؤرخ، ومع شبيب سبعين رجلاً من اشجع وافتك الخوارج، وكان هدف شبيب فيما يبدو ليس قتال قومه، بل انه يريد ان يأخذ امه فقط، وقد تمكن شبيب من ذلك بعدما قتل عدد كبير من قومه.

تطورت حركة شبيب بعد هذا، وهزم أكثر الجنود الذي بعثوا لقتاله من قبل الحجاج بن يوسف امير العراق لذلك العهد، ويبدو أن السلطات الاموية قد استهانت بشبيب حتى استفحل امره وكثر اتباعه وتوالت غنائمه من الانتصارات.

طمع شبيب فقام بالاغارة على الكوفة احدى اهم مدن العراق، إلّا أنه لم يتمكن منها بسبب التحصين الجيد من قبل الحجاج، فرحل إلى بادية الانبار واخذ يغزوا القبائل هناك ويرغمهم على دفع الاتاوة.

ثم تمكن شبيب من دخول الكوفة أخيراً مما كان له صدى كبير، حيث اقتحم اتباعه المسجد الاعظم هناك وهو مسجد علي بن أبي طالب ﷺ، وقتلوا من وجدوا بالمسجد من المسؤولين في حكومة الحجاج.

وكان بالكوفة عدد من اشراف ربيعة، ابرزهم النضر بن القعقاع بن شور الذهلي، وقد سلم النذر على شبيب ووصفه بالامير، إلّا أن شبيبا اراد من النظر وصفه بأمير المؤمنين فرفض الأخير فقتله اتباع شبيب.

الحجاج يعيد ترتيب اوراقه لمواجهة شبيب:

طبيعة قتال شبيب كانت تميل إلى الكر والفر وعد الحفاظ على الارض، بل التركيز على الغنائم الاستهلاكية من خيول وابل.

لذلك ولأن شبيب يعلم بأن الحجاج لن يسكت - وكان مقر الحجاج في البصرة - تحول شبيب إلى القادسية، فأرسل له الحجاج جيشاً بقيادة زحر بن قيس، إلّا أن شبيب هزم زحر واتباعه شر هزيمة.

وقد توالت انتصارات شبيب حتى ارعبت الناس والسلطات، ودخلت سنة ٧٧هـ وشبيب لا زال يوجه لقوات الحجاج بن يوسف الضربات الموجعة دون رادع حقيقي.

المواجهة الكبرى مع شبيب سنة ٧٧هـ:

قرر الحجاج استنفار السلطة الاموية في الشام للمساعدة الفعلية في حرب شبيب، وتمت الاستجابة لطلبه وحشد الجنود باعداد كبير بلغت اربعين الفاً في مقدمتهم رايات قبيلة ربيعة التي ينتسب إليها شبيب.

في مقابل ذلك فإن اتباع شبيب لا يزيدون عن الست مائة، فلما تواجه الجيشان رأى شبيب رايات قومه ربيعة واضحة وهي تستعد لمواجهته فصاح قائلاً:

لمن هذه الرايات؟

فقالوا: رايات لربيعة. فقال شبيب: طالما نصرت الحق وطالما

نصرت الباطل، والله لأجاهدنكم محتبساً، أنا شبيب، لا حكم إلا الله، اثبتوا إن شئتم![1]

ورغم هذا الجيش الضخم المخصص لاستئصال شبيب بن يزيد إلّا أنه تمكن من الحاق الهزيمة به، بفعل القوة المعنوية والشجاعة المفرطة لاتباعه، هذا الانتصار جعل شبيب يجبر المنهزمين والأسرى على بيعته كأمير للمؤمنين.

وتوجه شبيب إلى الكوفة مرة أخرى وهو يريد ان يجد الحجاج بن يوسف ليقتله، واشتبك هناك مع انصار الحجاج وهم من المدد الذين جاؤوا من الشام، وكانت الاشتباكات من اعنف ما حدث في الكوفة منذ انشائها زمن عمر بن الخطاب وحتى وقت ثورة شبيب.

وقد ظهر نوع من التفوق لجند الشام على اتباع شبيب، ما جعل معنوياتهم ترتفع ويواصلون الحملة على شبيب واتباعه بغية ابعاده عن الكوفة على الاقل وهو ما حصل بالفعل اذ اضطر شبيب إلى الخروج من الكوفة باتباعه إلى بادية الانبار إلى الغرب.

ويبدو أن سبب انهزام شبيب هو عدم تعود جنوده على حرب المدن، إضافة إلى أن الحجاج بن يوسف شخصيًّا هو من قاد هذا الاشتباك المباشر مع شبيب.

وفاة شبيب الشيباني بشكل مفاجئ:

اشتبك شبيب مع الحجاج في الانبار بعد مغادرته الكوفة، وبينما كان شبيب يعبر بجنوده نهر دجلة هروباً من جند الحجاج وقعت فرسه في فجأة في النهر وغرق فتفرقت جماعته بعده.

وقيل برواية أخرى لمقتل شبيب كما روى الطبري والاثير في

(١) تاريخ الطبري - حوادث سنة ٧٧هـ.

التاريخ، ان جنود شبيب كانوا يمقتونه بسبب ان أكثر غزواته على قبائلهم، واكثر ضحاياه اقارب لهم، بل واقارب لشبيب نفسه ولا ننسى إغارته على عنزة وبني شيبان، فقيل انهم احتالوا عليه لهذا السبب واسقطوه عمداً في النهر بالاتفاق لكي ينهو حالة الحرب والقتل التي اصبحت ديدنهم منذ ان تبعوا شبيباً هذا.

وبهذا انطوت صفحة هذا الرجل الشجاع الذي لن ينساه التاريخ العربي ابداً، وليس شبيب ببدع من الخوارج في كل الازمنة حين توظف الشجاعة بغير محلها وتصبح معولا لسفك الدماء بدعوى التقرب إلى الله بدماء المسلمين!

ولقد حرصنا على ايراد اخبار ثورة شبيب للتدليل على الوضع الاجتماعي الذي تعيشه قبيلة ربيعة في ذلك العهد، والمنطقة التي تتواجد بها قبيلة بكر بن وائل بما فيها عنزة، وهي كما ظهر لنا النواة الأولى التي شكلت ما عرف بديار ربيعة، رغم ان هذا الاسم - وأعني به ديار ربيعة - عرف واشتهر في اواخر العهد الاموي وبدايات العباسي، لكنه في تلك الفترة كان يتشكل بتزايد عدد بطون ربيعة في منطقة الجزيرة والموصل وبادية الانبار.

خروج عبد الرحمن بن الأشعث ومن تبعه من ربيعة:

كان الحجاج في العراق ورغم تبعيته لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يتصرف في العراق كحاكم مستقل، وقد رأينا كيف ارسل وفداً من ربيعة بقيادة عمران العنزي لاقتراح ولاية الوليد بن عبد الملك بدلاً من عمه عبد العزيز بن مروان.

وقد اضطر الحجاج لمواجهة جميع الفتن في العراق وما حوله بجهوده الذاتية، حتى عند ثورة شبيب لم يصل مدد من الشام الا بعد الحاح طويل من الحجاج لدمشق.

كان أحد القواد والشخصيات المهمة في العراق على زمن الحجاج هو عبد الرحمن بن الأشعث الكندي، وقد وجهه الحجاج وكلفه بعدة مهام منه محاربة شبيب الخارجي نفسه وولاه كذلك امارة بلاد ما يعرف بـ (سجستان) وهي شمال شرق العراق اليوم، وكان ابن الاشعث من القواد الذين ذاقوا وبال الهزيمة اما شبيب الشيباني قبل وفاة الأخير غرقاً كما ذكرنا.

لكن عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وبعد موت شبيت بمدة وتحديداً سنة ٨١هـ اختلف مع الحجاج، وقيل لأسباب اختلافهم عدة أمور لا تعنينا في هذا الموضوع.

ومايهمنا من ثورة ابن الاشعث هو مدى علاقتها بتواجد قبائل ربيعة في العراق في ذلك العهد وتأثير ذلك بانضمام بعض الشخصيات الربعية الهامة إلى ابن الاشعث.

قام ابن الأشعث يحرض الناس ضد الحجاج، وتختلف ثورته عن بقية الخوارج انه رجل ثائر على الحجاج الزعيم فقط، وليس هو مطالب بخلافة ونحوه مثل شبيب أو ماقبله وما بعده من الخوارج.

وقد انضم إلى ابن الأشعث - غير قومه الازد ومذحج - عدد من اشراف ربيعة على رأسهم الشاعر عمران بن حصان العنزي وبعض رجال من الأراقم(١) من بني تغلب وائل واوفدو للحجاج بن يوسف رسالة متمثلين بشعر:

---

(١) هم بنو جشم ومالك، وعمرو، وثعلبة، ومعاوية، والحارث. ويلقبون جميعاً بالاراقم، وهو عمود نسب تغلب قديماً وقد دخل نفر كبير منهم في لهازم بكرفي العهد الاموي، ولقب الاراقم هو مقابل لمسمى اللهازم في بكر بن وائل والذي يضم كل: عنزة، وتيم اللات، وبني عجل. ولمزيد من التفاصيل يراجع ماكتبنا عن فروع ربيعة وفق التداخلات والالقاب، وقد قال الشاعر:

سلي عن يشكراً وابناء وائلٍ ... لهازمها وجمع الاراقم

خلع الملوك وسار تحت لوائه   شجر العرا وعراعر الأقوام

وأغر من ولد الأراقم ماجدٌ   صلت الجبين معود الإقدام

ومن اشراف ربيعة الخارجين مع عبد الرحمن بن الاشعث كذلك تيجان بن ابجر من تيم الله من اللهازم.

والغريب هو خروج عمران العنزي، وهو الذي كانت علاقته بالحجاج متينة إلى حدٍ بعيد ولا ننسى أن الحجاج بعثه على رأس وفدٍ إلى عبد الملك، ولكن اسبتداد الحجاج وتكبره على خلق الله ربما كان مسؤولاً عن التعاطف مع كل خارجٍ على سلطته.

وقد اشتبك ابن الاشعث مع الحجاج عدة اشتباكات كان التفوق واضحاً فيها لأبن الاشعث، فقد كان اتباعه يتزايدون وبالذات من الأزد وهم قومه.

وقعة دير الجماجم سنة ٨٢هـ:

تزايد أتباع ابن الاشعث، وصبحوا آلافاً مؤلفة من ابرزهم عمران بن عصام العنزي، ونزل بهم ابن الأشعث منطقة يقال لها دير الجماجم، واستعد الحجاج بن يوسف لمواجهتهم بمن لا زال على وفائه له من اهل العراق يضاف إليهم قبائل الشام التي جاءت مناصرة له من بني لخم وجذام وكلب وهي القبائل الشديدة الولاء لبني امية.

استمرت المناوشات بين الطرفين إلى أن دخلت سنة ٨٣هـ، واشتد القتال، وانضم عدد آخر من فرسان ربيعة إلى ابن الأشعث منهم بسطام بن مصقلة الشيباني.

وانهزم عبد الرحمن إلى منقطة يقال لها (المسكن) وانقسم جيشه إلى قسمين: جنود بقيادته هو شخصيًّا ذهبوا لسجستان، والقسم الآخر إلى

الكوفة بقيادة بسطام الشيباني، وقد قتل بسطام في الكوفة بعد معارك مستعرة مع الجيش الاموي.

وفي سجستان لقي ابن الاشعث أحد اهم مناصريه السريين من ربيعة وهم عياض بن هميان السدوسي الشيباني، وقد استقبله بشكل سري لحمايته من السلطات، ثم التف عليه مناصروه مجدداً ولكنهم هزموا مرة أخرى وقبض على ابن الأشعث وقتله الحجاج وانتهت ثورته بذلك.

مقتل عمران بن حصان العنزي:

كنا من الذين خرجوا مع ابن الاشعث، ومن اشهر الذي قتلوا معه بعد فشل ثورته، ويورد صاحب تاريخ خليفة ان عمران اسر واقتيد إلى الحجاج، فسأله الحجاج أن يشهد على نفسه بالكفر يوم تبع ابن الأشعث، فرفض عمران اقرارنفسه كافراً فقتله الحجاج لهذا السبب.

وقيل رواية غير هذه، ان الحجاج قال لعمران:

هل انت عمران؟

قال: نعم!

قال الحجاج: ألم أقدم العراق فأوفدتك إلى أمير المؤمنين ولا يوفد مثلك؟ وزوجتك سيد قومها ماوية بنت مسمع[1] ولم تكن لها بأهل؟

قال عمران: بلى

قال له الحجاج: فما حملك على الخروج مع عدو الله ابن الأشعث؟

قال عمران: اخرجني باذان وقد كنت على خرب من البصرة. (وهو يعني انه خرج بالتحريض من باذان وهو بالبصرة)

---

(١) كان عمران متزوجاً ماوية بنت مسمع أخت مالك شيخ بكر بن وائل في زمنه.

فقال له الحجاج: فأين كنت عن حجلة اهلك (وهو يقصد قومه من بكر بن وائل والذين لم يخرجون وعلى رأسهم آل مسمع)

وبعد ذلك أمر به الحجاج فقتل رحمه الله، وقد سأل عنه عبد الملك بن مروان الذي كان يجله وهو الذي استقبله يوم مشكلة ولاية العهد، وقال عبد الملك عن عمران العنزي: ما كان ينبغي أن يقتله الحجاج بعد قوله:

وبعثت من ولد الأغر معتبٍ صقرا يلوذ حمامه بالعوسج
فإذا طبخت بناره أنضجتنا وإذا طبخت بغيرها لم تنضج
وهو الهمام إذا أراد فريسةً لم ينجها منه صريخ الهجهج

لمحة عن احوال ربيعة في تلك الفترة:

وبعد انتهاء فتنة ابن الاشعث استقرت الأمور إلى حد كبير، فلم يخرج على السلطة الحاكمة أية قوى كبرى تذكر سوى ان نشاطات بعض الخوارج كانت لا زالت تخرج من حين لآخر، ونعيد تكوين الصورة الكاملة لتوزيع قبيلة ربيعة في هذ العهد على نحو مايلي: اليمامة والبحرين وكانت بها قبائل من بكر بن وائل وعبد القيس، والعراق والجزيرة الفراتية كانت بها الجمهرة الكبرى من ربيعة من الموصل شمالاً وحتى الانبار جنوباً: وهم بكر بن وائل بفروعهم، وتغلب بن وائل.

واستقرائنا لتاريخ ربيعة وخاصة بكر نجد ان وفاة مالك بن مسمع سنة ٧٤هـ افقدت ربيعة زعيما قلما يوجد، فقد كان مالك يحاول تجنيب قبيلته التورط باي صراع سياسي على الخلافة، وبنفس الوقت فمالك بن مسمع لم يرضى ان تضام قبيلته يوماً مهما كان الظالم لها حتى لو كان حاكماً، هذه الصفات جعلت جميع القوى السياسية تحترم مالك بن مسمع وتحاول استمالته لو بالحياد، فحياد ربيعة يعني ان القوى السياسية ستوفر على نفسها مهاجمة أحد اقوى قبائل العرب.

ولكن المرحلة التي تلت وفاة مالك عانت قبائل ربيعة في نجد من تسلط قبائل قيس عيلان، ولا سيما بني عقيل بن عامر، وقد ساعدهم بذلك قلة ربيعة في تلك الفترة في نجد، مقابل تكاثر قبائل مضر فيها وعلى رأسها تميم وقيس، وقد شجع الولاة الذي كانت توليهم السلطات الاموية شجعوا قبائل قيس ضد ربيعة، ذلك ان اغلبهم من مضر، إضافة إلى أن الربعيين كانوا مادة طيبة للخوارج، فقد خرج عدد كبير منهم من تلك المنطقة النائية عن مراكز صناعة القرار والاحداث في دمشق والكوفة والبصرة.

اما الجمهرة من بكر ببطونهم المشهورة مثل: شيبان واللهازم ومنهم عنزة فقد كانوا بعيدين عن نجد، ويتمركزون في العراق، حيث دبت وخرجت الفتن الكثيرة ضد الدولة الاموية، ورغم ان اشراف ربيعة لم يتدخلوا إلّا أن عدداً منه كان ميالاً ضد الحجاج وان لم يكن هناك معارضة منهم للحكم الاموي وللأسرة الاموية، وقد رأينا كيف كانت علاقة عمران العنزي بعبد الملك مقابل كرهه للحجاج.

اما بنو تغلب بن وائل فهم أكثر حظاً من بقية اخوانهم من ربيعة اقصد في الصراعات والحوربو الفتن، فهم لم يكونوا مسلمين، فلم يلتفت لهم أحد وسط الصراعات لخروجهم أصلاً عن دائرتها، لأنها صراعات على الخلافة الأمر الذي يخص المسلمين فقط.

اما من أسلم من بني تغلب فقد دخلوا في اللهازم من بكر بن وائل إلى جانب عنزة وتيم وبني عجل، ومن أشهرهم الشاعر الكبير كعب بن جعيل وهو من الاراقم، وقد كان يكره الشاعر الاخطل (ويقال انه هو من لقبه بهذا) ولذلك نجد الاخطل يهجوا كعباً هذا وقبيلة اللهازم بقوله:

يا كعب لا تهجون العام معترضاً   فإن شعرك ان لاقيتني غرر
إن اللهازم لاتنفك تابعة وشرب   التابع دائماً كدر

بشكل عام فإن ربيعة كانت تعيش إلى حد كبير وحدة جغرافية متصلة وتتداخل بطونها مع بعضها بشكل مستمر، وهذا يتضح من سياق تاريخها الذي ننظمه ونلخص اهم احداثه هنا، ففي زمن الحجاج الذي تناولنا فيه طرفا من اخبار ربيعة وقعت حادثة مقتل أحد بني عنزة من قبل فارس تميم في زمنه وهو هلال بن الاعسر التميمي على مورد للبادية في بلاد البحرين، وقد كان العنزي قد ضرب هلالاً هذا، فقرر هلال الانتقام، وقد وكان فارساً فتاكاً، فهرب العنزي واحتمى بطريقة العرب التقليدية بأحد شيوخ تميم بحيث امسك بعمود بيته مما يعني حرمة دمه، إلّا أن هلالاً لحق به وقتله رغم هذا، فغضب الشيخ لقتل هلال لرجل احتمى به وعاذ ببيته، فقرر تسليم هلال إلى بكر بن وائل وهم قوم العنزي ليأخذوا بثأر ابنهم، فلما جاء التميميون لأخذ هلال والرحيل به إلى بكر قال هلال مخاطباً قومه يلومهم:

ولا تثلجوا أكباد بكر بن وائل   بترك أخيكم كالخليع المطرد
ولا تجعلوا حفظي بظهر وتحفظا   بعيداً ببغضاء يروح ويغتدي

الى ان قال:

وتعلم بكر أنكم حيث كنتم   وكنت من الأرض الغريبة محتدي

وهذه القصة تدل وتؤكد ان دخول عنزة في بكر الذي حدث في الجاهلية كان لا زال ذاته إلى زمن عبد الملك بن مروان حيث حدثت هذه الحادثة التي نقلها الاصفهاني في كتاب الأغاني عند ترجمته لهلال بن الأعسر التميمي، كما تدل ان الثارات والعداوات والحساسية لا زالت كما هي بين تميم وبكر لم تنقطع حتى ذلك العهد.

وفي فترة ما بعد الاستقرار في كنف الأسرة المروانية الأموية كانت قبائل ربيعة تعيش حالة احتقان مع قبائل مضر عموماً، وفي هذه الفترة ظهرت بوادر الصراع الربعي القيسي مجدداً، وقد رأى بعض المؤرخين

ان الحروب أو النزاعات القبلية هي من اهم عوامل انهيار الدولة الأموية، وهم يعزون ذلك إلى الصراع بين القبائل العدنانية والقحطانية، ولكننا نخالف هذا، فمن المفترض ان ربيعة ومضر من عدنان، ومع هذا نجد ان الصراع كان على اشده بين قبائل قيس وربيعة وكلاهما بحسب المعروف من عدنان، وسنتناول ظروف الحرب بين قيس عيلان وربيعة في مرحلتها الثانية بعد النهاية القرن الأول الهجري.

١٥٨

الفصل الخامس

ربيعة في اواخر العصر الاموي (١٠٠هـ - ١٣٢هـ)

عندما توفي عبد الملك بن مروان تولى بعده ابنه سليمان بن عبد الملك، ثم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز بن مروان[١]، ثم هشام بن عبد الملك آخر الخلفاء الاقوياء من بني امية، وقد حدثت في عهد هشام هذا الممتد بين (١٠٥هـ - ١٢٥هـ) احداث جسيمة كان لقبائل ربيعة دور هام فيها ولذلك يجب تناولها بشيء من التفصيل.

الحرب بين ربيعة ومضر سنة ١٠٦هـ الأسباب والعوامل:

كان أحد أهم القادة الأمويين هو نصر بن سيار التميمي، وكان من ضمن جبهة خراسان، وهو أحد قواد جبهة الأتراك الهامين، وقد اخذ نصر يمارس سياسة التعصب لقومه من مضر على حساب قبائل اليمن من الازد أو من يواليهم من ربيعة، يزاد على ذلك ان دعوة أبي مسلم الخراساني كانت في بداياتها تدعوا سرًّا إلى آل محمد والطعن بخلافة بني امية، وقد وجدت دعوة أبي مسلم بادية ربيعة مكاناً خصباً لدعوتها رغم عدم اعلانها، ونتيجة لكراهية الربعيين لنصر هذا من بسبب عنصريته، فقد كانت ربيعة

(١) وعمر هو ابن عبد العزيز والذي كان ولي العهد لعبد الملك الذي حاول عمران العنزي اقناع عبد الملك بخلعه عن ولاية العهد.

تتبطاً ان اتت الاوامر إليهم بالنفير والحرب ضد الترك، ومن ذلك ما حدث سنة ١٠٦هـ، ففي أحد الغزوات على الأتراك لقائد اموي هو مسلم بن سعيد، تم استنهاض القبائل والقواد، ولم تستجب ربيعة، بل انهم ارسلوا لأحد القادة من الازد بأنه من تغلب أي من ربيعة وان عليه حمايتهم من القواد الامويين، وان ربيعة سترحل عليه ان هو منعها من تحقيق رغبة نصر ومن معه من قبائل مضر وهم تميم ونمير وكلاب وأسد.

قام نصر وبتوجيه من القائد مسلم بمعاقبة المتخلفين عن الغزو ومنهم ربيعة وحلفائها الازد، فاستعدت ربيعة لمواجهة نصر ومن معه من تميم واسد ونمير، ووقعت معارك شديدة انتهت باستسلام الربعيين وخضوعهم لشروط نصر بن سيار بينما هزم حلفائهم الازد بعد أن رفضوا الاستسلام، وهذا جعل نصر يتشفى لتميم ضد ربيعة بقصائده التي تطفح بالتعصب لقبيلته تميم:

فما أنا بالواني إذا الحرب شمرت	تحرق في شطر الخميسين نارها
ولكنّني أدعو لها خندف التي	تطلع بالعبء الثقيل فقارها
وما حفظت بكر هنالك حلفها	فصار عليها عار قيس وعارها
فإن تك بكر بالعراق تنزرت	ففي أرض مرو علها وازورارها
وقد جربت يوم البروقان وقعة	لخندف إذ حانت وآن بوارها
أتتني لقيس في بجيلة وقعة	وقد كان قبل اليوم طال انتظارها

ويتضح التعصب والشماتة من ابيات نصر لقبيلة بكر بن وائل في هذه الأبيات، وخاصة اشارته إلى أن بكر خذلت حلفائها من الازد.

وعلى كل فنحن نستنتج من هذه الاحداث ان قبائل ربيعة لا تزال موحدة باسمها ذاتها وبفرعيها الكبار بكر وتغلب وما يضمون من بطون ربيعة المشهورة مثل النمر وعنزة وعبد القيس الذين شاركوا في هذه الحرب ضد تميم ومن معها من قيس عيلان.

وبهذه الحرب ازداد نفوذ نصر بن سيار، وأصبح وكأنه الحجاج بن يوسف الجديد من حيث شدة إخلاصه للبيت الأموي ولهذا القائد دور في اذكاء التعصب القبلي مما أدى في النهاية إلى أنهيار الدولة الاموية.

واقد ادت سياسة نصر وتعصبه الغير مبرر ضد ربيعة إلى أن يستغل العباسيون ودعاتهم الأمر جيداً، فيكثفون دعوتهم حتى بدأت تطفوا على السطح وتظهر للعيان مما يجعل السلطات الأموية ايام هشام وتحديداً سنة ١٢٠هـ تعين نصر بن سيار أميراً ووالياً مطلق اليدين على خراسان وديار ربيعة، رغم محاول أحد أشهر شيوخ ربيعة وهو عبد الكريم بن سليط الحنفي أن يثني هشاماً عن قراره بتعيين نصر إلّا أن هشام اصر على نصر، بل وقال لعبد الكريم الحنفي: أن ربيعة لاتسد بها الثغور![(١)]، وذلك ان عبد الكريم الحنفي اقترح على هشام عدد من شخصيات ربيعة لتولي خراسان، كما أقترح عبد الكريم الحنفي ان يتولى خراسان شيخ اليمن أو (الازد) وهو جديع الكرماني إلّا أن هشاماً رفض جديع أيضاً وهو يعرف ان الازد وربيعة حلف ضد مضر لا شك.

وكان أحد أهم مهام نصر الموكلة إليه هو تتبع المنضمين لشيعة بني هاشم وداعي تنظيمهم الناشط أبو مسلم الخراساني، ولأن أبا مسلم مولى من موالي بني عجل من اللهازم من بكر فقد كانت قبائل ربيعة هي المغذي الرئيسي لدعاة أبي مسلم المتشيعين لبني العباس.

وكان للأزد علاقة قوية في ربيعة منذ تحالفهم التاريخي ضد بني قيس ومضر عموماً، وقد اراد نصر وحاول مراراً تفكيك هذا الحلف، وقد اراد نصر ان يضم بلاد ربيعة إلى سلطته مباشرة وذلك عن طريق توحيد ولايتي العراق وخراسان في ولاية واحدة، والعراق كان يحكمه يوسف بن عمر، فخشي الأخير اطماع نصر وحاول الوشاية به لهشام

(١) تاريخ ابن الأثير والطبري حوادث سنة ١٢٠هـ.

لعزله عن خراسان إلّا أنه فشل فبقي كل منهم على ولايته. غير أنه على الصعيد الفعلي فإن نصر بن سيار كان يحكم القبائل كلها بما فيها ربيعة حكما مباشراً.

نصر بن سيار يتولى ديار ربيعة:

وليس أدلّ من أن الحكم الفعلي بولاية العراق - رغم استقلالها الصوري عن خراسان - إلّا ما حدث سنة ١٢٢هـ حين ثار الإمام زيد بن علي بوجه السلطات الاموية في الكوفة، فتولى نصر بن سيار قيادة قبائل العراق لمهاجمة زيد بن علي واستئصاله، ثم قتل ابنه يحيى بن زيد سنة ١٢٥هـ، ومما يدل ان نصر كان محكم القبضة على الربعيين منذ سنة ١٠٦هـ هو ان رجلاً من عنزة ربيعة هو من قتل يحي بن زيد وأتى برأسه إلى نصر.

وبعد أن قتل الأمويين الوليد بن يزيد ونصبوا ابن عمه يزيد بن وليد أصبح نصر حاكماً على العراق وديار ربيعة بشكل واضح ومعلن، اذ تم عزل يوسف بن عمر عن العراق، وقد ضاق الربعيين ذرعاً بنصر هذا وخاصة ان الأمور الفوضوية في دمشق والتي اعقبت قتل الوليد اتاحت لنصر أن يأخذ البيعة لنفسه حاكماً على ربيعة واليمن (الازد) وقال شاعر مضر يفتخر بحكم نصر وبيعته:

أقول لنصر وبايعته ... على جل بكر وأحلافها

يدي لك رهن ببكر العرا ... ق سيدها وابن وصافها

أخذت الوثيقة للمسلمين ... لأهل البلاد وألافها

ورغم هذا فإن نصر ظل محتفظاً بولائه لبني امية ولم يتسمى بأمير المؤمنين رغم قدرته على ذلك وعدم وجود مايمنعه من ذلك، وتولى نصر محاربة الشيعة الهاشمية الذي بدأت وتيرة نشاطهم بالازدياد أكثر واكثر، فهم يعلمون كراهية الربعيين والازد لمضر وبطونها في العراق وخراسان.

وهكذا عانت قبيلة ربيعة الامرين من جور ولاة بني امية من مضر من نصر وغيره مثل يوسف بن عمر والي العراق المخلوع ومن تولى بعده وهو خالد بن عبدالله القسري، وكان لا بد أن توجد بعض ردات الفعل الربيعة في المنطقة، والتي صنفت للأسف من قبل المؤرخين على انها ثورات خوارج، وفي الحقيقة هي ردة فعل طبيعة من اهم عواملها الاستبداد من قبل الولاة واستهتارهم بالناس[1]، مقابل ضعف الدولة المركزية مما شجع بعض الفرسان من ربيعة على اعلان عصيانهم في عهد هشام ومن ابرز هؤلاء بهلول بن بشر الشيباني، والضحاك بن قيس، وجعفر بن نافع آل قعقاع[2]، وعثمان ابن الخيبري، وقد ذكر صاحب كتاب (انساب الاشراف) أن رجلاً من عنزة خرج وثار في الموصل في ثلاثة عشر رجلاً، وقاتل بشراسة، وارسل له هشام بني عبد الملك الحكم بن مستنير العنزي والذي كان موالياً لبني امية، فقاتله المستنير وهزمه واسره وبعث به إلى هشام وانتهت حركته، وينقل لنا صاحب كتاب انساب الأشراف عن المدائني قول هشام بن عبد الملك للعنزي الخارجي: ألك حاجة؟

فقال العنزي: تخرجنا من ربيعة وتردنا إلى بني أسد!

قال هشام: نعم، إلّا أن بني يقدم رفضوا قول العنزي وموافقة هشام له، في حين قبل بذلك بني يذكر التحول لبني اسد[3].

---

(١) الخوارج يخرجون دائماً طاعنين في شرعية الخلافة أو الامامة وبغض النظر عن الحالة السياسية الموجودة، فهم قد يخرجون حتى لو كانت أمور الدولة مستقرة، بعكس ثورة بهلول بن بشر ومن مع من ربيعة فهم قد ثاروا في وقت كان الوضع السياسي كله متأزم وخاصة في العراق حيث يستغل الولاة مناصبهم دون الشعور الحقيقي بمسؤولياتهم.

(٢) لا تزال اسرة آل قعقاع موجودة بنفس مسماها وتشكل بطنا رئيسيًّا من الرولة من الجلاس من عنزة الوائلية المعاصرة.

(٣) بني يقدم وبني يذكر البطنين الرئيسيين من عنزة بن أسد بن ربيعة.

ويبدو أن مراد الخارجي العنزي هو فصل عنزة عن اخوانها من بكر، حيث أن عنزة داخلة في بكر بن وائل ويجمعهم الجد (أسد بن ربيعة) فلعله يقصد ان تنسب عنزة إلى جدها اسد مباشرة دون ان تكون بطناً ربعيًّا محسوباً في عداد اللهازم من بكر[1]، كما انه من الواضح ان هذا الخارجي العنزي اراد التمويه على السبب الحقيقي لخروجه بالادعاء انه يريد عزل عنزة عن اخوانها من ربيعة.

وبعد فشل ثورة هذا العنزي أعلن الثورة بعده بهلول بن بشر مع عدد من فرسان ربيعة في عهد هشام سنة ١١٩هـ وسنلقي النظر على بعض تفاصيل ثورته.

ثورة بهلول بن بشر والاشهب العنزي سنة ١١٩هـ:

وبشر هو أحد فرسان ربيعة المغاوير ويلقب بكثارة، ولم يكن بنيته الخروج لولا ان أحد امراء الدولة الاموية استفزه بعد مشكلة له مع أحد التجار بسبب الخمر، حيث ارسل بهلول خادماً له ليشتري له شيئاً فعاد الخادم من التاجر بخمر، فطلب بهلول من التاجر اعادة النقود إليه وأخذ الخمر، رفض التاجر ما قاله بهلول مما جعله يشتكيه للسلطات في سواد العراق، وكان أمير السواد يكره ربيعة - كغيره - ولذلك قال لبهلول: الخمر خير منك ومن قومك!

وهكذا لم يطق بهلول الصبر فقرر الخروج على السلطات، وحج إلى مكة ووجد من يوافقه ويشجعه، ولما عاد إلى الموصل شكل من

---

(١) وربما قصد الخارجي ام تُنسب عنزة مباشرة إلى أسد الجد الجامع لها مع بكر وسائر ربيعة، حيث من المُمكن ان تكون نسبة عنزة وعنز هي بكرية فعلاً ونسباً، وليس باعتبراها داخلة في بكر بن وائل عن طريق اللهازم، لا سيما ان علمنا ان ابن الكلبي هو أول من دون اسم عنزة ونسبه إلى أسد مباشرة، فربما يكون لهذه الحادثة تأثيرها على كتب النسب التي نقلت جميعها من ابن الكلبي.

قبيلته عصبة لا بأس بها ومن ابرز من بها الأشهب العنزي وعمرو اليشكري.

أخذت هذه العصبة في الاغارة على كل ما هو حكومي، من دواب بريد أو شرطة أو أي جهاز يتبع السلطة، ثم شرعوا بقتل ولاة الدولة مبتدئين بعامل القرية الذي استفز بهلول، ورغم الشجاعة النادرة التي ابداها بهلول في قتاله إلّا أن قوات الأمير خالد القسري هزمته وقتلته مع اتباعه من ربيعة وعددهم حوالي السبعين بدير بين الجزيرة والموصل، وقال الضحاك بن قيس الشيباني يرثي بهلول البشر:

بدلت بعد أبي بشرٍ وصحبته ... قوماً علي مع الأحزاب أعواناً

كأنهم لم يكونوا من صحابتنا ... ولم يكونوا لنا بالأمس خلانا

يا عين أذري دموعاً منك تهتانا ... وابكي لنا صحبةً بانوا وإخوانا

خلوا لنا ظاهر الدنيا وبطانها ... وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

وبعد وفاة بهلول قام بعده عمرو اليشكري والاشهب العنزي، فقتل عمرو اليشكري، وقام الاشهب العنزي بالأمر بعده في الموصل، والتقى بالفرات مع جنود خالد القسري وكانوا بقيادة فارس اسمه السمط، وتمكن السمط هذا من قتل العنزي في منازلة وجهاً لوجه وتفرق الربعيون بعد مقتله، وانتهت بذلك ثورة بهلول بن بشر بتوابعها، ولا شك عندنا بانها تمرداً وليست خروجاً، فلم يتسمى بهلول ولا عمرو ولا الأشهب العنزي بامارة المؤمنين، بل كانوا يعانون من الاضطهاد والتمييز العنصري من قبل ولاة بني امية ضدهم باعتبارهم من ربيعة، ولم يكن بين ولاة الامويين بالعراق من لم يكن كارها ومتعصباً ضد ربيعة والازد حلفائهم، باستثناء عبدالله بن عمر بن عبد العزيز القائم على الكوفة، فقد كان يميل بعكس بقية ولاة بني امية وقوادهم ويميل لربيعة ميولاً سيحدث تغييراً في مجرى الأمور كما سنرى.

ثورة ربيعة في العراق سنة ١٢٧هـ:

منذ هزيمة بهلول ورفقاء دربه عمرو اليشكري والاشهب العنزي حتى سنة ١٢٧هـ لم تخرج ضد بني امية اية قوى ربعية، باستثناء دعوة آل عباس التي كانت تتحين الفرصة للإعلان عن نفسها ومن الواضح اختراقها لصفوف قبائل ربيعة.

وفي سنة ١٢٧هـ كان بالكوفة - والتي اميرها عبدالله بن عمر كما قدمنا - أحد بني هاشم وهو عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب، وكان يتهيب من أمير الكوفة عبدالله بن عمر رغم رغبته في الثورة والدعوة لنفسه بالخلافة وخاصة انه يرى مدى تعاظم مكانة بني هاشم بين الناس.

وكما قلنا فإن عبدالله بن عمر بن عبد العزيز كان ميالاً بشدة إلى قبائل ربيعة، فدعا اشرافهم إليه وأعطاهم أموالاً ووسع عليهم، ربما ليخفف عنهم الضغوط التي يتعرضون لها من قبل الولاة الآخرين، وكان اثنين من شيوخ ربيعة لم تشملهم اعطيات عبدالله بن عمر وهم: جعفر بن نافع القعقاع وعثمان بن الخيبري من تيم اللات من اللهازم من بكر، ويبدو أن عبدالله بن عمر كان يعرف مدى كره هذان الأميران لولاة بني امية، وربما خشي ان يعطيهم علناً وهم المعروفون بتاييدهم لبهلول البشر فيوقع عبدالله بن عمر في حرج مع السلطة الأموية اذا هو اعطى اعدائها ووصلهم.

استفز تصرف عبدالله بن عمر كل من الاميرين الربعيين بن القعقاع والخيبري، فتنادوا إلى قومهم قائلين: يا آل ربيعة، فثارت إليهم ربيعة من الموصل إلى السواد، فاجتمعوا وتنمّروا وبلغ الخبر ابن عمر فأرسل إليهم أخاه عاصماً فأتاهم وهم بدير هند قد اجتمعوا وحشدوا فألقى نفسه بينهم وقال: هذه يدي لكم فاحكموا فاستحيوا وعظّموا عاصماً وتشكّروا له وأقبل على صاحبيهم فسكتا وكفّا فلمّا أمسى ابنُ عمر أرسل من تحت

ليلته إلى عمر بن الغضبان بمائة ألف فقسمها في قومه بني همام بن مرة بن ذهل بن شيبان وأرسل إلى ثمامة بن حوشب بن رويم بمائة ألف فقسمّها في قومه وأرسل إلى جعفر بن نافع بن القعقاع بعشرة آلاف وإلى عثمان بن الخيبريّ بعشرة آلاف[1].

هذا التصرف من قبل ابن عمر ومحاولته التهدئة مع ربيعة جعل عبدالله بن معاوية الجعفري يطمع فيه، فيعلن الثورة والخروج عليه، ثم يقوم عبدالله بن معاوية الجعفري بجمع ربيعة على رايته ويأخذ بيعتهم مستثمراً اجتماعهم على نصر القعقاع من ابن عمر.

دور ربيعة في ثورة عبدالله بن معاوية بن جعفر الهاشمي:

وبعد أن بايع الربعيون عبدالله بن جعفر، واجتمعت عليه كلمتهم وكلمة الشيعة الهاشمية، رأى أن يطرد كل من لم يواليه من جنود بني امية في الكوفة والسواد، فاجتمع المطرودون على راية عبدالله بن عمر في الحيرة وهي قريبة من الكوفة.

وقبل أن يقاتله أراد عبدالله بن عمر ان يثني ربيعة عن مناصرة عبدالله بن معاوية، فعمد قيادة جيشه إلى الكوفة وقبل المواجهة ارسل لهم رجلاً من اهل الشام بدعوة انه يبحث عن مبارز للمنازلة قبل الاشتباك.

خرج للمنازلة رجل من بكر بن وائل وهو القاسم بن عبد الغفار العجلي، وهنا اكمل ابن عمر بقية حيلته فقال الفارس الشامي للقاسم العجلي:

قد ظننت أنه لا يخرج إلي رجل من بكر بن وائل!

ثم بين له انه لاريد ان يقاتل الربعيين، وان ربيعة هي الطرف الوحيد الخاسر في كل الاحوال، حيث أن من بايعوا عبدالله بن جعفر من بقية القبائل هم على ولائهم لابن عمر، وهذا نفهمه من قول الفارس الشامي:

---

(١) تاريخ الطبري حوادث سنة ١٢٧هـ.

والله ما أريد قتالك ولكن أحببت أن ألقي إليك حديثاً، أخبرك أنه ليس معكم رجل من أهل اليمن، لا إسماعيل ولا منصور ولا غيرهما إلا وقد كاتب ابن عمر وكاتبه مضر، وما أرى لكم باربيعة كتاباً ولا رسولاً، وأنا رجل من قيس، فإن أردتم الكتاب ألغيته ونحن غداً بإزائكم فإنهم اليوم لا يقاتلونكم[1].

ويهدف ابن عمر هنا لعزل ربيعة عن عبدالله بن معاوية، باقناعهم ان لايكونو جادين بقتالهم مع عبدالله الجعفري بعد أن تورطوا واعطوه البيعة كراهية بقبائل قيس وولاتها.

ويبدو لنا أن الربعيين وان تظاهرو برفضهم التسليم بما قاله هذا الفارس القيسي، إلّا أنهم بالفعل لم يظهروا جدية في قتالهم مع ابن جعفر الهاشمي، وهم قد استعجلوا واعطوه البيعة، ويبدو أن عبدالله بن معاوية نفسه عرف هذا وشعر انه هو أيضاً استعجل الامر، وعرف ان الربعيين سيكونون بامان ان انهزم هو في المعركة فيبح هو الحيد مداناً، فقرر ان يأخذ لنفسه الامان من ابن عمر مع الربعيين فجمعهم وقال لهم:

يا معشر ربيعة، قد رأيتم ما صنع الناس بنا، وقد أعلقنا دماءنا في أعناقكم، فإن قاتلتم قتالنا معكم، وإن كنتم ترون الناس يخذلوننا وإياكم فخذوا لنا ولكم أماناً!

وهكذا وعندما رأى الربعيين ان القائد الخارج نفسه يبحث عن الامان، قرروا اخذ الامان لأنفسهم ولابن جعفر هذا، فامنهم عبدالله بن عمر بن عبد العزيز، وخرج عبدالله بن معاوية بن جعفر يجر اذيال الخيبة على ثورته الارتجالية التي لم يكن لها اي مبرر الا استغلاله للحنق الربعي ضد بني امية، فهرب إلى بلاد فارس واجتمع هناك بجمع من ربيعة آخرين كانوا حانقين على الحكم الاموي منهم محارب بن موسى

(١) تاريخ الطبري حوادث سنة ١٢٧هـ.

اليشكري، فطمع عبدالله بن جعفر مرة أخرى وظهر له انها فرصة أخرى له، فاعلن نفسه خليفة عن آل محمد في بلاد فارس سنة ١٢٨هـ وأصبح محارب اليشكري ابرز قواده ثم انضم لهم فيما بعد شيبان بن عبد العزيز الشيباني بعد فشل ثورة الضحاك بن قيس وهي ماسنتناوله فيما يلي.

ثورة ربيعة الثانية بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني:

مثل مروان الحمار عند توليه سنة ١٢٧هـ ومثل بقية ولاته في العراق وخراسان التعصب لمضر خير تمثيل وخاصة قيس عيلان، مما جعله على خصومة مع عبدالله بن عمر المائل إلى ربيعة وحلفائها الازد.

ومع تزايد وتيرة الفوضى قام الضحاك بن قيس الشيباني بثورته منطلقا من ديار ربيعة، وقد روى المؤرخ الطبري عدة اسباب محتملة لخروج الضحاك، لكنها لاتبتعد عن العامل الرئيسي وهو فوبيا ربيعة الذي بدأ ينتشر بين ولاة بني امية من قيس عيلان واخوانهم من مضر.

وكان الضحاك ينتمي لتنظيم ربعي اسمه سعيد بن بهدل الشيباني، فلما مات ابن بهدل خلفه الضحاك هذا في القيادة فانضمت لهم جموع من ربيعة، وتوجهوا نحو الكوفة حيث عبدالله بن عمر بن عبد العزيز.

ومروان الحمار كان يعلم تمام العلم بتواطوء عبدالله بن عمر مع ربيعة، فعمد إلى تعيين النضر بن سعيد بدلاً منه وكلفه بمواجهة الضحاك بقبائل قيس عيلان المضرية، فلم يجد عبدالله بن عمر إلّا أن يمتثل لمروان ظاهريًّا ويقاتل ضد الضحاك مع النضر بن سعيد.

كتب الله للضحاك هزيمة النضر وعبدالله بن عمر الذي فقد اخاه عاصم في هذه المعركة وفر إلى بلدة واسط، ودخل الضحاك بقبائل ربيعة الكوفة واستولى عليها وبدأ يجبي خراجها كما لو كان حاكماً، والغريب في هذه المعركة ان قبائل الازد ومضر اجتمعوا ضد ربيعة هذه المرة بسبب ان عبدالله بن عمر كان الازد يجلونه واشتركوا معه في قتال الضحاك.

عبدالله بن عمر بن عبد العزيز يبايع الضحاك:

وبعد استيلائه على الكوفة طمع الضحاك بتوسيع ملكه، فبعث بالمخلصين له من ابناء جلدته من ربيعة إلى كافة المناطق العراقية لاحتلالها واخراج ولاة الدولة الاموية، فبعث ابن الخيبري وهم من تيم اللات من اللهازم إلى الزاب في شمال العراق، وهناك اشتبك الخيبري مع قوات عبدالله بن عمر وانهزم ابن عمر شر هزيمة.

ثم اقترح بعض خاصة عبدالله بن عمر أن يبايع الضحاك، بدعوى ان لايكون ابن عمر وحده بمواجهة الضحاك في حين هو بعيد عن دمشق التي لم تعره اهتماماً.

وهكذا كان ان عبدالله بن عمر وفي موقف تاريخي قد بايع الضحاك بن قيس، بل وسلم له بالخلافة، ثم المفاجأة الكبرى التي تمثلت بوصول سليمان بن هشام بن عبد الملك مبايعاً هو الآخر للضحاك بعد خلافٍ مع مروان الحكم في حمص، هذا التصرف من قبل اهم شخصيات بني امية جعل شعراء ربيعة يرددون ابياتا من الشعر تؤكد غضبهم من احتكار قريش للخلافة منها هذه البيت لعزيز الضبعي الربعي[1]:

ألـم تـر أن الـلـه أنـزل نـصـره   وصلت قريش خلف بكر بن وائل

وبعد بيعة كبار بني امية للضحاك أشتدت وعظمت حركته، فسار إلى الموصل بدعوة من اهلها وهم من ربيعة، فاستولى عليها وعلى ما يتبعها، ووصل عدد اتباع الضحاك مئة الف شخص من اهل العراق وهو عدد لم يجتمع على خارجي طوال التاريخ الأموي[2]، وبدأ الضحاك

---

(١) من بني ضبيعة من ربيعة، وهو اخو اسد جد عنزة وبني وائل، وذرية ضبيعة هذا دخلوا في بكر بن وائل مثل عنزة، ومن مشاهيرهم في الجاهلية الملتمس الشاعر خال طرفة بن العبد الشاعر.

(٢) العالم الإسلامي الإسلامي في العصر الاموي - دراسة سياسية من تأليف الدكتور =

يوحد صفوف ربيعة ولم يبقى له إلّا الجزيرة الفراتية حيث معقل بني تغلب وائل.

ولما علم مروان بن محمد بأمر مبايعة ابناء عمه للضحاك ونية الأخير التوجه للجزيرة الفراتية، ارسل ابنه عبدالله لكي يحول دون دخول الضحاك الجزيرة، وحرض ولاته مثل النضر بن سعيد على مقاتلة الامراء الذين عينهم الضحاك مثل ملحان بن معروف الشيباني أمير الضحاك على الكوفة.

وتمكن الضحاك من هزيمة ابن مروان بن محمد ودخل الجزيرة، في حين تمكن النضر من هزيمة ملحان الشيباني وقتله في الكوفة.

وعين الضحاك في الكوفة بدلاً من ملحان المثنى بن عمران العائذي من بكر بن وائل، وأصبح عزيز الضبعي الشاعر مساعداً له، فتوجهوا إلى عين التمر لمقاتلة قوات مروان بن محمد إلّا أنهم هزموا وقتلوا هناك، وعلم الضحاك ان جبهة قواته على الكوفة تعاني من الضعف، فأرسل إليها أحد أهم فرسان ربيعة وهو عبيدة بن سوّار التغلبيّ، وعين على الكوفة امير من فرسان ربيعة أيضاً بدلاً من العائذي وهو عبد الرحمن بن بشير العجليّ من اللهازم.

واستمر القتال والمواجهة، وعرف مروان ان قواده لا قبل لهم بالضحاك وخاصة ان معه اثنين من كبار بني امية وجموع ربيعة، فقرر أن يسير هو بنفسه إلى العراق على رأس جيش كبير من أهل الشام.

نهاية حركة الضحاك بن قيس سنة ١٢٩هـ

التقى مروان بجنود الضحاك عند منقطة تسمى (كفر توتا) من بلاد ربيعة، وهزم الضحاك هنا للمروة الأولى وقتل، وتولى بعده ابن الخيبري القيادة إلّا أنه هزم أيضاً ولقي مصير الضحاك.

= عبد الشافي محمد من جامعة الازهر في القاهرة.

ثم تولى امر ربيعة شيبان بن عبد العزيز الشيباني، وقاتل بشراسة إلّا أنه حاول الانسحاب للموصل، وطارده مروان هناك وهزمه بعد معارك شرسه فهرب إلى سجستان في فارس وانضم لمحارب اليشكري تحت قيادة عبدالله بن معاوية بن جعفر، وبهذا انهى مروان الحمار اخطر ثورة ضد بني امية قبيل فترة قصيرة من انفجار ثورة بني هاشم ضده وقيام الدولة العباسية.

شيبان بن عبد العزيز وظهور شخصية معن بن زائدة الشيباني:

وبعد هروب شيبان بن عبد العزيز آخر خلفاء الضحاك، التقى ببلاد فارس عبدالله بن معاوية بن جعفر، وانضم إلى رايته إلى جانب محارب اليشكري، ومعهم جمع من ربيعة، وتولى قتالهم يزيد بن أبي هبيرة من ولاة بني امية في العراق، وحرص ابن هبيرة ان يطبق حكمة (لايفل الحديد الا الحديد) فعمد إلى أحد فرسان ربيعة المغاوير وهو معن بن زائدة بن مطر الشيباني وجعله في مقدمة من يقاتل بهم جموع ربيعة المنضوية تحت راية عبدالله بن معاوية، واظهر معن شجاعة فائقة في القتال ضد عبدالله بن معاوية الذي لم يلبث إلّا أن انهزم امام معن بن زائدة وهرب إلى أبي مسلم محاولاً الانضمام إليه إلّا أن اتباع أبي مسلم رفضوه، اما شيبان بن عبد العزيز فقد قتل على يد أبي الدلفاء اليشكري أحد قواد معن بن زائدة، وقد اشتهر امر معن وأصبح من كبار الاعيان بعد العصر الاموي وبدايات العباسي كما سنرى.

وتميزت سياسة مروان في قتاله للضحاك وخلفائه من ربيعة في اتباعه للحكمة (لا يفل الحديد إلّا الحديد) فقد عمد إلى استمالة الربعيين وتخفيف ما يشعرون به من تمييز من قبل ولاة بني امية المتعصبين لقيس عيلان، ولعل هذه السياسة اتبعها هشام قبل مروان وان جاءت متأخرة، ونستنتجها من عفو هشام عن العنزي الخارج بالموصل، واعتماد مروان

بعد ذلك على عدد من فرسان ربيعة في قتال الضحاك وخلفائه مثل أبو الدلفاء اليشكري وهو من قتل شيبان الشيباني آخر خلفاء الضحاك في سجستان.

امتداد الثورات الربعية إلى اليمامة:

امتد الثورات الربعية المناهضة لولاة بني أمية القيسيين من العراق إلى اليمامة، حيث كانت اليمامة ديار بكر بن وائل ومن بها من ربيعة من عنزة وضبيعة، إلّا أن ولاة بني امية كانوا دائماً يصادرون ديار ربيعة في تلك الناحية، ويعطونها بالمقابل لبطون من مضر وخاصة قيس عيلان وتميم، وبل وان أحد اهم أسباب ضعف بني حنيفة ودخولها في بني عجل من اللهازم هو تسلط القيسية، فنجد الشاعر موسى بن جابر الحنفي[1] يصف تحول بني حنيفة إلى اللهازم بقوله:

وجدنا أبانا كان حل ببلدةٍ	سوًى بين قيسٍ قيس عيلان والفزر
فلما نأت عنا العشيرة كلها	أقمنا وحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا بعد في يوم وقعةٍ	ولا نحن أغمدنا السيوف على وتر

وقد سبق وان فصلنا سبب ضعف بني حنيفة وهي التي كانت تشكل قبيلاً مستقلاً ليس عن بكر بن وائل فحسب بل وعن سائر اخوانها من ربيعة.

وقد كانت اليمامة تتبع العراق اداريًّا، وبالتالي فإن الصراع القيسي الربعي المشتعل في سواد العراق اشتعل أيضاً بالتزامن في اليمامة.

(١) هو موسى بن جابر الحنفي، من شعراء ربيعة المكثرين، وهو من المخضرمين الذي عاصروا الإسلام والجاهلية، يلقب بابن الفريعة وقصائده منتشر إلّا أن حياته ومواقفه ليس لها انتشار بالكتب.

ويبدو أن ربيعة كانت قد استغلت الضعف الذي دب في البيت الاموي الحاكم لتعلن ثوراتها المتتابعة ضد قبائل قيس ومنها ثورة المهير بن هلال الحنفي كبير ربيعة في اليمامة سنة ١٢٦هـ وقد تزامنت هذه الثورة مع ثورة الربعيين في العراق بنفس السنة.

اشتعال الحرب الكبرى في اليمامة بين قيس عيلان وربيعة سنة ١٢٦هـ

واشعلها كما قلنا المهير الحنفي، فقد كان والي اليمامة من بني كلاب بن عامر من قيس عيلان واسمه علي بن المهاجر.

جمع المهير جموع من بني حنيفة ومن معهم من ربيعة، وقال لابن المهاجر أن يخرج لأن البلاد بلاده وليس له فيها طاعة ومن هنا بدأت هذه الحرب الكبرى.

يوم القاع:

وهو اول المعارك بين الطرفين، حيث رفض علي بن المهاجر طلب المهير الحنفي بمغادرة البلاد هو وقبيلته بني عامر وقيس عيلان، فحاربه المهير والتقت قوات الطرفين في حجر وهي منطقة الرياض اليوم، وفي مكان يقال له (القاع) وانتصر المهير انتصاراً باهراً وقال يفتخر:

بذلت نصيحتي لبني كلاب   فلم تقبل مشوراتي ونصحي
فدى لبني حنيفة من سواهم   فإنهم فوارس كل فتح

وأصبح المهير الحنفي أميراً على اليمامة، فشنّ الغارات على بطون قيس في نجد مثل عقيل وكلاب ونمير وهلال حتى قال أحد شعرائهم:

لقد جمع المهير لنا فقلنا   ألسنا نحن عرضتنا الجموع

ثم مات المهير الحنفي، وتسيد بعده حامل لواء ربيعة عبدالله بن

نعمان من قيس بن ثعلبة من اللهازم، فاستولى على الفلج وضمه إليه واخرج من به من بطون قيس وهم بنو كعب بن عامر، وضع المندلث بن ادريس الحنفي أميراً على الفلج.

يوم الفلج الأول:

وهو للمندلث بن ادريس الحنفي، حيث تجمعت بطون بني قيس عيلان وهم عامر (بنو كعب ونمير وكلاب) كل هؤلاء تجمعوا ضد ربيعة في الفلج، ثم انهزم المندلث وقتل، وانتصر بنو عامر في هذه الوقعة، وقتلوا أغلب ربيعة في الفلج ومنهم يزيد بن المندثر.

يوم الفلج الثاني:

وعلم عبدالله بن النعمان البكري خليفة المهير الحنفي بما حدث لقومه بالفلج على يد قبائل قيس، فسار إليهم وهم بقيادة أبو لطيفة العقيلي العامري الذي لم يلبث إلّا أن انهزم امام جموع ربيعة القادمة إليه بقيادة عبدالله، فقال الشاعر سوار بن عمرو الهزاني من عنزة (بالولاء) مفتخراً:

سلوا الفلج العاديّ عنا وعنكم ... وأُطمة إذ سالت مدامعها دما
عشيّة لو شئنا سبينا نساءكم ... ولكن صفحنا عفّة وتكرّما

ثم تفاخر شعراء ربيعة:

سمونا لكعبٍ بالصفائح والقنا ... وبالخيل شعثاً تنتحي في الشّكائم
فما غاب قرن الشمس حتى رأيتنا ... نسوق بني كعبٍ كسوق البهائم
بضربٍ يزيل الهام عن سكناته ... وطعنٍ كأفواه المزاد الشّواجم
وفر أبوك يا لطيفة هارباً ... ولم ينج من أسيافنا وهو سالم

ولا شك أن هذه المعارك تستغل فترة الفوضى وبعد اليمامة عن

مواطن صناعة القرار في دمشق، كما انها امتداد لثورة ربيعة في العراق والتي صنفت تحت مسمى الخوارج.

يوم معدن الصحراء:

بعد يوم الفلج الثاني تجمعت جموع بني عامر قيس، وقرروا الانتقام من انتصار ربيعة في الفلج، فعمدوا إلى منطقة معدن الصحراء لعلمهم ان بها جموعا من حنيفة، ورغم ان بني حنيفة في معدن الصحراء لم يكونا من المقاتلين بل كانوا جمعا من بادية ربيعة الرحل إلّا أن بني عامر قرروا الانتقام عن طريق الاغارة عليهم وقتلهم.

فهجم بن عامر وقتلوا الرجال، وسبوا النساء رغم ان هذا ممنوع بعرف قبائل العرب، حتى ان هناك من بني عامر وهم نمير تحديدا لم يخالفوا هذا التقليد العربي وطلبوا من بني عمهم الكف عن السبي لحرائر العرب.

وقال شعراء بني عامر يفتخرون على بكر بن وائل:

ورثنا أبانا عامراً مشرفيةً   صفائح فيها اليوم أنصاف ما بها

ضربنا بها أعناق بكر بن وائل   جهاراً وجاوزنا بها من ورائها

يوم النشاش:

كان زعيم ربيعة في نجد كما قدمنا هو عبدالله بن النعمان، وعندما علم أحد فرسان بني حنيفة (وهو عمر بن الوازع الحنفي) بماحل بقومه ونسائه بمعدن الصحراء قرر بنفسه الانتقام وعدم انتظار اغارة زعيم ربيعة ولم يطق صبراً وذهب إلى قرية (اضاخ) في نجد وبها من بني عامر جمع فأغار عليه وغنم منهم.

ويبدو أنه اراد استنهاضهم ليقاتلهم، وحدث ذلك فعلاً وهبّ العامريون من كل صوب وأكثرهم من نمير بن عامر، وقاتلهم عمر بن

الوازع إلّا أنه هزم هزيمة شديدة، وتفرق اصاحبه مات أكثر بني حنيفة من العطش، وقال بعض بني نمبر عدد من قصائد الفخر بهذا اليوم منها قول حديج النميري:

كـأنّ أبـانـا عـامـراً لـم يـلـد لـنـا   أخاً غير نصل السّيف عند الشدائد

فنحن نداوي بالقنا صفحاتهم   وبالبيض نخليها مناط القلائد

وقال أحدهم وهو دلم النميري يؤكد التعصب المضري ضد ربيعة:

أنا النّميري الذي يحمي مضر   يرفع من أبصارهم فوق البصر

وقال القحيف العامري:

تركنا على النشّاش بكر بن وائل   بطون السّباع العاويات قبورها

قتلناهم حتى رفعنا أكفّنا   بمشهورةٍ بيضٍ حدادٍ ذكورها

وشيبان قد كانت لحينٍ وشقوةٍ   كباحثة عن شفرةٍ تستثيرها

وقال القحيف أيضاً:

من مبلغٌ عنا قريشاً رسالةً   وأفناء قيسٍ سارت وحلّت

بأنا تركنا من حنيفة بعدما   أغارت على أهل الحمى ثم ولّت

تسكّ نميرٌ بالقنا صفحاتهم   فكم ثمّ من نذرٍ لها قد أحلّت

وفي الأبيات الأخيرة اشارة ضمنية لقول عزيز الضبعي عند ثورة الضحاك بن قيس الشيباني التي تزامنت مع هذه المعارك في نجد وهي قول عزيز في شعره:

الـم تـرى ان الله اظـهـر نـصـره   وصلت قريش خلف بكر بن وائل

ولم يقم لبني حنيفة بعد هذا أو حتى بكر أي جمع يذكر لمقاومة التمدد العامري في اليمامة، وزاد الأمور تعقيدا هو ان مروان الحمار قام بتعيين أحد أكثر المتعصبين لقيس والياً على اليمامة، فجاء وجمع بني عامر وتشاهدوا على قبائل بكر في اليمامة.

ويبدو أن قلة وتقلص التواجد الربعي في اليمامة كان اهم العوامل التي ادت إلى هزائمهم امام بني عامر، مقابل هذا كانت الجمهرة والسواد الاعظم من ربيعة في العراق وخراسان غارقة ومتورطة في تصارع التيارات السياسية، إضافة إلى التعصب ضد كل ما هو ربعي، وقد انتهت هذه السياسة باستيلاء كامل لبني عامر على اليمامة مقابل اختفاء ربيعة منها منذ منتصف القرن الثاني الهجري وما بعده، واستوطنها بعدهم بنو نمير وكلاب وعقيل بن عامر وهم عرب اليمامة بعد القرن الثاني الهجري وما بعده إلى منتصف السابع الهجري.

دور قبيلة ربيعة في التمهيد لقيام الدولة العباسية

وسط هذا التعصب الذي يعانيه ابناء ربيعة من قبل ولاة مضر، كان لا بد لهم الاستجابة لأي ثورة تخلصهم من الظلم أو تزيح هذا الكابوس، ورأينا كيف ثار الربعيين بانفسهم مثل ما حدث في الكوفة على يد بن القعقاع والذي تحول إلى بيعة غير موفقة لعبدالله بن معاوية بن جعفر.

ويعلم الربعيين ان أي ثورة باسم احدهم ستصنف كخروج غير شرعي على الحكام الذي من المفترض ان يكونوا من قريش فقط، ولهذا السبب كانوا قد بايعوا عبدالله بن معاوية الجعفري مع علمهم بعدم اهليته الا كونه من قريش مما يعطي ثورتهم طابعاً شرعيًّا.

وكانت الدعوة العباسية قد نشطت مبكراً ومن سنة ١٠٠هـ على يد الداعية أبي مسلم الخراساني وبشكل سري، فإن علمنا ان ان أبا مسلم كان من موالي ربيعة وتحديدا بني عجل من اللهازم، إضافة إلى رفع العباسيين شعار المساواة بين الناس، ثم كون آل محمد من قريش فلهم اذن شرعية الخلافة، فهذه اذن عوامل مساعدة جدًّا وكافية لأن ينضم الربعيين لثورة أبي مسلم الخراساني التي اصبحت علنية سنة ١٢٩هـ،

وقبل ظهور الدعوة العباسية بأشهر تمكن الامويين من قتل شيبان بن عبد العزيز في خراسان، وهو الذي كان خليفة للضحاك وللخيبري الثائرين في العراق، وقد رجل إلى خراسان بعد أن هزم في عين التمر سنة ١٢٧هـ وقد قدمنا ذلك في الحديث عن ثورة الضحاك بن قيس الشيباني.

وكانت قبائل ربيعة والازد لا زالت محكومة بالحديد والنار، وقد هزمت ثوراتها في كل من العراق واليمامة، ووتولى امرها امير خراسان في ذلك العهد نصر بن سيار الليثي، وهو كما قدمنا كان يكره الربعيين لميلهم إلى الازد وهم الذين يعتبرون في نظر نصر وقومه من قيس عيلان ليسوا عرباً.

ووسط هذه الاحتقانات عرف بني العباس ان الاجواء منسية لاعلان ثورتهم، وانهم سيضمنون بلا شك ولاء ربيعة والازد، ولذلك اعلنوا ثورة آل محمد في رمضان سنة ١٢٩هـ.

وكان كبير قبائل الازد هو جديع الكرماني حليف ربيعة، وقد قاتل مع شيبان بن عبد العزيز قبل مقتل الأخير على يد قوات نصر.

ثورة ربيعة والازد ضد نصر بن سيار:

لم يظهر الربعيين وحلفائهم الازد أي ولاء ظاهر وعلني لابي مسلم الخراساني، واستمروا بتبعيتهم إلى نصر منذ سنة ١٠٦هـ إلى هذه السنة التي هي سنة ١٢٩هـ.

ففي هذه السنة وبعد ظهور الدعوة العباسية، اخذ نصر يوادع ربيعة والازد لكي يضمن وقوفهم معه عند المواجهة مع أبي مسلم الخراساني الذي كان لا زال على الاطراف وجيشه اغلبه موالي ويكاد يخلوا من القبائل.

ومع ذلك يبدو أن أبا مسلم كان يدس في صفوف القبائل من يوقد

الفتنة، ومنها شعر انتشر يذم الازد وقبائل قحطان ويمجد مقابل ذلك بمضر:

ولو كانت بنو قحطان عرباً لما ذهبت صنائعه ضلالا

وكان جديع بن علي زعيم الازد يلوم نصر على ذلك ويغلظ له بالقول، فارتكب نصر بن سيار غلطته القاتلة وامر بضرب جديع الزعيم وحبسه سنة ١٣٠هـ.

إلّا أن جديع الكماني هرب من السجن، وجمع جموع الازد واستعد لمقاتلة نصر الذي ورط نفسه بحماقته.

جديع الكرماني يجدد الحلف الازدي الربعي:

نقلنا في بداية العصر الاموي وتحديداً في حرب ربيعة وتميم سنة ٦٤هـ أن بكر بن وائل وسائر ربيعة كانوا دوماً حلفاء للأزد طوال العهد الاموي، ويشتركون في العداوة لكل قبائل مضر من قيس عيلان وتميم، وتعود جذور هذا التحالف إلى ايام ملوك حمير في اليمن ومنذ الجاهلية، قرر جديع الكرماني احياء هذا الحلف فأرسل إلى أحد ابناء سلالة حمير والذين يحتفظون بوثيقة الحلف ليعرضها على ربيعة ويطلب بموجبها منهم الانضمام للقتال ضد نصر بن سيار عدوهم المشترك. وهذا نص الوثيقة منقولة من كتاب (الاخبار الطوال) لأبي حنيفة الدينوري:

«بسم الله العلي الأعظم، الماجد المنعم، هذا ما احتلف عليه آل قحطان وربيعة الأخوان، احتلفوا على السواء السوا، والأواصر والإخا، ما احتذى رجل حذا، وما راح راكب واغتدى، يحمله الصغار عن الكبار، والأشرار عن الأخيار. آخر الدهر والأبد، إلى أنقضاء مدة الأمد، وانقراض الآباء والولد، حلف يوطأ ويثب، ما طلع نجم وغرب، خلطوا عليه دماهم، عند ملك أرضاهم، خلطها بخمر وسقاهم، جز من نوصيهم أشعارهم، وقلم عن أناملهم أظفارهم، فجمع ذلك في صر،

ودفنه تحت ماء غمر، في جوف قعر بحر آخر الدهر، لا سهو فيه ولا نسيان، ولا غدر ولا خذلان، بعقد موكد شديد، إلى آخر الدهر الأبيد، ما دعا صبي أباه، وما حلب عبد في إناه، تحمل عليه الحوامل، وتقبل عليه القوابل، ما حل بعد عام قابل، عليه المحيا والممات، حتى ييبس الفرات، وكتب في الشهر الأصم عند ملك أخي ذمم، تبع بن ملكيكرب، معدن الفضل والحسب، عليهم جميعاً كفل، وشهد الله الأجل، الذي ما شاء فعل، عقله من عقل، وجهله من جهل». انتهى

وهكذا دارت الايام واعاد التاريخ نفسه، فكانت بكر ايام زعيمها وزعيم ربيعة مالك بن مسمع قد طلبت الحلف مع الازد ضد تميم وسخر منها وقتها بعض الازد، هاهم الازد اليوم هم من يطلب الحلف، بل ان زعيمهم يضطر إلى أن يجد نص الحلف بوثيقة عند آخر رجل موجود من سلالة ملوك حمير وهو عمر بن إبراهيم.

وهكذا اجتمعت الازد وقبائل ربيعة ضد نصر ومن معه من تميم وقيس عيلان، وابا مسلم يشاهد هذا الوضع ولم يتدخل لنصرة أي طرف، وقدا ربيعة وفرسانها كل من المثنى الربعي وابا الميلاء، واشتد القتال بين الطرفين، وهزم نصر وقتل ابنه، ثم طلب الصلح من جديع الرماني ومن ربيعة خوفاً من ان تعطي هذه الفتنة الفرصة لابي مسلم الخراساني.

ابلغ جديع نصر بن سيار ان دافعه للخروج هو كره نصر للازد وتعصبه لقومه، واقترح على نصر ان يعتزل امر خراسان وان يولى عليها وعلى جميع عربها رجل من ربيعة كطرف محايد، فرفض نصر عرض جديع الكرماني، بزعم ان تعيين رجل من ربيعة يرفضه الخليفة مروان بن محمد.

جديع الكرماني وربيعة ينضمون لابي مسلم الخراساني:

كان أبو مسلم يدعو بالخلافة للامام إبراهيم بن محمد من احفاد

عبدالله بن عباس الصاحبي المعروف، لكن محمداً هذا قتل في الاردن على يد جنود مروان في الوقت الذي كان أبو مسلم يدعوا له في خراسان، وبعد مقتله بايع شيعة بني العباس أبو العباس والذي لقب فيما بعد بـ (السفاح).

امر أبو العباس ببدْ الثورة في خراسان ومراسلة جديع الرماني وقبائل ربيعة واخذ البيعة منها للدولة الجديدة، فاسقط في يد نصر بن سيار الليثي، وعرف انه الآن سيحصد نتائج تكبره وشماتته بربيعة والازد، فكما كان يسخر من ربيعة عند انتصاره عليهم سنة ١٠٦هـ هاهو الآن يغير لهجته ويخاطب ربيعة قائلاً:

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها	أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تلحقون الحرب بينكم	كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم	ممن تأشب، لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا، فنعرفهم	ولا صميم الموالي، إن هم نسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسول، ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم	فإن دينهم أن تقتل العرب

وهو هنا يتهم أبا مسلم بأن دعوته غير عربية وضد العرب، وان على الربعيين عدم الانضمام لها، ولكن ربيعة لم تعره اهتماماً بل استمرت على عقد ولائها للعباسيين، ففكر نصر بالانتقام من جديع حليف ربيعة، فراسله قائلاً انه موافق على تعيين امر خراسان لرجل من ربيعة كما طلب جديع الكرماني سابقاً، فذهب له جديع إلّا أنه غدر به وقتله وصلبه، وقال في شعره يؤكد ان كرهه لربيعة كان بسبب حلفهم مع الازد:

لعمري، لقد كانت ربيعة ظافرت	عدوي بغدر حين خابت جدودها
وقد غمزوا مني قناة صليبة	شديداً على م رامها الكسر عودها
وكنت لها حصناً، وكهفاً، جنة	يؤول إلي، كهلها، ووليدها

فمالوا إلى السوءات، ثم تعذروا وهل يفعل السوءات إلا مريدها؟
فأوردت كرمانيها الموت عنوة كذاك منايا الناس يدنو بعيدها

وبقتل نصر للكرماني زعيم الازد، وانضم الأخيرين - ومعهم ربيعة - إلى الدعوة العباسية وقاتلوا في صفوفها، وهرب نصر بعدها إلى قرية همذان ومرض بها وتوفي سنة ١٣١هـ، وتزلزلت اركان الدولة الاموية، وهرب مروان بن محمد إلى مصر ولحقته الجيوش العباسية فيما بعده وقتل، وزحفت جيوش بني العباس إلى العراق واستولت عليه سنة ١٣١هـ بجيش اغلبه من ربيعة والازد وطيئ، وعادت ربيعة إلى ديارها في العراق عزيزة الجانب بعد أن زال الولاة المتعصبون من قيس، وتقلص النفوذ القيس عيلاني في العراق وانكفت معظم بطونهم إلى نجد وخاصة بني نمير وكلاب وعقيل، وليس ادل من ان الربعيين تأثروا بدعوات العباسيين من كون داعي دعاته السريين في الكوفة هو ميسر العبدي من عبد القيس ربيعة، وكذلك وجود شخصيات ربعية ضمن النقباء الاثني عشر المراقبين من قبل الدعاة والمرتبطين فيهم منذ انطلاق دعوتهم بين عامي ١٠٠هـ و١٠٥هـ، منهم خالد بن إبراهيم الذهلي الشيباني، وشبل بن طهمان الحنفي وهو من موالي حنيفة وغيرهم..

ثم انه وبعد أن عرف العباسيين ان الوقت قد حان لاستئصال بني امية حركوا قواته وقبائلهم الموالية صوب العراق وبلاد ربيعة، وتساقط ولاة بني امية بعد مقاومة ضعيفة، ويهمنا هنا ان نركز على يزيد بن أبي هبيرة والذي كان معن بن زائدة الشيباني أحد اهم قواده، وقد واجه قوات بني العباس ببلاد ربيعة ومعه معن إلّا أنهم هزموا سنة ١٣٢هـ، واستسلم ابن أبي هبيرة، اما معن فقد اختفى عن الانظار خوفاً من أبي مسلم الخراساني وقواد الدولة العباسية الذي قتلوا كل الاسرى من قواد بني امية أو من قاتل معهم، وظل معن متخفياً حتى عهد الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور الذي قربه وعفا عنه.

ملاحظات على تاريخ ربيعة في العهد الاموي

وبعد هذا السرد التاريخي لتاريخ ربيعة طوال عهد الاموي نلاحظ عدة أمور، منها ان ربيعة ظلت موحدة باسمها وبطونها، لم تتفرق هذه البطون كل على حدة كما قد يظن البعض، فعنزة وضبيعة الذين التحقوا ببكر بن وائل ودخلوا فيها هم كذلك طوال العهد الاموي وفي بطن الذهلين واللهازم على التوالي، وقلما نجد حادثة ربعية ليس فيها رموز من كل بطن ربيعة من بكر وضبيعة وتغلب مجتمعين، خلافاً لمن يقول بتفرق ربيعة عن بعضها وصيرورة كل بطن لوحده بتاريخ وظروف مختلفة، فقد كانت ظروفهم واحدة، وفي نطاق جغرافي مواحد مسرحه ثلاث مناطق في العهد الاموي وهي العراق بما ذلك الجزيرة الفراتية، وخراسان واليمامة، ولم يسجل التاريخ تجمعاً ربعيًّا خارج نطاق هذه المناطق، ما عدا ما ذكر من الجاهلية بأن بني عنز بن وائل مواطنهم اليمن.

ومما يدل على ان ربيعة كانت موحدة طوال العهد الاموي وبعد ظهور موجة التعصب هو ان المؤرخين ذكروا دائماً ربيعة باسمها الجامع (ربيعة).

كما يظهر لنا من خلال الاستقراء ان ربيعة كانت مقدرة عند ولاة بني امية إلى ماقبل عهد هشام بن عبد الملك، ولاعجب في تقدير بني مروان لقبيلة ربيعة وهي التي ساعدة مروان بن الحكم عندما انقذته عنزة في معركة الجمل فحفظ لهم المعروف وفرض لهم الفرائض، وامر الحجاج بن يوسف بتقدير شيخهم وكبيرهم مالك بن مسمع الجحدري وتقريبه واستشارته.

لكن ربيعة ومنذ وفاة مالك بن مسمع سنة ٧٤هـ لم تحظى بزعيم بنفس مواصفاته، حليم حكيم قادر على تحديد خط سير قبيلتهوالابتعاد بها

عن الصراعات السياسية، ففقد الربعيون تبعاً لذلك قائداً بمكانهطوال العهد الاموي كله فلم تجتمع كلمتهم وتنظم صفوفهم بالشكل المطلوب.

ونلاحظ شبه اختفاء لبني تغلب ومسماهم ايام العصر الاموي وفي اشد ظروف التعصب ضد ربيعة، طبعاً باستثناء حربهم في القرن الأول ومنذ سنة ٧٠هـ مع قبائل قيس في الجزيرة الفراتية، ولكن وبعد ظهور ولاة التعصب وبدء الثورات الربعية منذ سنة ١٠٦هـ لم يظهر قائد تغلبي واحد، وكل القواد أو اغلبهم من بني شيبان أو من اللهازم من عنزة وقيس بن ثعلبة وبني عجل.

ويظهر لنا ان تغلب بدأت بالانضواء في قبيلة اللهازم في تلك الفترة، وبدأ الإسلام ينتشر بينهم بتأثير ابناء عمهم الآخرين من ربيعة ولارتباط الإسلام بالحمية العربية وخاصة في العصر العباسي، ويزداد تقاربهم مع بعضهم البعض، وسنرى ان التقارب بلغ ذروته وتحدت ربيعة من جديد ايام الدولة الحمدانية الربعية كما سنذكر في مكانه.

الفصل السادس

ربيعة في العصر العباسي الأول (١٣٢هـ - ٢٥٠هـ)

يقصد بالعصر العباسي الأول هو الممتد منذ وقت بيعة أبي العباس السفاح وحتى نهاية الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ، وفي هذه الفترة كان البيت العباسي قويًّا، اما ما بعد المتوكل ضعف امر الخلفاء وأصبحوا سلالة حاكمة لا قوة لها الا كونها من آل بيت المحمدي ولهذا بقيت موجودة حتى سنة ٦٥٦هـ رغم ضعفها، ولم يكن لها تأثير كبير على مجريات الدولة اذ ظهرت سلالات حاكمة غيرها وحكمت باسمها.

ونحن هنا معنيين بوضعية قبيلة ربيعة في اوائل العهد العباسي، حيث أنتهت العصبية المضرية وضعف امر قبائل قيس عيلان في المنطقة وانكفت بطونهم إلى نجد حيث شكلوا هناك اعراباً رحل لم تقف لهم سلطة، فاخذوا يمتهنون الغزو على قوافل المسافرين والحجاج، وكثر افسادهم وسجل التاريخ كثير من حوادثهم ابرزهم حربهم وانتفاضتهم سنة ٢٣٠هـ، ثم قيام الدولة القرمطية على سواعدهم وهي الحركة الاخطر في تاريخ الإسلام والعرب عموماً، وفي مقابل تقلص قيس عيلان في العراق وشمال جزيرة العرب اصبح أكثر التواجد هناك لربيعة ثم الازد وقبائل قضاعة في الشام، ولذلك اصبحت اغلب الصراعات القبلية التي وجدت لربيعة في العهد العباسي هي مع الازد وبطونهم من همدان وغيرها ورغم انهم حلفاء ضد قيس ايام بني امية.

أما ربيعة فقد تركزت في ديارها التي عرفت باسمها ومركزها الموصل وانعدم أو تقلص تواجدها بنجد تلك الفترة، واعيد لهم الكثير من اعتبارهم في عهدي أبي العباس السفاح وأخوه المنصور، واعيدت لهم الديار مثل عين التمر والموصل والانبار والجزيرة وهي المناطق التي كانت مسرح تاريخهم طوال العصر العباسي الأول، فمن هذه المناطق ظهر اعيانهم وشعرائهم وفرسانهم في تلك الفترة، ولم يثني هذا بعض فرسانهم من التمرد على السلطة من حين لآخر، ومع ذلك يمكننا ان نقول ان العصر العباسي شهد استقرار الاوضاع السياسية والحربية وظهور المجمتع المدني أكثر من المجتمع العسكري.

وكان اول خليفة عباسي كما قدمنا هو أبو العباس السفاح، ثم تولى بعده أبو جعفر المنصور وهو باني مدينة بغداد، وكان ميالاً للعرب وقبائلهم، وعمل على تنظيف السمعة المشوهة والتي روجت ان الخلافة العباسية تتعص ضد العرب وتفضل العجم عليهم.

لقاء أبي جعفر المنصور بمعن بن زائدة الشيباني:

آخر ماقدمناه عن معن هو مقاتلته لجنود أبي مسلم الخراساني اواخر الدولة الاموية مع ابن أبي هبيرة، وقلنا ان معن هذا هرب واختفى وعجزت السلطات العباسية عن اعتقاله.

ثم لاحت لمعن بن زائدة فرصة في الظهور بعد وفاة أبي العباس السفاح سنة ١٣٧هـ، وعرف معن تقدير أبو جعفر المنصور للعرب، وبدا يتحين الفرصة للاتصال بالمنصور.

وواتت معن بن زائدة الفرصة عندما جاءت طائفة يقال لهم (الراوندية) تطوف حول قصر المنصر وتدعي انه إلّه، فقام المنصور بمحاربة هذه الفئة رغم انها تغالي في حبه إلى درجة التأليه، فلما قاوم المنصور هؤلاء ثبتوا في حربهم، ولم ينقذ المنصور إلّا قدوم فارس ملثم

من ديار ربيعة يشترك فجاة في حرب الراوندية، ثم يقدم معن إلى المنصور ويستأذن من الحاجب ويقول المنصور: من بالباب؟

فيقال: معن بن زائدة الشيباني. .

وهنا وبدلاً من يفرح المنصور بالقبض على عدوه الذي قاتل العباسيين مع بني امية نجده يقول عنه:

رجل من العرب شديد النفس عالم بالحرب كريم الحسب أدخله، فلما دخل قال المنصور: إيه يا معن! ما الرأي قال: الرأي أن تنادي في الناس وتأمر لهم بالأموال فقال المنصور: وأين الناس والأموال ومن يقدم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج!

وأخذ أبو جعفر المنصور بقول معن، وحارب الاثنان جماعة الراوندية، وهزموها، ثم اختفى معن عن الانظار مرة أخرى خوفاً من أبو جعفر المنصور، فطلبه أبو جعفر وأمنه وأمر له بالأموال، وأصبح معن من كبار رجال الدولة العباسية وامير ربيعة وكبيرها، ثم عينه أميراً على اليمن ونقله بعد ذلك إلى العراق وعقب هناك ذرية عرفت باسمه (بني معن) ضمن بطون ربيعة، بل هم أمرائها وأشرافها، وبعد أن تولى معن ادارة اليمن نقل إلى العراق فجمع قبيلة ربيعة وطلب لها الاعطيات وطور في بلادها وكان بحق الأمير الربعي الثاني بعد مالك بن مسمع، ثم عينه المنصور على سجستان لقتال الخوارج من تميم، فابلي بلاءً حسناً إلّا أنهم قتلوه سنة ١٥٢هـ رحمه الله.

وقد اثبت معن بن زائدة زعامته وحميته لقومه من ربيعة في حادثة نقلها الطبري المؤرخ وهو يتحدث عن مناقب المنصور وسيرته، وفيها ان بعض من خواص المنصور من قبائل الازد وغيرها حسدوا قبائل ربيعة ومكانتها عند المنصور، وخاصة بعد أن بدأ معن يوزع جزء من ثروته على ربيعة، واعطائه للشاعر ابن أبي حفص وهو من بني حنيفة مائة الف

درهم، فدسوا عند المنصور ما يسيء لمعن الشيباني وقبيلة ربيعة وانهم ينهكون ميزانية الدولة وتأثر المنصور بوشايتهم وارسل إلى معن وقال له:

هل تعطي مروان بني أبي حفصه مئة الف درهم على قوله الشعر بمدحك!؟[1]

وكان معن حاكماً في اليمن وقتئذٍ، فلما وصله خبر هؤلاء الوشاة قال:

قد أفنيت عمري في طاعته وأتعبت نفسي وأفنيت رجالي في حرب اليمن ثم يسخط علي أن أنفقت المال في طاعته!

وقام معن بعد ذلك كما ذكر الطبري بإرسال وفد من عشيرة ربيعة على رأسهم رجل اسمه مجاعة بن الازهر الربعي، ومعهم رسالة من معن لأمير المؤمنين المنصور، وكان بالمجلس بعض من مضر والازد وهم أصحاب الوشاية، فنهر المنصور وفد معن وطردهم من مجلسه، ثم أمر بهم وكرروا رسالة معن، وسال المنصور عن رأي الوفد بمعن بن زائدة بعدما كذبهم هو، فقال مجاعة: لن نكذب في صاحبنا!

فأعجب المنصور بشجاعتهم، وقال للواشين:

هل تعرفون فيكم مثل هذا؟ والله لقد تكلم حتى حسدته، وما منعني أن أتم على رده إلا أن يقال: تعصب عليه لأنه ربعي، وما رأيت كاليوم رجلاً أربط جأشاً، ولا أظهر بياناً[2].

---

(١) وكان مروان بن أبي حفصة الحنفي قد مدح معن بن زائدة بشعر منه:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان

ويجدر بالذكر ان نقول ان والد مروان هو أبي حفصة الحنفي، وهو الذي انقذ مروان بن الحكم الاموي بمعركة الجمل وهرب به إلى ربيعة فعولج من جرحه عند قبيلة عنزة ودخل بحماية مالك بن مسمع، وقد نقلنا ذلك في الحديث عن قبيلة بكر بن وائل يوم الجمل سنة ٣٦هـ.

(٢) تاريخ الطبري.

ثم سأل المنصور الوفد الربعي عن حاجته، فتقدم مجاعة رئيس وفد ربيعة وقال:

معن بن زائدة عبدك وسيفك وسهمك، رميت به عدوك، فضرب وطعن ورمى، حتى سهل ما حزن، وذل ما صعب، واستوى ما كان معوجاً من اليمن، فأصبحوا من خول أمير المؤمنين أطال الله بقاءه! فإن كان في نفس أمير المؤمنين هنة من ساعٍ أو واشٍ أو حاسد فأمير المؤمنين أولى بالتفضل على عبده، ومن أفنى عمره في طاعته.

فعرف المنصور قدر معن وعشيرته، وقبل الوفد وأجازهم بأموال وطلب منهم التأكيد على انه راضٍ عن معن وعن عشيرته، وقال مجاعة الربعي:

آليت في مجلس من وائل قسما ألا أبيعك يا معن بأطماع

يا معن إنك قد أوليتني نعماً عمت لجيماً وخصت آل مجاع

فلا أزال إليك الدهر منقطعاً حتى يشيد بهلكي هتفة الناعي

وقد ابلى معن في تأديب قبائل اليمن الثائرة وردها إلى طاعة بني العباس، بعد أن اصبحت اليمن ملاذا لبعض الخارجين على السلطة من الفرع الهاشمي الآخر وهم بني علي بن أبي طالب، ويذكر ان معن قتل خلقاً كثيراً من أهل اليمن الشيعة، فلما تولى اليمامة سنة ١٥٢هـ أحد قواد الازد وهو عقبة بن سلم الهنائي قتل كل من وجد بها من قبيلة ربيعة وطردهم وسباهم انتقاماً من معن، وكان يقول: لو كان معن على فرس جواد وأنا على حمار أعرج لسبقته إلى النار وسبى العرب والموالي[(١)]

خوارج من ربيعة في عهد أبو جعفر المنصور (١٣٧هـ - ١٥٨هـ):

ويبدو أن بعض فرسان ربيعة في الجزيرة كانوا تواقين للخروج

(١) تاريخ اليعقوبي لسنة ١٥٢هـ.

خاصة في الفترة التي غاب فيها الزعيم معن بن زائدة في اليمن، ليس بسبب تكفير الخلفاء أو طلب وادعاء الخلافة، بل لعدة عوامل منها ان بعضهم يحاول فرض الاتاوة على اهل ديارهم بزعم انه صاحب المنطقة، أو الخلاف مع الولاة لعدة أسباب لا داعي لذكرها والمهم ان الخلافة وامارة المؤمنين ليست أحد هذه الأسباب.

ملبد الشيباني:

خرج رجل من ديار ربيعة اسمه ملبد بن حرملة معدان بن سيطان بن قيس الشيباني سنة ١٣٧هـ متزامناً مع قدوم معن بن زائدة وتصالحه مع المنصور، وسبب خروج ملبد هو مشكلة له مع أحد الولاة العباسيين انتهت بخروجه وعصيانه، وقد انتصر ملبد في كل معاركه ضد قواد الدولة العباسية حتى تم اعطائه مبلغاً من المال ليكف شره عن الدولة وولاتها في العراق.

ظبي بن المسيب:

وهو من عبد القيس من ربيعة، وخرج مثل سابقه في ديار ربيعة، وكان خروجه بابنائه ونسائه وجمع كبير من ربيعة، ووجه لهم المنصور جمعاً من الازد عليهم العاقب الازدي فهزم العبدي وقطع راسه وقتل كل من من معه قرب البصرة.

عطية بن بعثر التغلبي:

ومن الاسم فهو من بني تغلب بن وائل ربيعة، خرج من الموصل الذي كان اهم قواعد ربيعة بل هو قاعدة ديارها، وقد خرج ومعه مئة من الفرسان من ربيعة، إلّا أنه هزم قرب الموصل رغم انه حقق بعض الانتصارات البسيطة.

عيسى الشيباني:

ثم خرج رجل اسمه عيسى من موالي بني شيبان ولم يفلح حيث قتل في ديار ربيعة.

خروج الضحضح الشيباني:

نزل أحد الجنود الحكوميين في في ديار ربيعة وسكن فيها وجاور باديتهم وكانوا يعطونه ويقرونه ويحسنون له، واغتصب أحد نسائهم على غفلة، فنادت المرأة قومها واجتمعت جموع من ربيعة للثأر بقيادة عامر الضحضح الشيباني، وكان عددهم الف في الجزيرة الفراتية قرب سنجار الجبل المعروف، ووجه لهم المنصور جيشاً وهزمهم ومع ذلك تمكنوا من قتل الجندي المغتصب.

ونلاحظ من حركات الخروج هذه انها تمردات بسيطة نتيجة خلافات عرضية، وليست هي طعن بشرعية الخلافة أو أغيرها ولكنها حركات نهب وسلب وخلافات مع المسؤلين المحليين.

وفي عهد ثالث الخلفاء العباسيين المهدي (١٥٨هـ-١٦٩هـ) خرج بالجزيرة الفراتية عبد السلام بن إبراهيم اليشكري، وانتصر على كل قواد المهدي الذين كلفوا بحربه، حتى تمكنوا أخيراً منه بالجزيرة وقتلوه سنة ١٦٢هـ في بلدة قنسرين، وهي آخر ثورة في ديار ربيعة ولم تقم بعدها ثورات ربعية تذكر حتى عهد هارون الرشيد الذي بدا عام ١٧٠هـ.

ومع تقلص نفوذ قبائل قيس مقابل علو شأن ربيعة وقبائل الازد فقد اصبحت أكثر المشاكل القبلية بينهم وبين ربيعة، ومنها ماوقع اول خلافة هرون الرشيد عندما استعمل شخص من همدان (روح بن صالح) على صدقات تغلب في ديار ربيعة، فقتله بنو تغلب وثارت ازمة ربعية ازدية بسببه قام بحلها هرون الرشيد.

ربيعة في عهد هرون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٢هـ)

نستطيع القول بأن الكابوس القيس عيلاني قد زال من على صدور ربيعة، وانكف القيسيون إلى نجد، واستقرت ربيعة في ديارها شمالاً، وأصبحت رئاستها شبه موحدة ببيت معن بن زائدة زائدة الشيباني وابنائه/ مزيد، وزائدة، وعبدالله، وأصبح امير ربيعة بعد معن هو مزيد بن معن وكانت لهم مكانة ايام هرون الرشيد ومركزهم الرئيسي الكوفة حيث كان امراء بكر السابقين آل مسمع.

ويبدو ان وفاة معن بن زائدة اثرت على ربيعة كلها كما اثرت فيهم وفاة مالك بن مسمع سنة ٧٤هـ، فلم يقم بالأمر بعده من كان بمثل حزمه وقوته وشجاعته وقدرته على جمع الكلمة وتوحيد صف القبيلة، بل انغمس ابنائه باللهو ما عدا أحد ابناء اخيه وهو يزيد بن مزيد بن زائدة الذي كان قائداً من قواد بني العباس وامير ربيعة في العراق بعد اغتيال معن، اما عبدالله وزائدة ومزيد ابناء معن فغاصوا في حياة اللهو ولم يكن لهم شأن يذكر لدى بغداد وخلفائها، ونقل الاصفهاني طرفاً من اخبارهم مع أبي العتاهية مولى عنزة الشاعر المعروف من عين التمر تؤكد انغماسهم في أمور الادب والشعر والغزل(١).

وبعد أن اصبح يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني هو كبير ربيعة، عينه هرون الرشيد على ارمينيا، فجمع ربعية من كل صوب ودعاهم إلى اقتطاع الارض هناك واستملاكها، فالتفت عليه ربيعة واجتمعت، وأحيا وجوده مالك بن مسمع وعمه معن بن زائدة، فكثر حساده تبعاً لذلك ومن ابرزهم: البرامكة حيث حسدوه على علاقاته القوية مع هرون الرشيد،

(١) ومن ذلك قول أبو العتاهية العنزي لمزيد بن معن يتهمه بهدم ما بناه ابوه معن من سمعة للعشيرة:

بنى معن ويهدمه يزيد كذاك الله يفعل مايريد

وبعض فرسان ربيعة الذي كانوا ينافسونه على سيادة القبيلة وبالذات من تغلب وبكر وعبد القيس ومن فيهم من ربيعة.

تنازع الربعيين على رئاسة القبيلة والديار:

كان هناك زعماء من ربيعة غير يزيد بن مزيد، فأرادوا منافسته في بلاد ربيعة، وخاصة الفرع التغلبي، ومن ابرز زعماء تغلب الموجودين في عهد الرشيد كلثوم بن عمرو العتابي، وهو من سلالة الشاعر الجاهلي والأمير عمرو بن كلثوم، وقد كان مقرباً من هرون الرشيد مثله مثل شعراء ربيعة الذين قربوا كأبي العتاهية العنزي وغيره.

ومن اعيان ربيعة تلك الفترة أيضاً طوق بن مالك من بني تغلب، والويد بن طريف وهو من تغلب أيضاً، وهذا المناخ الربعي ومليء اذن بالطموحين من ربيعة للسيادة على القبيلة وديارها، وتمثيلها امام السلطات العباسية، ولذلك توجهت الانظار كلها صوب يزيد بن مزيد الشيباني، وكيف اجتمعت ربيعة عليه بفروعها، وكان اول من ثار على يزيد بن هو الوليد بن طريف التغلبي.

ثورة الوليد بن طريف بن عامر الربعي سنة ١٧٨هـ:

صنفت ثورته على انها ضد الخلافة العباسية، لكنها بالحقيقة كانت موجهة ضد يزيد بن مزيد الشيباني، فنجد الوليد بن طريف لم يطعن بالخلافة أو هرون الرشيد، بل أعلن نفسه حاكماً في بلاد ربيعة بالجزيرة، ثم حاول الاستيلاء على ارمينيا التي اقطعها يزيد بن مزيد لقبيلة ربيعة كافة فتكاثروا بها.

وعندما وصل الوليد بن طريف إلى ارمينيا حشد ربيعة هناك وجمعها على رايته، ثم عاد إلى الجزيرة سنة ١٧٩هـ، فحاول هرون الرشيد ان يرسل يزيد بن مزيد إليه إلّا أن البرامكة نهو هرون الرشيد عن فعله

بدعوى ان كل من يزيد والوليد ابناء عم ومن قبيلة واحدة ومن الممكن ان يجتمعوا ضد الدولة ان التقوا ببعضهم واجتمعت بهم ربيعة، فاستجاب هرون لقول البرامكة وكانوا متحكمين بالدولة وقتئذٍ.

لكن هرون الرشيد ذكر باجنماع له مع قواده وخاصته قال: ليس للوليد الا الاعرابي يزيد بن مزيد! وقال شاعر من ربيعة اسمه بكر بن النطاح:

لاتبعثن إلى ربيعة غيرها   إن الحديد بغيره لا يفلح

وقد صدق قوله، فلايفل الحديد الا الحديد ولا تحارب ربيعة إلّا بربيعة، هذه السياسة هي ذاتها منذ قيام دولة الخلافة، وقد رأينا مايماثل هذا طوال تاريخ ربيعة وعلاقتها بالأنظمة الحاكمة.

القتال الربعي الربعي:

سار يزيد بن مزيد إلى الوليد بن طريف، وانقسمت ربيعة تحت واضطربت الاحوال، فتعانق شجعان ربيعة بين بعضهم، وطال القتال حتى قام البرامكة بخبث ومكر بالوشاية لهرارون الرشيد ان يزيد بن مزيد الشيباني ليس جاداً في قتاله لابن عمه بن طريف، وانهم سيجتمعون على النقض والاستقلال بربيعة وديارها، فغضب هارون على طوال امد المعارك بين الطرفين، وطالب يزيد بالجدية في حربه للثائرين من ربيعة.

وانتهت الحرب بانتصار بالغ الصعوبة ليزيد بن مزيد، وقتل الوليد بن طريف، وقالت اخته ترثيه:

يا بني وائلٍ لقد فجعتكم   من يزيدٍ سيوفه بالوليد
لو سيوف سوى سيوف يزيد   قاتلته لاقت خلاف السعود
وائل بعضها يقتل بعضاً   لا يفل الحديد غير الحديد

وقيل من الشعر في مدح يزيد:

سل الخليفة سيفاً من بني مطرٍ[1] يمضي فيخترق الأجسام والهاما
لولا يزيد ومقدار له سبب عاش الوليد مع العامين أعواما
أكرم به وبآباءٍ له سلفوا أبقوا من المجد أياماً وأياما

وبعد مقتل الوليد بن طريف قرر هرون الرشيد ان يحد من كثرة الزعامات في ربيعة تجنباً لثورات مستقبلية، فسأل هرون الرشيد يزيداً:

ما أكثر أمراء المؤمنين في قومك؟ قال: نعم، إلا أن منابرهم الجذوع، يعني الجذوع التي يصلبون عليها إذا قتلوا[2].

وكان البرامكة يحاولون دائماً تقليص نفوذ يزيد بن مزيد الشيباني، واعتقد ان مرادهم بذلك ان يمسك بزمام ربيعة رجل غير مؤهل ليتحكموا به كيف شاؤا، فقد قاموا مثلاً بتقريب شخصيات ربعية دون المستوى مثل الشاعر كلثوم العتابي، والشاعر العنزي بالولاء أبي العتاهية المعروف، في حين لم يكل البرامكة من حياكة المؤامرات لطرد يزيد بن مزيد من بلاط الحكم مقابل تقريب العتابي وغيره.

لكن هرون الرشيد رأى بام عينه من يستحق التكريم من ربيعة والمؤهل لأن يكون قائدها وامير ديارها، فطرد العتابي، وفرض الهبات لقبائل ربيعة بشكل أكثر تنظيماً حيث تكرس يزيد بن مزيد كأمير لديار ربيعة بلا منازع.

وقد ثقل ما فعله هرون الرشيد على العتابي وقال قصيدة طويلة يشير فيها إلى أنه لا علاقة له بمشيخة ربيعة وحركات التمرد التي قادها الوليد بن طريف ومن ابياتها:

كان ذوو إفك ومارقة وعصبة دينها العدوان والزور

(١) مطر هو جد ليزيد بن مزيد وكافة آل معن من شيبان من بكر بن وائل ربيعة.
(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان - ترجمة يزيد بن مزيد.

ومن عرائقه السفاح عندكم مجرب من بلاء الصدق مخبور
الآن قد بعدت في خطو طاعتكم خطاهم حيث يحتل الغشامير

ويعني بذوي الافك جماعة الوليد بن طريف، وان ربيعة مجتمعة الآن عند يزيد بن مزيد، وقد رضي عنه هرون الرشيد بعد ذلك ووصله واكرمه.

ونلاحظ أن وجود شخصية أخرى من ربيعة بدأت بالظهور وهي طوق بن مالك التغلبي وهو أيضاً من بني العتاب نسل عمرو بن كلثوم، ولم يجهد البرامكة في تقريب هذه الشخصية لهرون الرشيد والى البلاط الملكي كما اجتهدوا في تقريب شخصيات دون المستوى مثل العتابي وابو العتاهية الشعراء لعلمهم بالشخصية الفذة والقيادية لطوق هذا، وقد تنفذ البرامكة في اجهزة الدولة حتى قضى عليهم هرون الرشيد سنة ١٨٦هـ.

وظهرت شخصية طوق بن مالك مكانها الحقيقي في وسط البلاط العباسي بعد انتهاء امر البرامكة وزوال نفوذهم، وتولى طوق بن مالك قيادة الجند في بادية الانبار وجلهم من ربيعة، بل واعتمد عليه هرون الرشيد في القضاء على أحد الثوار في سواد الكوفة سنة ١٩٢هـ، وهو الذي بنى مدينة الرحبة قرب الرقة في الجزيرة ونسبت له.

اما يزيد بن مزيد فقد توفي سنة ١٨٦هـ وفي العام ذاته الذي قضى فيه الرشيد على البرامكة، وبعد وفاة يزيد حزن عليه قومه من ربيعة، وتأثروا لوفاته بشدة وقال أحد شعرائهم من تيم اللات اللهازم:

فإن يهلك يزيد فكل حي فريس للمنية أو طريد
لقد عزى ربيعة أن يوماً عليها مثل يومك لا يعود

وتولى بعده زعامة ربيعة ابنه خالد بن يزيد بن مزيد، وأصبح خالد بالإضافة إلى كونه زعيم ربيعة الكبير والياً على ارمينيا التي ضمها ابوه سابقاً وقطعها لقبيلة ربيعة.

وتعتبر هذه الفترة وبعد الضاء على البرامكة من ازهى العصور على قبيلة ربيعة، فاستقرت احوالها بالديار التي عرفت باسمها، وزادت صلتها بالحكام العباسيين بعد هرون الرشدي مثل الامين (١٩٣هـ - ١٩٨هـ) وكذلك المأمون (١٩٨هـ - ٢١٨هـ) ولا تزال ربيعة قبيلة موحدة العصبة والنطاق الجغرافي، وبطونها على حالها منذ تداخلها مع بعضها بالجاهلية والعصر الاموي وما بعده إلى هذا العصر الذي نحن بصدده وهو العصر العباسي الأول، ووضعية قبيلة ربيعة حتى هذا العهد هي ذاتها كما كانت، فعنزة انضمت إلى بكر وحسبت فيها، والنمر دخلت في بني تغلب وائل هي وعميرة بن اسد اشقاء عنزة ربيعة، وحتى العصر العباسي كانت عنزة مرتبطة ببكر بن وائل ومعها عبد القيس ونلاحظ اشتهار اسم ربيعة في هذه الفترة مع اشتهار العزوة الوائلية، ولم يشتهر كثيراً ذكر الفروع من ربيعة، يدلنا على هذا قصة ابناء معن مع أبي العتاهية العنزي بالولاء، وعلاقة أبي العتاهية مع كلثوم العتابي.

وقد ظهر في هذه الفترة من اعيان ربيعة من كان لهم شهرة، منهم العلامة احمد بن حنبل الشيباني، وقد تعرض إلى ضغوط ايام المأمون بسبب قضية خلق القرآن، وظهر أيضاً مندل وحيان ابناء علي العنزي وكانوا من اشراف اهل العراق وفقهاء ومحدثين، وهم من اصلحوا بين أبي العتاهية العنزي وابناء معن الشيباتي على خلاف بينهم على جارية كان يعشقها أحد ابناء معن واتهمها أبي العتاهية بالسحق.

وظهر الشاعر أبو تمام بهذه الفترة، وتواصل مع امراء ربيعة الكبار خالد بن يزيد وطوق بن مالك صاحب الرحبة.

بعض أخبار خالد بن يزيد وطوق بن مالك في تلك الفترة:

قلنا ان خالد بن يزيد تولى مشيخة ربيعة بعد وفاة ابيه يزيد، وقد اصبح بنفس شهرة ابيه، وطارت الناس بأخباره وتفاخرت به ربيعة وبكرمه

على بقية القبائل، وقرب خالد بن يزيد السلالات الربعية الكبرى منه مثل آل مسمع وبنو الشيخ وهم ذرية جساس القائد الجاهلي لبكر بحرب البسوس، وأصبح خالد لايقل عن خلفاء بني العباس مكانة فتوافد عليه الشعراء من كل صوب ومنهم حبيب بن اوس الطائي المعروف بـ (أبي تمام).

ونقل الصولي في كتاب (اخبار أبي تمام) ان أحد ذرية آل مسمع وهو إبراهيم المسمعي انه تمنى ان يكون أبي تمام من ربيعة لكثرة مدحه لهم، وأن تأسف أن يكون من طيئ، ومن مدائح أبي تمام لخالد بن يزيد:

عَلَّمَني جُودُكَ السَّماحَ فَما أَبْ قَيْتُ شَيْئاً لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مَا مَرَّ شَهْرٌ حَتىَّ سمَحْتُ بهِ كأنّ لي قُدْرَةً كَمَقْدُرَتِكْ

تُنْفِقُ في اليَوْمِ بِالْهِبَاتِ وفي السَّاعَةِ مَا تَجْتَبِيه في سَنَتِكْ

فلستُ أَدْرِي مِنْ أَينَ تُنفِقُ لَوْ لاَ أَنَّ رَبِّى يَمُدُّ في هِبَتِكْ

وقد عمر خالد بن يزيد طويلا وشهد عصر الخلفاء الامين والمأمون والمعتصم، وقد قام المعتصم بعزله عن ولايته وقطع ارزاقه ومخصصاته من الدولة، لكن أحد القضاة شفع بخالد بن يزيد عند المعتصم فرد له ماكان له من مخصصات.

أما مالك بن طوق فقد اصبح زعيم الرحبة، وتعصب له قومه تغلب وفارقوا خالد بن يزيد امير ربيعة، وتوجهوا إلى مالك بن طوق، ولم يجدوا عنده ماوجدوه عن خالد بن يزيد، فلم يكن مالك متعصباً لقومه، بل كان يسعى بهم نحو السلطات وكأنه ليس منهم، فكلم جماعة من تغلب الشاعر أبو تمام - وكان على علاقة قوية مع ابن طوق - وذكر أبو تمام بقصيدة له لمالك بن طوق ان قومه تغلب يحق عليه اكرامهم فهم اهله وعشيرته وصناع مجده، فأجاب ابن طوق ماطلبه أبو تمام ووصل جماعته وأصبح زعيماً منفاساً لخالد بن يزيد.

ومما يسجله التاريخ الربعي لمالك بن طوق هو دوره في إسلام عائلة الاخطل الشاعر النصراني، وهي آخر من اعتنق الإسلام من تغلب ربيعة، ولعلنا نذكر كيف اعتنق الاراقم وهم اهم بطون تغلب الإسلام ايام بني امية وبواسطة شاعرهم كعب بن جعيل، ودخولهم في قبيلة اللهازم المنضوية في بكر، وكيف كان الاخطل يهجو اللهازم ويقرنهم بهجائه لكعب بن جعيل، ونتيجة لذلك فقد ظلت عائلة الاخطل على دين النصرانية، حتى جاء حفيده في هذا العهد وهو سهل بن بشر بن مالك بن الأخطل، ودخل على مالك بن طوق وقد لبس الصليب، فسأله ابن طوق:

من أنت؟ وأجابه إنه من ابناء الاخطل وانه لا زال على النصرانية، وانه يريد التواصل مع ابن طوق من باب الرحم والجد الواحد، فقال له ابن طوق:

أنت ابن عمي، واللحم والدم واحد، ولكن ما تقدم من الكفر فألغوه، فلا تعتقدوه، فقد جاء الحق وزهق الباطل؛ وأمر بأثواب فأحضرت، فألبسه إياها، وأمر بجائزة فدفعت إليه، ولم يفارقه حتى أسلم، وضمن له أن يجمع ولده جده فيأخذهم بالإسلام، ففعل وأسلموا كلهم بين يدي مالك بن طوق[1].

نظرة عامة عن احوال ربيعة في عهد الخلفاء (الامين والمأمون والمعتصم)

وتميزت هذه المرحلة من تاريخ ربيعة وهي عهد الخلفاء (الامين ثم المأمون) بنشوء العصبية بين ربيعة والازد، مع شبه اختفاء لعصبة قيس عيلان التي انكف معظم بطونها بنجد، ومايدل على هذا التعصب الازدي

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور.

الربعي هو ما حدث سنة ١٩٧هـ عندما عين الامين الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي أميراً على الموصل، فسار إليها بجموع من ربيعة، ووقف الازد بوجه ابن عمر هذا، وقالوا لا يتولى هنا ربعي![١]، ثم قرر الحسن بن عمر حربهم وشجعه بعض شعراء ربيعة إلّا أنه عدل عن ذلك وبقي متقلدا امر الموصل وانشا جزيرة سميت باسمه كما فعل مالك بن طوق في الرحبة، وسيكون للتعصب والتشنج بين ربيعة والازد في العراق دور كبير في اضعاف مكانة العرب، وخاصة ان الخلفاء العباسيين المأمون ومن بعده المعتصم بدأو يقربون ولاة الترك وجنودهم ويهملون أمور العرب وقبائلهم.

كما تميزت هذه الفترة ببدء نشوء الخلافات بين ربيعة نفسها ومنها ما حدث بين اتباع احمد بن عمر التغلي بالموصل سنة ٢٠٠هـ عندما حاول الازد التفتين بين ربيعة، وغالبها على رئاسة القبيلة، وخاصة بعد أن توفي خالد بن يزيد بن مزيد، وهو الذي لم ينازعه أحد على ربيعة، وتولى بعده امر ربيعة ابنه محمد بن خالد بن يزيد، ولم يكن بقوة ابيه وسمعته، فكثر الخارجون عليه من ربيعة من تغلب وبكر رغم ان السلطات العباسية والخلفاء العباسيين كانوا يدعمونه حتى في عهد المعتصم الموالي للاتراك.

وبعد وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ تولى بعده المتوكل الخلافة، وهو آخر خلفاء بني العباس الاقوياء، وخرج على اول عهده محمد بن البعيث الربعي وهو من بني عمرو بن وهب بن افصى بن اسد بن ربيعة[٢]، وحاربه محمد بن خالد بن يزيد امير ربيعة ولكنه لم يكن جادًّا في حربه

(١) تاريخ ابن الاثير لحوادث سنة ١٩٧هـ.

(٢) واعتقد انه من عنزة بن ربيعة لأن عنزة اسمه عمرو كما قيل، وقيل عامر، وبني وهب بطن كبير من عنزة الوائلية المعاصرة.

رغم انه مسؤول عن خوارج قبيلته، ثم حاربه قائد تركي تم تعيينه ايام المعتصم واسمه بغا الكبير، فقبض بغا على محمد بن البعيث وسجنه، وتوسط له محمد بن خالد بن يزيد فأخرج من السجن وعاد لقومه من ربيعة، ثم جمع من ربيعة جمع حاول الخروج به مرة اخرى، لكنه هزم واعيد سجنه وتوفي بالسجن.

تطور الصراعات الربعية على رئاسة القبيلة والديار:

كثرت الفتن بين الطامحين للحكم في بلاد ربيعة التي تمتد من الانبار إلى الموصل من الشمال إلى الجنوب، وتمتد شرقاً حتى الرقة في الجزيرة الفراتية، وابرز من دخل بهذه الفتن من ربيعة نذكر:

١- احمد بن عمر بن الخطاب العدوي من تغلب، وهو شقيق الحسن بن عمر الذي تولى الموصل سنة ١٩٧هـ وتسالم مع الازد ليتفرغ لمحاربة اعدائه من ربيعة وتولى بعده ابنه ايوب بن احمد ونصب نفسه شيخاً على ربيعة.

٢- محمد بن خالد بن يزيد الشيباني وهو امير ربيعة شرعي وشيخ شملها، وكان قد بعث إلى مصر لإسكات فتنة هناك، وعاد ليجد الأمور قد تبدلت بين قومه، ولما عاد من مصر سنة ٢٥١هـ عينه المستعين امير على ربيعة والجزيرة وكلفه بإعادة ضبط الأمور في قبيلته.

٣- برهومة العنزي، حاول الاستيلاء على رئاسة القبيلة ويبدو أنه نجح في ذلك بعد أن غادر خالد بن يزيد إلى مصر، وحاول أن يجعل ولايته على ربيعة شرعية فجمع بني شيبان وبكر ومن تبعه إلى بغداد وعاث بها فساداً سنة ٢٥٣هـ، إلّا أن عمران الازدي تصدى له بقبيلة الازد وهزمه عند الزابيين قرب الموصل وتفاخر الازد على ربيعة بعد هذه الوقعة وقتل برهومة العنزي، وكان خروج برهومة بسبب أن عمران الازدي اشترى أرضاً في المرج وهو مرج عنزة قرب الموصل، فتعصب الربعيون ضده

واجتمعت عنزة وشيبان على الافساد وهزموا بعد ذلك امام قوات عمران الازدي.

وجل هذه الأحداث وقعت في عهد المستعين العباسي (٢٤٨هـ - ٢٥٢هـ)، ولم تعترف السلطة العباسية إلّا بخالد بن يزيد كأمير شرعي لربيعة، ولكن بدا وكان ربيعة بدأت تنجب من يكون خليقاً بالمنافسة على المشيخة من خارج بني شيبان، البطن الذي استمر لقرون وهو ينجب السلالة تلو السلالة وكلها زعماء.

وأول المعارك الشرسة بين الربعيين هي ما حدث سنة ٢٥١هـ عندما حالو محمد بن خالد بن يزيد طرد بني عمر بن الخطاب التغلبي من الموصل، فتواجه مع ايوب بن احمد التغلبي، ولكن ايوب تمكن من هزيمة محمد بن خالد في الجزيرة الفراتية قرب السكير رغم تأييد الخليفة المستعين له.

واجتمعت ربيعة على كل من ايوب وبعده ابنه الحسن في الموصل، ثم برهومة العنزي سنة ٢٥٣هـ وتحت رايته شيبان وعنزة وذلك قبل مقتله على يد الازد في الزابيين قرب الموصل.

وأصبح الحسن بن ايوب بعد مقتل برهومه العنزي الآمر الناهي في الموصل وهو اهم مدن ربيعة وقاعدة ديارها.

سلالة الحسن بن عمر التغلبي تحكم ربيعة:

وبهذا اصبح الحسن بن ايوب امير ربيعة، واعترفت به السلطات العباسية بشكل رسمي، ومارس نفس الدور الذي كان يقوم به معن بن زائدة، ويزيد بن مزيد بن زائدة، وخالد بن يزيد، والتفت ربيعة حوله تبعاً لذلك، وكان من ابرزهم حمدان بن حمدون الذي ستصبح لسلالته شان بعد ذلك كما سنذكر في تاريخ الدولة الحمدانية التي يعتبر امرائها من سلالته.

وظل الحسن بن عمر أميراً على الموصل حتى ثار عليه مساور بن عبد الحميد الشيباني سنة ٢٥٤هـ، وكان مساور قد جمع من ربيعة (ويبدو أنهم من بكر) جمعا كبيراً فتمكنوا من هزيمة الحسن وحمدان بن حمدون، وانهارت بذلك سلالة الحسن وفشلت محاولتهم في مشيخة ربيعة، وتزعم مساور الرئاسة، إلّا أن السلطات العباسية لم تعترف به، فظلت تطارده حتى توفي سنة ٢٦١هـ بعد أن قتل عدداً كبير من قواد الدولة العباسية من الأتراك منهم بندار الطبري

عودة سلالة الحسن العدوي للموصل:

وبعد وفاة مساور البجلي حاول فارس من ربيعة اسمه الهيثم بن عبدالله التغلبي ان يحكم الموصل ويتزعم قبيلة ربيعة، ويبدو أن اهل الموصل لم يدينوا له بولاء فحاربوه، ثم دعوا اسحق بن ايوب وهو شقيق الحسن فتقلد امر الموصل ومعه حمدان بن حمدون وأصبح اسحق أميراً لربيعة سنة ٢٦١هـ.

وقد ادت الحروب والفتن بين قواد ربيعة ان يعاتبهم شعراء تلك الفترة، وهم البحتري وابو تمام وهم من طيئ، ومن قول البحتري لربيعة ينصحهم بالوحدة والتآلف:

اما لربيعة الفرس انتهاءً   عن الزلزال فيها والحروب
وكانوا قد رقعوا ايام سلمٍ   على تلك الضغائن والندوب

إلى أن يقول ويشير وينصح لهيثم بن عبدالله الذي حاول الانتزاء على الموصل وتزعم ربيعة:

أهيثم يا بن عبدالله دعوى   مشيراً بالنصيحة أو مهيب

الحروب الربعية تتواصل في عصر الضعف العباسي

وصلنا في تاريخ ربيعة إلى سنة ٢٦١هـ وهي السنة التي اعتلى فيها اسحق بن ايوب من تغلب رئاسة ربيعة وديارها، ومعه حمدان بن حمدون التغلبي، وأصبحوا حكام في الموصل الذي هو أهم مدن ربيعة.

بالطبع وصول شخص من تغلب لم يرضِ غرمائهم بكر، حيث لا تزال جذور المنافسة مشتعلة على من يحكم ربيعة ومن يكون سنامها، ولا زلت قبيلة بكر بفرعيها اللهازم الذهلين، ويبدو أن بني شيبان (وهم من فرع الذهلين) قد غلب اسمهم هذا الفرع، اذ لا نجد لاسم الذهلين أي ذكر في سجلات التاريخ عن هذه المرحلة، بينما غلب اسم عنزة على اللهازم فيما يبدو، لأننا أيضاً نجد المؤرخين يشيرون إلى عنزة وشيبان مقترنين مما يدل انهم فرعي بكر الكبار تلك الفترة، اما تغلب فقد غلب اسمها الفروع الربعية الملتحقة بها، مثل النمر بن قاسط وعميرة وبني غفيلة، وعلى ذلك نستطيع ان نقول ان الصراع الذي اندلع بين الربعيين في الفترة القصيرة قبيل الدولة الحمدانية كان بين الغريمين الكبار بكر وتغلب كبطنين رئيسيين في قبيلة واحدة هي ربيعة، وان النزاع بينهم كان محوره رئاسة ربيعة أو مشيختها قبائلاً ودياراً.

نعود إلى الصراع على رئاسة ربيعة، فكما قدمنا غضب بني شيبان على كون الرئاسة في الموصل لبني تغلب حيث وصلت إلى اسحاق بن ايوب وحمدان بن حمدون سنة ٢٦١هـ، ثم مالبثت المشيخة ان انتقلت إلى حمدان بن حمدون، وهو من رهط اسحاق بن ايوب ومن بني عدي من تغلب.

في تلك الاثناء ضعف امر الدولة العباسية كثيراً بسيطرة الترك على المقاليد، وظهور القرامطة في نجد علي يد قبائل نمير وعقيل العامرية.

اصبح حمدان بن حمدون هو امير قبائل ربيعة وحاكماً لقاعدة ديارها الموصل، وهو يواجه ثلاثة اعداء:

١- الثائرين ضده من ربيعة وخاصة من بكر.

٢- السلطات العباسية في عهده التي غضبت من تصرفه بديار ربيعة كحاكم مستقل.

٣- القادة الأتراك الذين لايرغبون بوجود ولاة عرب على الاقاليم في شمال العراق.

فأما السلطة العباسية فقد اعترفت بحمدان في زمن المعتمد على الله (٢٥٦هـ-٢٧٩هـ) حاكماً على مابيده من بلاد ربيعة، ربما كرهاً في الأتراك ولمعرفة العباسيين بقدرة العرب فقط على قتال القرامطة الذين اشتد خطرهم تلك الفترة، واما الثائرين من ربيعة ضد حمدان فكان قائدهم هرون الشاري ومعه جمع من بني شيبان، وكان هارون يصنف كخارجي ضد العباسيين، وهو في الواقع ضجر من القادة الأتراك فكان يحاربهم، ويظهر بنفس الوقت عداوته لحمدان بن حمدون، وذلك لكي تجتمع عليه اعراب شيبان وعنزة في الزابيين نظراً لعدم رغبتهم بأن تكون المشيخة في تغلب.

هارون الشاري يغير موقفه ويفاجيء الجميع:

وفي سنة ٢٧٢هـ تفاجأ الناس بتغير موقف هارون الشاري، اذ تصالح مع حمدان ودخل الموصل وادى الصلاة في المسجد الكبير بجانب حمدان بن حمدون[١].

اغضب تصرف هارون الشاري كل من المعتمد الخليفة وعرب بني شيبان وعنزة في الزابيين، حيث كان اميرهم احمد بن عيسى الشيخ وهو من سلالة جساس قاتل كليب في الجاهلية وهو يرى انه احق بولاية ربيعة وكان مستقلًّا ببلدة ديار بكر ومنها كان يبعث عربه للاغارة على الموصل وكل ديار ربيعة التي تقع تحت حكم حمدان بن حمدون.

(١) تاريخ الطبري - حوادث سنة ٢٧٢هـ.

وفي سنة ٢٧٩هـ تم خلع المعتمد الخليفة العباسي وبويع بعده المعتضد (٢٧٩هـ - ٢٨٩هـ) وبنفس السنة التي خلع فيها المعتمد قرر علي بن عيسى الشيخ جمع عربانه لحرب حمدان بن حمدون وهارون الشاري، فاندلعت حرب ربعية ربعية عنيفة انتهت بمذابح هائلة بين الربعيين وغرق اكثرهم في نهر الزابيين ولم يظفر أحد بشيء، وكان الاكراد وهم سكان المنطقة حلفاء لعلي بن عيسى الشيخ، لكنه بعد معركة الزابيين استطاع احتلال آمد وهي قرب الموصل ومن اهم ديار ربيعة.

المعتضد يسير حملة على الموصل

قرر المعتضد أن يسير حملة ضد ربيعة سنة ٢٨٠هـ، يتم فيها تأديبهم وانهاء حالة الفوضى بديارهم، فتوجه نحو الزابيين حيث آلاف من بني شيبان وعنزة وهم اتباع علي ابن الشيخ المنافس لحمدان بن حمدون على ربيعة، وهجمت قوات المعتضد التي قادها بنفسه مما يدل على اهمية الحدث على الاعراب وقتلت منهم عدداً كبيراً، مما اضطر علي بن عيسى الشيخ ان يصالح المعتضد ويامر اتباعه بالاستسلام.

ثم سار المعتضد نحو الموصل لتأديب حمدان بعد أن فرغ من ابن الشيخ، ولقيه من ربيعة جمع كبير وسألوه الامان، فقرر على اثر ذلك الكف عن الموصل والعودة لبغداد[1]، والغريب هو أن المعتضد لم يهاجم اتباع حمدان بن حمدون من ربيعة، ربما لثقته ان حمدان خليق بأن يكون أميراً في ديار ربيعة، بعكس علي بن عيسى الشيخ الضيق النظرة، والذي يعتمد على الافساد والفوضى لتحقيق اهدافه، فحمدان بن حمدون عرف كيف يمتص الغضب من ابناء عمومته فاستقبل كبيراً منهم هو هارون الشاري، رغم أن الأخير كان من اتباع ابن الشيخ، وغرض حمدان كان

(١) تاريخ الطبري - حوادث سنة ٢٨٠هـ.

تحقيق الوحدة والتوافق بين بطني ربيعة بكر وتغلب، ثم ان الجمهرة من ربيعة واهم ديارها وهو الموصل والجزيرة كانت تحت يد حمدان، ولذلك رأى الخليفة المعتضد انه ليس من الحكمة مهاجمة حمدان في هذه الظروف وقد ضعف جيشه بعد المعارك الشديدة في الزابيين مع قبائل علي بن الشيخ.

حملة المعتضد الثانية إلى حمدان بن حمدون سنة ٢٨٢هـ

أراد المعتضد ان يختبر ولاء حمدان بن حمدون ورفيقه اسحاق بن ايوب، وهارون الشاري الذي انضم لهم كما قدمنا سنة ٢٧٢هـ.

أرسل المعتضد إلى حمدان رسالة يطلبه في بغداد مع اسحق، فرفضوا الحضور، وتحصنوا في الموصل، ثم عندما عرفوا ان حملة عسكرية ارسلها المعتضد تحصنوا إلى قلاعهم في الجزيرة، فلاحقتهم جنود المعتضد، وقبض على كل من: حمدان بن حمدون، وابنه الحسين بن حمدان، واسحق بن ايوب فسجنوا وهدمت قلاعهم، بينما افلت هارون الشاري وتمكن من الهروب وتبعه عدد كبير من ربيعة.

وامر المعتضد قواته ان تطارد هارون الشاري الذي ذهب إلى جماعته من ربيعة في الزابيين، واشتبكت قوات المعتضد مع اعراب ربيعة هناك فانهزم اتباع الشاري فلجأ إلى بني تغلب قرب تكريت واقام بينهم بخفية وبدأ يجمع الانصار.

الفصل السابع

عهد جديد لربيعة: بداية تأسيس الدولة الحمدانية

كان المعتضد من أقوى خلفاء العباسيين في عصر الضعف، وعصر سيطرة الأتراك، فرغم قبضه على حمدان بن حمدون إلّا أنه لم يقتله، ولو كان الذي قبض على حمدان هو أحد الخلفاء السابقين لانتهى مصيره إلى القتل، إلّا أن المعتضد كان يرى في حمدان كما قدمنا الشخصية المؤهلة لقيادة بلاد ربيعة.

يبق وإن قدمنا أن لحمدان ابناً اسمه الحسين، وقد عرض عليه هارون انه سيطلق صراح ابيه ويعيده إلى منصبه بشرط ان يقود الحسين حملة ربعية على هارون الشاري وان ياتي به حيًّا أو ميتاً، فانتخب الحسبن ثلاث مائة فارس من ربيعة، واتجه بهم نحو هارون في تكريت، ثم اشتبك هارون مع الحسين، ورغم مناشدة هارون للحسين أن لا يقاتله إلّا أنه اصر على ذلك فأسره وجاء به إلى بغداد وتم اعدامه سنة ٢٨٣هـ.

وأصبح الحسين بذلك أميراً مهاباً في بغداد، واستقبل استقبال الابطال، وهو اول قائد عربي يحظى بهذه المكانة في بغداد منذ ان سيطر عليها القادة الأتراك زمن المعتصم.

وكان للحسين بن حمدان اخ اسمه عبدالله بن حمدان الملقب بـ (ابي الهيجاء)، ولاه المعتضد منصب امير الامراء كاول عربي يتقلد

المنصب منذ استحداثه، بينما تقلد اخوه الحسين الموصل وكل ديار ربيعة ما عدا قلعة امد وديار بكر التي لا تزال بحكم احمد بن عيسى الشيخ الشيباني، وقد توفي أحمد بن عيسى هذا فخلفه ابنه احمد، ثم سير لهم المعتضد حملة قبضت على كل آل شيخ وهدمت قلعتهم وضمت ديارهم إلى الحسين بن حمدان الذي اصبح شيخاً لربيعة كلها سنة ٢٨٥هـ، اما آل شيخ فقد أصبح وزيراً فيما بعد في عهد المقتدر وسيستمر في حياكة المؤامرات ضد ابناء حمدان كما سنرى.

ويبدو بني شيبان لم يرضوا بحكم حمدان بن حمدون وازالة حكم آل شيخ عن ديار ربيعة، وتاييد العباسيين لذلك، فأخذوا يشنون الغارات في بادية الانبار، منها مهاجمتهم بلدة عين التمر سنة ٢٨٦هـ واحتلالها وهي من ديار بكر وتغلب، ووجه لهم المعتضد عدة جيوش لتأديبهم ولقيهم في عين التمر فهربوا منها إلى الجزيرة نحو طريق الشام ثم انضموا تحت مشيخة الحسين بن حمدان فكف الخليفة عنهم فأصبح الحسين أمير مطلقاء لكل قبيلة ربيعة.

وكان الوضع السياسي للخلافة العباسي يرزح نحت ثقل الثورات ومحاولات الاستقلال من قبل الولاة وثورات العصابات وقطاع الطرق، ففي نجد القرامطة وعمادهم قبائل بني عامر مثل عقيل ونمير اهل اليمامة، وفي مصر والشام سيطر الطولونيين وعمادهم قبائل كلب والازد ولخم وجذام، وفي اقصى المغرب الفاطميين وداعيهم أبو عبدالله الشيعي وعمادهم قبائل كتامة والبربر، ولم يتبقى لبني العباس الا العراق وقبائل ربيعة وطيئ وهم من سيواجه بهم العباسيين أعدائهم.

في سنة ٢٨٩هـ توفي الخليفة المعتضد بالله والذي وضع بذور الدولة الحمدانية، ثم ولي الخلافة العباسية المكتفي بالله (٢٨٩هـ - ٢٩٥هـ)، وتفرغ لحرب القرامطة بقبائل ربيعة وطيئ، ولا زال لبني الحمدان تقديرهم عنده كما كان ايام سلفه المعتضد.

وفي سنوات ٢٩٠هـ و٢٩١هـ شاركت ربيعة تحت قيادة الحسين بن حمدان الحرب ضد القرامطة، وقد كان الحسين واتباعه من بني شيبان الأكثر استماتة في القتال ضد هذه الفئة مما جعل مكانة الحمدانيين تتزايد عند السلطات في بغداد زمن المكتفي وخاصة ان القرامطة هزموا في العراق وانكفوا إلى نجد تلك السنة وهي سنة ٢٩١هـ.

اشتراك ربيعة في القضاء على الطولونيين

بعد هزيمة القرامطة المؤقت بالعراق وانكفافهم إلى نجد، قرر المكتفي استعادة مصر من الطولونيين الذي اسس سلالتهم احمد بن طولون سنة ٢٥٣هـ، وكان احمد بن طولون مجرد والي إلّا أنه استقل عن العباسيين فلم يقدروا على حربه واستمرت سلالته تحكم مصر والشام حتى سنة ٢٩٢هـ زمن المكتفي الذي نحن بصدده الآن.

قاد المكتفي في سنة ٢٩٢هـ حملة على الشام وهو يستهدق ازالة بني طولون واعادة الحكم في الشام ومصر لبني العباس، ومع المكتفي خرجت جحافل ربيعة بقيادة الحسين بن حمدان إلى الرقة حيث كانت الدولة الطولونية تمتد وتمكن من هزيمتهم سنة ٢٩٢هـ وواصل الخليفة العباسي تقدمه إلى حمص ومن ثم إلى مصر حتى استأصل الدولة الطولونية من جذورها واعاد مصر إلى الحكم، وزادت هذه الاحداث من مكانة بني حمدان وقبائل ربيعة عند العباسين مما جعل المكتفي يعقد ولاية الموصل وديار ربيعة لعبدالله بن حمدان (ابو الهيجاء) الابن الثاني لحمدان بن حمدون ومؤسس الدولة الحمدانية الحقيقي.

تولي أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان ولاية الموصل وديار ربيعة

وبعد القضاء على آل طولون وفي سنة ٢٩٣هـ هاج الاكراد على ربيعة، وهم حلفاء سابقين لبني شيبان وعنزة ضد تغلب، فلما التم الصف

الربعي وتوحد اعلن الاكراد ثورتهم قرب الموصل، فعقد المكتفي ولاية ربيعة في الموصل لأبي الهيجاء عبدالله بن حمدان، بينما بقي اخوه الحسين يحارب القرامطة بمن معه من ربيعة وهم بني شيبان.

تولى عبدالله بن حمدون الحرب ضد الاكراد، وكانوا قد ثاروا بقوة وبعدد كبير قرب نينوى، واستمر أبو الهيجاء يحاربهم حتى سنة ٢٩٤هـ، ورغم انه طلب امداد من الخليفة إلّا أن الخليفة ماطله في المدد، لكن الله وفقه وهزم الاكراد أخيراً وعقد معهم الصلح.

واستمر أبو الهيجاء عبدالله حاكماً على الموصل حتى جاءت سنة ٢٩٥هـ وتوفي المكتفي الخليفة وعين بدلاً منه المقتدر (٢٩٥هـ - ٣٢٠هـ) وحدثت في عهد المقتدر حوادث لا بد من ذكرها اذا اختلف مع أبو الهيجاء.

مؤامرات علي بن عيسى الشيخ ومؤنس الخادم على ابناء حمدان

اصبح علي بن عيسى الشيخ وبعد أن فقدت اسرته الريادة في بلاد ربيعة يعمل على التشكيك بصلاحية بني الحمدان (عبدالله والحسين) لحكم ديار ربيعة، ويبدو أنه كان على اتفاق مع العسكريين الأتراك الذين يترأسهم مونس الخادم كبير القادة العسكريين في بغداد.

وقد سعى كل من مؤنس وعلي الشيخ عند المقتدر حتى عزل عبدالله بن حمدان أبو الهيجاء عن الموصل سنة ٣٠١هـ، مما جعل عبدالله يثور بقبائل ربيعة معترضاً فقاد مؤنس الخادم جيشاً لقتاله ولكن عبدالله استسلم وطلب ان يؤمن فأمنه مؤنس وبعثه به لبغداد وانتهت الأزمة عند هذا الحد وأصبح الموصل تحت قيادة رجل من بني طولون وليس من ربيعة، وأصبح علي بن عيسى وبوساطة مؤنس وزيراً وقائداً غازياً من القواد، حتى انه كان على رأس الصائفة سنة ٣٠٢هـ.

ثم هاجت قبائل ربيعة في نفس السنة أي سنة ٣٠٢هـ، ويبدو أنهم

غضبوا من عزل أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان عن الموصل وتعيين شخص غير عربي على ديارهم، فثاروا في منطقة وادي الذئاب من بلاد ربيعة، وتوجه لهم مؤنس الخادم على رأس جيش ففتك بعدد كبير منهم ونهب بيوتهم واموالهم التي اخذوها من قطع الطرق في ديار ربيعة[١].

ومما يدل ان ثورة ربيعة هذه كانت اتصاراً لأبي الهيجاء عبدالله بن حمدان ان الخليفة المقتدر مالبث ان اعاده إلى منصبه كأمير وشيخ لربيعة في الموصل بنفس السنة ذاتها فسكنت المنطقة والتفت ربيعة حول زعيمها، في حين استمر كل من: علي بن عيسى الشيخ ومؤنس الخادم مؤامراتهم ضد أبي الهيجاء.

ومع حلول سنة ٣٠٣هـ دبر علي بن عيسى مكيدةً جديدة، وهي انه قام باستغلال منصبه كوزير وارسل للحسين بن حمدان شقيق أبو الهيجاء يطلبه امواله ونصيبه من بلاد ربيعة والتي اخذها منه بنو الحمدان، ومن الطبيعي ان يرفض الحسين وشقيقه أبو الهيجاء ماطلبه ابن الشيخ.

قام ابن الشيخ - وباعتباره وزيراً- بإصدار أوامره للحسين وابو الهيجاء بتقليد ديار ربيعة للدولة العباسية وموظفيها الذين يعتبر ابن عيسى أحدهم وأنه إن لم يفعل يعتبر خارجاً عنها وسيقاتل، ومراد ابن عيسى وضح فهو يمني نفسه بمشيخة ربيعة اذ يرى نفسه وعائلته الأولى بها من بني الحمدان.

ثم ابلغ علي بن عيسى مؤنس الخادم الذي كان غائباً بمصر لصد أحد فتن العلويين هناك، فلما عاد مؤنس سار إلى ديار ربيعة من جهة الغرب، بينما سار علي بن عيسى من بغداد إلى الموصل والهدف هو استئصال بني الحمدان.

---

(١) تاريخ ابن الاثير - حوادث سنة ٣٠٢هـ.

فلما قربت الجيوش من بعضها وجد ان الحسين أكثر عدة وعتاداً من مؤنس وعلي بن عيسى، فهرب مؤنس وتراجع بقواته، بينما استمر علي بن عيسى الشيخ في التقدم ثم بث عيونه وجواسيسه إلى ربيعة، ولما علمت ربيعة ان علي بن عيسى الشيخ موجوداً مع مؤنس مالوا إليه، فاسقط في يد الحسين بن حمدان رغم انه صاحب الكفة الاقوى، ولكن القبائل عادة تحن إلى السلالة الاقدم في المشيخة، فعيسى بن الشيخ من سلالة جساس بن مرة الوائلي قاتل كليب، وكانت لهم مشيخة قبل الأسرة الحمدانية الحديثة العهد بالرئاسة والحكم.

واضطر الحسين بن حمدان أن يرحل إلى جزيرة ابن عمر وهي من ديار تغلب في بلاد ربيعة اسسها عمر بن الخطاب العدوي التغلبي، ومنها إلى ارمينيا بعد أن راسل مؤنس الخادم يعتذر منه، إلّا أن مؤنس طارده حتى قبض عليه وعاد به اسيراً إلى بغداد، ثم تم القبض على شقيقه أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان وبذلك اصبحت اسرة آل حمدان جميعها في الأسر وأصبح علي بن عيسى امير ربيعة سنة ٣٠٣هـ.

وأصبح امير ديار ربيعة عثمان العنزي الذي تولى سنجار وبلد وباعيناثا[١]، عينه مونس الخادم، اذ ان امير ربيعة علي بن عيسى والذي اشترك مع مؤنس في ازاحة بني حمدان قد تورط في قضية مالية فحبس بنفس السنة وهو الموقف الذي لم يكن بحسبان مؤنس، واضطر موءنس ان يكلف عثمان العنزي أميراً لربيعة بدلاً من علي بن عيسى، وعين مؤنس كذلك وصيف البكر على بقية بلاد ربيعة في الجزيرة الفراتية، ونلاحظ ان كل من العنزي والبكري محسوبين على جماعة علي بن عيسى الشيخ إذ إن عنزة كانت في عداد بكر وتقف معها ضد الغريم الرئيسي تغلب والذي ينحدر منه الامراء الحمدانية، ثم توسط مؤنس الخادم فيما

(١) تاريخ ابن الاثير سنة ٣٠٤هـ.

يبدو واطلق صراح علي بن عيسى وعاد ابن الشيخ إلى منصبه في بغداد وأصبح أيضاً مديراً للمالية في خلافة المقتدر.

اطلاق صراح أبو الهيجاء واسرته من بني حمدان

اطلق صراحهم المقتدر سنة ٣٠٥هـ، وعادو إلى الموصل، إلّا أن الحسين بن حمدان قتل سنة ٣٠٦هـ بعد أن وشي به عند المقتدر فامر من يقتله.

وفي سنة ٣٠٧هـ قلد الموصل وامارة ربيعة لأبراهيم بن حمدان وهو شقيق للحسين وعبدالله أبو الهيجاء، واكرم بقية اخوته وهم سعيد (ابو العلاء) ونصر (ابو السرايا)، اما أبو الهيجاء عبدالله فكلفه الخليفة المقتدر بأن يصبح رئيس جبهة الحرب في منطقة خراسان فسار إليها سنة ٣٠٨هـ، وبنفس هذه السنة أي ٣٠٨هـ توفي إبراهيم امير ربيعة وتولى بدلاً منه شقيقه الأمير داوود بن حمدان بن حمدون وفيما يلي شجرة لابناء حمدان بن حمدون التغلبي الربعي[1]:



(١) أخذت الشجرة بتصرف من كتاب التاريخ الإسلامي تأليف الدكتور محمود شاكر (العصر العباسي) ج٢ ص ١٤٠.

وبعد تولي الأمير داوود بن حمدان امر ربيعة اصبح الحمدانيين وقبيلة ربيعة الذراع الاساسي للخليفة للمقتدر في حربه ضد اعداء الدولة وخاصة القرامطة الذين تكاثرت غاراتهم من نجد في هذه الفترة وخاصة انهم تحالفوا مع الفاطميين الذين كانت دولتهم في بداياتها.

القتال بين ربيعة والقرامطة:

حين تولى الأمير داود بن حمدان أمور قبيلة ربيعة أصبح اخوه عبدالله (ابو الهيجاء) مكلفاً من قبل المقتدر بقتال القرامطة والدفاع عن العراق العباسي من غاراتهم التي تأتي من نجد والبحرين، وحماية الحجاج الذاهبين إلى مكة من شرهم، فقام عبدالله بن حمدان بوضع عدد كبير من مقاتلي ربيعة من بني شيبان وعلى رأسهم جعفر بن ورقاء واخيه عبدالله لحراسة الطريق بين مكة والكوفة.

وفي عام ٣١١هـ خرج عبدالله بن حمدان على رأس الحجاج من العراق للحماية، إلّا أن القرامطة اخذوهم وهزموهم وأسروا عبدالله بن حمدان وعدداً كبيراً من بني شيبان، وتمكن القرامطة بقيادة أبو طاهر من دخول البصر وقتل عدد كبير من اهلها.

وفي اوائل سنة ٣١٢هـ عرصض أبو طاهر على الخليفة العفو عن الاسرى من شيبان وعلى راسهم عبدالله أبو الهيجاء بن حمدان مقابل ان يسلمه المقتدر ويتنازل له عن الاهواز والبصرة والكوفة، فهادنه المقتدر واطلق أبو طاهر صراح أبو الهيجاء، إلّا أن المقتدر لم يجبه فهدده أبو طاهر القرمطي بمهاجبمة الحجيج مرة أخرى في موسم ٣١٢هـ.

ونفذ أبو طاهر تهديده وهاجم الحجيج، فقام عبدالله بن ورقاء الشيباني واخوه جعفر بالتصدي له بقبائل ربيعة من بني شيبان، وهزم بني شيبان وانكفوا إلى بغداد، وانكف القرامطة مرة أخرى إلى نجد بالغنائم.

وفي سنة ٣١٤هـ هاج العرب من بادية ربيعة في ديارهم، وقاموا

بقطع طرق المسافرين، فجمع لهم عبدالله بن حمدان وهو امير ربيعة الرسمي المعين من قبل الدولة، وجمع مشائخهم وارغمهم إلى وقف اعمال النهب والسلب.

ويبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك بتحريض من علي بن عيسى الشيخ الذي كان يرى في رئاسة بني حمدان لربيعة تعدي على منصب يرى أن عائلته الأولى به، وقد قدمنا ان مؤنس الخادم التركي كان على علاقة حسنة مع علي بن عيسى هذا وكان يدعمه[١] وقد توسط له هذه السنة لأن يكون وزيراً بعد أن عزل عن هذا المنصب، ولم يثبط مؤامرات علي بن عيسى ومؤنس الخادم ضد بني حمدان الا فتنة القرامطة وحاجة الدولة العباسية لهذه الأسرة.

استيلاء القرامطة على عين التمر ومنطقة الانبار:

تعتبر الانبار القسم الجنوبي لديار ربيعة، واهم مواقعها مدينة الانبار وعين التمر، هاجمها القرامطة سنة ٣١٥هـ، وواجهو جيش الخليفة الذي كان مع مؤنس الخادم، ومعه جيش من ربيعة بقيادة عبدالله بن حمدون أبو الهيجاء.

وهزم عبدالله بن حمدان وجيش الخليفة امام قوات القرامطة الشكيمة والتي تتالف من قبائل عقيل ونمير من بني عامر، وهي تدعو للبيعة إلى الخلفاء الفاطميين، ورغم هزيمة الجيش الربعي العباسي امام القرامطة إلّا أنهم لم يدخلوا بغداد أيضاً وكانت محصنة.

---

(١) وما يدل على أن علي بن عيسى كان مدعوماً من قبل مؤنس الخادم ما حدث سنة ٣١١هـ، حيث تعرض علي بن عيسى إلى مؤامرة ادت بالخليفة المقتدر ان يقوم بنفيه لليمن، ثم توسط له مؤنس للعودة إلى مكة ثم بغداد.

أبو طاهر القرمطي يفرض الاتاوة على قبائل ربيعة

بعد احتلاله للانبار وعين التمر قام أبو طاهر باحتلال بقية ديار ربيعة، فاستولى على الرحبة، والجزيرة، وكفر توتا، والرقة، وسنجار التي كان قائما عليها عثمان العنزي، وفرض على اعراب الجزيرة إتاوة على كلّ رأس دينار يحملونه إلى هَجَر[1]. وأصبح موقف قبائل ربيعة في غاية الصعوبة وخاصة ان من فرض الاتاوة هم من قبائل قيس ألد أعدائهم.

مقتل أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان:

كان مؤنس الخادم هو الحاكم الفعلي زمن المقتدر الذي يستمد قوته من كونه الخليفة الشرعي فقط من بلالة بني العباس، وكان أكثر قواد الدولة من الترك ولم يكن من العرب البارزين في مناصب الدولة الا علي بن عيسى وابو الهيجاء، وقدمنا ان لعلي بن عيسى علاقته مع مؤنس واتفاق الاثنين ضد بني حمدان الموالين للمقتدر.

وأخرج مؤنس شريكه علي بن عيسى من السجن وكان محبوساً، ثم عزم مؤنس على خلع المقتدر واجبر عبدالله بن حمدان ان يكون معه وان يشهد على الخلع ضمن الشاهدين، فبكي عبدالله بن حمدان وهو يرى المقتدر الخليفة العوبة بيد الأتراك اتباع مؤنس حيث حضر جلسة خلعه عن الحكم، وبويع للقاهر بدلاً من المقتدر في محرمسنة ٣١٧هـ.

وفي صباح السابع عشر من محرم سنة ٣١٧هـ وهو اليوم الذي قرر لأخذ البيعة للظاهر من كل الجنود، وبدلاً من البيعة هاجم الجنود المتمردون قصر الخليفة الجديد مطالبين برواتبهم وبعودة الخليفة المقتدر، وسبب هجومهم هو استفزاز حجاب القصر من الضباط الأتراك الذين عينهم مؤنس الذي لم يحضر البيعة العامة.

---

(١) تاريخ ابن الاثير حوادث سنة ٣١٥هـ وهجر هي الاحساء.

ودخل الجنود الغاضبين قصر الخليفة القاهر ولم يكن معه الا عبدالله بن حمدان بن حمدون، وفكر ان يهرب ويترك الخليفة بوجه هذا التيار الغاضب إلّا أن الخليفة تعلق به وقال:

أنا في ذمامك؛ فقال عبدالله بن حمدان: والله لا أسلّمك أبداً؛ وأخذ بيد القاهر وقال: قم بنا نخرج جميعاً، وأدعو أصحابي وعشيرتي فيقاتلون معك ودونك[1].

لكن الكثرة غلبت ومنعت ابن حمدان والقاهر من الهرب إلى ديار ربيعة، فقتلوا سويةً وعاد المقتدر إلى الخلافة.

وبعد مقتل أبو الهيجاء هرب اخوه نصر أبو السرايا إلى الموصل خوفاً من ان يقتله الجنود الغاضبين، اما رئاسة ربيعة بعد مقتل أبي الهيجاء عبدالله فقد ورثها ابنه الحسن بن عبدالله الملقب بـ (ناصر الدولة) وأصبح ناصر الدولة أيضاً أميراً على الموصل مطلع عام ٣١٨هـ، فخرج عليه ثائر عرف بـ (ابن مطر) ويظهر لي انه من سلالة معن بن زائدة للن أحد أجداد معن اسمه مطر وعرفت عائلته بهذا اللقب، واشتبك ناصر الدولة مع ابن مطر هذا وهزمه.

خلع ناصر الدولة الحسن بن عبدالله:

لم يرضى اعمام الحسن بن عبدالله ان يتولى امر ربيعة وهم (نصر وسعيد ابناء حمدان)، وهم اولى بحكم السن، فخلعوه عن الموصل، وعينوه أميراً على بقية ديار ربيعة من قبلهم وبأمرهم، وأصبح ناصر الدولة في البادية بسنجار، واعمامه نصر وسعيد بالموصل يدبران الأمور.

ثم ظهر رجل من بني مطر مرة أخرى في شعبان سنة ٣١٨هـ وخرج وتمرد على بني حمدان بكفر توتا ببلاد ربيعة، ويقال انه من ذرية بني

(١) تاريخ ابن الاثير لحوادث سنة ٣١٧هـ.

العتاب من تغلب رهط عرو بن الكلثوم، ولا نظن نحن ذلك والاقرب انه من شيبان بكر، ولانستبعد تحريك علي بن عيسى الشيخ لهؤلاء لانه كما قلنا لا يريد ان تتحول رئاسة ربيعة إلى فرع بني تغلب.

لكن هذا المطري هزم من قبل قوات ناصر الدولة في ديار ربيعة، وبتوجيه من عمه نصر في الموصل.

ناصر الدولة يحارب الروم

وذلك في سنة ٣١٩هـ، حيث استولى الروم على ارمينيا وكانت لقبيلة ربيعة منذ ايام الأمير خالد بن يزيد، ولم يبقي الروم بالبلاد من العرب أحداً، وطالب المقتدر من ناصر الدولة أن يحاربهم، وكان راس جيش الروم مليح الأرميني، وتحارب الطرفين وانتصر ناصر الدولة.

مؤنس الخادم من جديد ضد بني حمدان سنة ٣٢٠هـ

لم يكف مؤنس عن مؤامراته ضد المقتدر وبني حمدان، وجمعته المصلحة مع علي بن عيسى الشيخ الطامح للعودة إلى مشيخة ربيعة واستئصال بني الحمدان.

غضب مؤنس من المقتدر سنة ٣٢٠هـ، وسير جنوده إلى الموصل، فلما توسطت بين قبائل ربيعة قبيل الموصل ارسل لهم يزعم ان الخليفة المقتدر عينه على ديار ربيعة.

وجاءت الرسايل من بغداد تؤكد كذب مؤنس هذا، وان على بني حمدان بن حمدون محاربته بأمر المقتدر ذاته، واجمع بني حمدان على حرب مؤنس ما عدا داوود بن حمدان اذا ان مؤنس كان من المحسنين إليه وهو الوحيد من هذه الأسرة الذي كانت علاقته بمؤنس جيدة(١).

(١) داوود كان قد تربى عند مؤنس صغيراً وتعلم عنده فنون القيادة والرئاسة.

ولكن داوود وبالحاح من اخوته ناصرهم بعد ذلك على مؤنس، وخاصة ان مؤنس يشكل خطراً على اسرة بني حمدان ككل وحليفهم الخليفة المقتدر.

واشتبك بني حمدان وورائهم ربيعة مع مؤنس وجنوده الأتراك، وانتصر مؤنس الخادم، وقتل داوود، وتم الاستيلاء على املاك الحمدانيين وتم اسرهم.

اما ناصر الدولة الحسن بن حمدان القائم على ربيعة في البادية فإنه اتسلم لمؤنس بعد أن علم انه انتصر في الحرب، وعينه مونس بمكانه أميراً على ربيعة بينما حكم مؤنس الموصل حكماً مستقلاً ومباشراً، ثم خرج مونس الخادم من الموصل وقام بانقلاب عسكري آخر على المقتدر وقتله سنة ٣٢٠هـ، وبقيت الموصل بيد ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان ولكنه كان تابعاً لمونس.

إلّا أن مونس وبعد أن قام بتعيين وبيعة الخليفة القاهر قتل هو الآخر بعد أن غدر القاهر به، واضطربت الأمور ببغداد سنة ٣٢٠هـ و٣٢١هـ، واستقل ناصر الدولة بالموصل وديار ربيعة مرة أخرى لتبدأ مرحلة أخرى من تاريخ الدولة الحمدانية، اما اعمام ناصر الدولة وهم نصر وسعيد فقد اقاموا بتكريت بالبادية.

حرب بين ربيعة وبني اسد وقبيلة طيئ

وفي سنة ٣٢١هـ تحالفت قبائل بني اسد (وهم مضر) مع طيئ ضد قبيلة ربيعة، وهاجموا ديارها وتناوخوا مع عدد من بني مالك من تغلب، وركب لهم ناصر الدولة ومعه أحد ابناء اخيه للصلح، لكن بني اسد اصروا على الحرب وطعنوا ابن اخي ناصر الدولة، ثم تحاربت معهم ربيعة وانهزموا، واجتمعوا بعد ذلك في منطقة الحديثة قرب بغداد، وقد جمعهم أحد غلمان مؤنس الخادم واسمه يأنس وسار بهم يريدون

الموصل إلّا أن ناصر الدولة منعهم وبقي ايمرا على ربيعة مستقلاً بالموصل، ومع ذلك فيأنس هذا ظل يجمع قبائل اسد ونمير وكلاب وهم من قيس ويغير بهم دائماً على ديار ربيعة وسيكون ليأنس هذا دور مهم جعل سيف الدولة الحمداني يستولي على حلب كما سياتي ذكره في مكانه.

ناصر الدولة يقتل عمه سعيد أبو العلاء سنة ٣٢٣هـ:

ذكرنا أن سعيد بن حمدان سبق وان اخرجه مؤنس الخادم من الموصل مع اخيه نصر، وبقي ناصر الدولة ابن اخيه بالموصل وشخا على ربيعة.

وفي محاولة لاستعادة نفوذه خرج سعيد أبو اعلاء من بغداد بخمسين رجلاً من ربيعة ويتأييد من الخليفة الراضي بالله (٣٢٢هـ - ٣٢٩هـ) ليأخذ مكان ناصر الدولة، إلّا أن ناصر الدولة وبعد أن استقبله أمر من يقوم باغتياله وقتل وبقيت ربيعة بيد ناصر الدولة.

وبعد أن علم الراضي بالله انفذ حملة من قبله للموصل، فهرب ناصر الدولة من الموصل إلى بادية ربيعة، ثم عينت الدولة العباسية اثنين من الاكراد للقيام بادارة الموصل وهم: عليَّ بن خلف بن طباب وماكرد الديلميّ.

جمع ناصر الدولة بادية ربيعة واغار على هذين الاميرين، وبعد عدة غارات هرب هؤلاء من امام ناصر الدولة الحسن، فدخل الموصل، وبعث برسالة إلى الراضي يطلب فيها ان يجعله أميراً على ربيعة ويصفح عنه وثبته على منصبه، واجيب ناصر الدولة إلى ذلك واستقرت أمور ربيعة علي يديه على ان يؤدى الكاة والخراج لبغداد.

وهكذا عادة أمور قبيلة ربيعة مستقرة زمن ناصر الدولة الحسن بن عبدالله، وكان ساعده الايمن جعفر بن ورقاء الشيباني، وشقيقه شاعر

ربيعة في زمنه عبدالله بن ورقاء، ووقع ناصر الدولة اتفاقاً لتبادل الاسرى مع الروم سنة ٣٢٦هـ وكان رئيس الوفد الربعي المفاوض هو جعفر بن ورقاء.

توتر العلاقة بين بغداد وربيعة سنة ٣٢٧هـ:

يبدو أن القادة الأتراك والفرس حيث اصيح بني بويه الشيعة هم المتحكمون في الخلافة لم يرضوا بولاية للعرب مثل ولاية ناصر على ربيعة واستقلالهم بديارهم، واخذوا يدبرون المؤامرات، وخاصة الأمير بجكيم وهو تركي، وكان يشغل منصب أمير الامراء الذي معه صلاحيات الخليفة كاملة.

ففي عام ٣٢٧هـ تأخر خراج الموصل وديار ربيعة عن الوصول، وسير الراضي وامير بجكم حملة لديار ربيعة، وانتصروا على ناصر الدولة، فهرب إلى آمد قرب الموصل، لكن الخليفة انشغل بأمر القرامطة وعاد مع بجكم، مما اغرى ناصر الدولة بالعودة ومن ثم عرض الصلح على الخليفه واميره بجكم، وتم قبول الصلح، ربما لأن خطر آخر لايقل عن خطر القرامطة بدأ يظهر بقوة وهو أبو عبدالله البريدي الذي كان يحاول انهاء الخلافة العباسية وكان على وشك دخول بغداد.

تغير أمور الدولة لصالح الحمدانيين:

وفي سنة ٣٢٩هـ توفي الراضي بالله الخليفة، وتولى المكتفي بالله الخلافة، لكن اصحاب أبي عبدالله البريدي تمكنوا فعلاً من دخول بغداد، والتحكم فيها، وهرب المتقي إلى ديار ربيعة حيث الأمير الحمداني القوي ناصر الدولة الحسن بن عبدالله وطلب منه العون لطرد البريدين واستعادة هيبة الخلافة.

وحيث كان الأمير الحمداني الحسن طموحاً، نزاعاً إلى توطيد ملك

لقبيلته لم يشا ان تضيع هذه الفرصة من بين يديه، فاصطحب الخليفة المكتفي وسار على رأس جيش كبير معقوداً لواءه على أخيه الأصغر علي، وما كاد الركب يصل بغداد، حتى نجا البريديون بأنفسهم، وفروا أمام الجيش الحمداني الذي يتكون من قبائل ربيعة القوية.

وتعتبر هذه الحادثة نقطة تحول في تاريخ بني حمدان بل وتاريخ النفوذ العربي في قصر الخلافة العباسي بعد عقود طويلة من سيطرة الفرس والأتراك، فلقب الحسن بن حمدان بـ (ناصر الدولة) ولقب اخيه علي بـ (سيف الدولة) وتولى ناصر الدولة منصب امير الامراء وهو من المناصب المستحدثة في العهد العباسي الثاني ولم يتول هذا المنصب عربي قط قبل ناصر الدولة هذا. .وقد اغتصبه سيف الدولة من ابن الرائق وهو من الأتراك بعد أن قتله.

ثم واصل ناصر الدولة حروبه ضد اعداء المتقي وخاصة اتباع البريديين وهزمهم بواسط في اواخر سنة ٣٢٩هـ وهزمهم، وتم تعيين ابنه علي سيف الدولة أميراً على واسط، وأصبحت الدولة العباسية فعليًّا بيد بني الحمدان العرب لدرجة ان ناصر الدولة امر بتغيير العملة وضربها بعد أن لاحظ تلاعب الأتراك والفرس بها.

ثم لم يلبث العراق كله ووفق خارطته السياسية المعروفة اليوم ان اصبح بيد ناصر الدولة، مما اثار نقمة الأتراك وبني بويه فأخذوا يهاجمونه باعداء ربيعة التقليديين وهم بنو عامر من قيس عيلان.

وكان بنو عامر هم اتباع القرامطة في نجد، لكن فتنة دبيت بين القرامطة ادت إلى نزوح بطون منهم إلى الشام وخاصة نمير اهل اليمامة، وأصبحوا هؤلاء العرب سويفا بيد القادة الأتراك ضد ربيعة وأميرها ناصر الدولة الحمداني.

ومن الأتراك الثائرين ضد ناصر الدولة هو الأمير عدلي البجمكي،

وحاول استمالة بني نمير إلّا أنه فشل بذلك، وتواجه مع سيف الدولة قرب الخابور بديار ربيعة وهزم واقتيد إلى بغداد.

خلع الأمير علي بن عبدالله سيف الدولة عن واسط

كان سيف الدولة الأمير علي أميراً على واسط كما قدمنا، وقد عينه اخوه الحسن عليها، وكانت سياسته مع الأتراك ان يفرقهم، ويحاول ان يغريهم بالهجرة إلى مصر والشام وترك العراق، إلّا أنهم وثبوا عليه وحاولوا اغتياله في شعبان سنة ٣٣١هـ، وقتلوا عدد من ربيعة معه ومن خاصته.

ثم اتحد الأتراك وقائدهم اسمه توزون لحرب بني الحمدان تعاونهم قبائل نمير القيسية، فخرج ناصر الدولة إلى الموصل خوفاً عليها، ومعه اخوه ناصر الدولة في رمضان من عام ٣٣١هـ، ثم اصبح سيف الدولة أميراً على تكريت وهي من ضمن ديار ربيعة، بينما استولى توزون على امارة الامراء وتحالف مع البريديين مرة أخرى، ولا نستبعد تحريض علي بن عيسى بن الشيخ الوزير على الحمدانيين وهو حتى عام ٣٣١هـ لا يزال في منصبه كوزير للخلافة.

الخليفة المتقي وبني الحمدان ضد الأتراك سنة ٣٣٢هـ

هرب المتقي الخليفة إلى تكريت حيث سيف الدولة، وامر الحسن ناصر الدولة بأن يقدم بجموع ربيعة لقتال الأتراك ورأسهم توزون وحلفائه البريديين، وجاء ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة، وقاتلهم توزون وهزمهم، ثم اجبرهم على أن صلح تم بموجبه تنازل توزون عن الموصل لناصر الدولة لمدة ثلاث سنوات، على ان له ديار ربيعة أي لناصر الدولة، فغير ناصر الدولة مقر اقامته وجعلها بالرقة آخر ديار ربيعة جهة الغرب، وأقام الخليفة المتقي بين الحمدانيين بالرقة ولم يستطع الذهاب إلى بغداد التي دبت بها الفوضى.

تأسيس الدولة الحمدانية في حلب سنة ٣٣٣هـ

حاول المكتفي ان يتصل بقوة أخرى غير الحمدانيين تعيده إلى بغداد، فلم يجد إلّا ابن الاخشيد حاكم مصر، وكان له علاقة طيبة مع الحمدانيين، وراسله المكتفي واجتمع به بديار ربيعة بالرقة وفي المخيم الحمداني، وعرض الحمدايين على الاخشيد ان يسير معهم إلى بغداد لقتال توزون والأتراك ولكن الاخشيد رفض ذلك وعاد إلى مصر، فقرر المكتفي أن يسير بنفسه إلى بغداد ليقتل هناك ويخلع ويبايع بدلاً منه المستكفي بالله في صفر سنة ٣٣٣هـ.

وسمع سيف الدولة الحمداني بوجود يانس غلام مؤنس الخادم قرب حلب ومن معه من اعراب نمير وكلاب واسد، وكانت حلب بيد الاخشيد، وأخذ سيف الدولة يتحين الفرص للهجوم على حلب، وواتته الفرصه عندما جاء إليه وفد من قبيلة بني كلاب يشكونه حكم أبي الفتح الكلابي وهو المعين من قبل الاخشيد أميراً على الاعراب.

سار سيف الدولة إلى الشام لتخليصها من نفوذ الاخشيد ومن يواليه من بني كلاب بن عامر واستطاع دخول حلب بغير حرب وهزيمة قوات الاخشيد في حمص والتي كان يقودها (كافور وهو عبد الاخشيد)، وبسط سيف الدولة سلطته على دمشق ومن ثم على الشام كله حتى بلغت الاخبار الاخشيد في مصر فقرر الانتقام من سيف الدولة واستعادة الشام منه.

سار الاخشيد من من مصر على رأس جيش كبير ووصل الشام وتقابل مع سيف الدولة في قنسرين وهزم سيف الدولة بتلك الحرب وانكف سيف الدولة إلى بلدة الرقة، بينما قام الاخشيد بتخريب مدينة حلب وتقطيع بساتينها انتقاما من اهلها لميلهم لسيف الدولة.

ومع دخول سنة ٣٣٤هـ انتهت الحرب بين الطرفين (الحمداني والاخشيدي) انتهت بالصلح بين الطرفين على أن تدخل حلب وحمص

فقط إلى حوزة سيف الدولة، بينما تبقى دمشق وأعمالها لصالح الاخشيد في مصر، وتوجت العلاقة بين الدولتين بزواج سيف الدولة من فاطمة ابنة اخ الاخشيد.

وبهذا تأسست امارة الحمدانيين على فرعين سلالتين كل منهما مستقلة عن الأخرى وهم:

١- ناصر الدولة في الموصل وهو الحسن بن عبدالله بن حمدان، وبقيت امارته كما هي وتتبعه ربيعة، إلّا أنه لا زال على الاتفاق الذي وقعه مع توزون على ان الموصل له مدة ثلاثة سنوات قابلة للتجديد مقابل دفعه مبلغا من المال عن كل سنة، لكن الأمر تغير عندما سيطر معز الدولة البويهي على بغداد سنة ٣٣٤هـ، فحاول ضم الموصل وديار ربيعة له، إلّا أن ناصر الدولة قاومه بشدة واغرى بادية ربيعة بالهجوم على بغداد ونهبها، بل واستطاع احتلال بغداد في رمضان سنة ٣٣٤هـ، فعرف معز الدولة البويهي ان ناصر الدولة ليس بالخصم الهين وورائه اعرابه من ربيعة، فعقد معه الصلح وكل بقي على امارته سنة ٣٣٥هـ، البويهي ببغداد وبقبضته الخلافة، وناصر الدولة على ربيعة بالموصل أميراً مستقلًّا.

٢- الامارة الثانية هو التي اسسها سيف الدول بن الحسن بن حمدان بعد استيلائه على حلب من قبل الاخشيد، وهي الدولة الحمدانية الحقيقية والتي تعتبر من مآثر ربيعة، حيث أن قبائل ربيعة مالبث أن التفت على سيف الدولة هذا وبقي معاوناً لأخيه على امارة الموصل وبلاد ربيعة حيث أن الشام كان أغلبه لقبائل قيس التي هي حديثة عهد بالمنطقة اذ هاجرت إليها بعد أن ضعف امر القرامطة بنجد.

وسنبدأ حديثنا في عرض هذه المرحلة الهامة من تاريخ ربيعة، والتي أصبحت لهم فيها دولة، توحدت قبائلهم في ظلالها، واستقلوا بديارهم، وأضافوا للسجل الوائلي الربعي الملاحم تلو الملاحم، سنبدأ

بالحديث عن الدولة الحمدانية بحلب وهي دولة سيف الدولة الأمير علي.

عبدالله (أبو الهيجاء) بن حمدان العدوي الوائلي الربعي

ناصر الدولة	سيف الدولة
الحسن مؤسس إمارة الموصل	علي مؤسس إمارة حلب

الدولة الحمدانية في كل من الموصل وحلب

حكم سيف الدولة في حلب (٣٣٣هـ - ٣٥٦هـ)

ذكرنا مقدماً ان سيف الدولة حكم حلب، استولى عليها وأخذها من محمد بن طغج الاخشيد القائم بحكم مصر، ووقع سيف الدولة بعد ذلك اتفاقاً وديًّا مع محمد الاخشيد تنازل له الاخشيد بموجبه عن حلب، على ان يكون بقية الشام بيد الاخشيد وهي دمشق وحمص، وهذه المناطق كانت محسوبة لقبائل قيس عيلان التي سبق وأن قلنا قدومها من نجد بعد ضعف القرامطة.

ثم تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد، وبدا يرتب أمور دولته وعلاقته الخارجية مع القوى الأخرى، بشكل أكثر وأفضل من أخيه ناصر الدولة بالموصل الذي كان يعتمد بقوته على عصبة قبيلته ربيعة.

اما الأمر امام سيف الدولة فمختلف، حيث أنه يحكم بلاداً ليس فيها من قومه العدد الكثير، ولذلك حرص شيف الدولة ان يكون عضداً لامارة اخيه ناصرالدولة، ولعل هذا ما يفسر عدم تفكيره بغزو بلاد ربيعة وحكم الموصل بشكل مباشر.

وفي هذه الفترة ظهر الشاعر المتنبي المعروف من بادية الكوفة من كندة الازد، واتصل بسيف الدولة وكان يمدح بطولاته وقبيلته ربيعة، ويذم بالمقابل بأعداء ربيعة من قبائل بني عامر مثل كلاب ونمير وكعب ويعيب عليهم دعمهم للقرامطة، وظهر في هذه الفترة أيضاً الشاعر عبيد الله بن ورقة الشيباني الوائلي وكان أحد فرسان ربيعة، كذلك الشاعر المعروف أبو فراس الحمداني، وهو ابن عم سيف الدولة واسمه: الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون العدوي الربعي. وقد اعتمد عليه سيف الدولة في قيادة الغزوات وشؤون الحكم كما سنرى.

توتر العلاقة بين الاخشيديين وسيف الدولة

انتهينا إلى أن سيف الدولة تزوج بنت الاخشيد محمد، إلّا أن الاخشيد توفي سنة ٣٣٤هـ، وحكم بعده ابنه، وكان صغيراً، فاستولى عبد لهم يقال له (كافور) على الحكم.

ولما مات اختلفت قبائل الشام من بني عقيل ونمير، واقترح سيف الدولة عليهم ان يحكمها هو أي يحكم الشام، فرفضوا حكمه وكتبوا إلى كافور سنة ٣٣٦هـ ليرسل لهم من قبله أميراً فهم لا يريدون ان يحكمهم ربعي.

فهجم سيف الدولة عليهم، وحكم المنطقة إلّا أن قوات كافور قد قدمت من مصر، فهرب سيف الدولة من حلب ودخلها يانس المونسي بقبائل اسد وعامر، فطاردوه هناك واضطر أن يهرب إلى قبائل ربيعة في الجزيرة يستنصرهم ضد قبائل بني عامر التابعة لكافور، واستطاع سيف الدولة العودة إلى حلب مرة أخرى واخراج يانس المونسي، ثم اغرى سيف الدولة قبائل بني عقيل وكلاب فانضمت إليه علاوة على من معه من ربيعة، ووقف الجميع بوجه كافور ويانس المونسي، فانهزموا امام سيف الدولة، وجدد الصلح كما كان ايام الاخشيد محمد، وبنى سيف الدولة

قصره بحلب وعين أبو فراس ابن عمه أميراً على منبج وأصبحت قبائل بني عامر تتبعه، في حين قبائل ربيعة تتبع اخوه ناصر الدولة.

حرب سيف الدولة مع الروم

كان الروم وحلفائهم الارمن يكرهون قبائل ربيعة منذ ان استولت على ديارهم ايام خالد بن يزيد الشيباني، ولذلك منذ ان قامت الامارتين الحمدانيتين لم يكف الروم والارمن عن غزو ديار ربيعة، ووجه سيف الدولة لهم جيشاً سنة ٣٣٩هـ وقتل عدد كبير منهم وسبى الكثير، غير أنه تمكنوا من التضييق عليه وعلى قواته واستردوا ما خسروا وعاد سيف الدولة بدون نتائج حاسمة.

ثم كر عليهم سنة ٣٤٢هـ وقتل عدد كبير منهم من أهمهم الدمستق وهو كبيرهم، ومدحه الشاعر المتنبي بقصيدة منها:

فتيها وفخرا تغلب ابنة وائلٍ   فانت لخير الفاخرين قبيل

ثم هزم سيف الدولة أول تحالف صليبي من الروس والروم والبلغار سنة ٣٤٣هـ، وكانوا قد تحالفوا ضده، وبعد هذا الانتصار طار صيت سيف الدولة في العالم الإسلامي ومدحه المتنبي فمما قاله:

تشرفت به عدنان لا ربيعة   وتفتخر الدنيا به لا العواصم

وقد تعدد وتكاثرت غزوات سيف الدولة للروم حتى بلغت اربعين غزوة أو أكثر انتصر في معظمها، منها غزو سنة ٣٤٥هـ حارب بها طرطوس في سورية اليوم، وقد رد الروم وانتقموا بأن قاموا بغزو بلاد ربيعة قرب الموصل انتقاماً، ثم كرر سيف الدولة الغزو سنة ٣٤٩هـ ولكنها غير موفقة اذ خسر سيف الدولة فيها.

الحرب بين قبيلة ربيعة وبني عامر

ويبدو أن قصائد المتنبي ومدحه لربيعة قبيلة سيف الدولة قد أثار

اتباع سيف الدولة من قبائل بني عامر مثل كلاب ونمير، وبدا بنو كلاب بالاثارة والتعدي على الربعيين، فغزاهم سيف الدولة وقتل عدد من فرسانهم، ثم مدحه المتنبي مدحاً يبدو أنه هو ما اشعل الصراع الربعي العامري في هذه المرحلة التاريخية، حيث أنه انتقد بني عامر بشعره، ووصف تبعيتهم للقرامطة ومنها قوله عن سيف الدولة:

بنو قتلى ابيك بأرض نجدٍ ومن ابقى وابقته الحراب

ويشير بالبيت إلى وقعة أبو الهيجاء مع القرامطة وهزيمته لهم وقد ذكرناها سابقاً.

وهذه الابيات والقصيدة من قبل المتنبي اثارت حمية بني عامر، واجتمعوا من كل حدب وصوب على شيخهم محمد بن بزيع آل مهيا امير بني عامر بزمنه، وانضمت لهم قبيلة كلب وطيئ، وقرروا الانتفاضة ضد سيف الدولة وقبيلة ربيعة وذلك سنة ٣٤٤هـ.

وتقابلت ربيعة وبني عامر وحلفائها طيئ وكلب، واقتتل الفريقان وتناوخوا بعنف حتى انهزم بني عامر وانتصرت ربيعة بقيادة سيف الدولة، وقام المتنبي كالعادة يصف المعركة ويذم بني عامر ويمدح ربيعة بالمقابل:

وملمومة سيفية ربعية تصيح الحصى فيها صياح اللقالق

وهذه الوقعة كانت من اشد وقعات العرب في القرن الرابع الهجري، وتفاعل معها شاعر ربيعة عبدالله بن ورقة الشيباني حيث مدح سيف الدولة وذكر مآثر بني وائل ومما قاله عن عنزة:

يعز جميع العرب عزٌ «ربيعه» فعزت ولا ذلت وزادت تساميا

فمنا «شعيب» الأنبياء و«صالح» وناهيك فخراً بالكواكب راديا

فأما شعيب فالخصيص بفضله «العنزيون» الكرامُ بواديا

وتفاعل معه أبو فراس الحمداني والف ملحمة طويلة عن مآثر بني الحمدان وقبائل ربيعة ومما قاله يجاري عبدالله بن ورقاء:

لئن باعتدكم نية طال شحطها   فقد قربتنا نية وضمائر
ويجمعنا في وائل عشرية   ورد وأرحام هناك وشواجر

وهو يشير إلى وحدة قبائل ربيعة والتي التفت حول زعامة بني الحمدان، ولا ريب أن أبو فراس هنا يتكلم عن قبائل ربيعة بكاملها والملتحمة تحت العزوة الوائلية اليوم والتي تعرف بها قبائل عنزة المعاصرة، التي هي نتاج هذه التداخل والتوحد الربعي، خلافاً لمن يقول بتشتت قبائل ربيعة وتعددها من مؤرخي هذا العصر، فبنو وائل لا زالوا يعرفون حتى اليوم بعد أن انتسبوا لعمهم عنزة بن أسد بن ربيعة ولا زالوا يحفظون العزوة الوائلية حتى اليوم.

الشق الثاني للامارة الحمدانية: امارة الموصل وقائدها ناصر الدولة

هو الأمير الحمداني الذي كان قائماً على الموصل وديار ربيعة إلى جانب اخوه سيف الدولة القائم في حلب والذي تحدثنا عنه، غير أن سيف الدولة وشهرته قد غطت كثيراً على اخيه ناصر الدولة فاخترنا الحديث عن سيرة السيف الدولة ابتداءً، ويحسن ان نذكر بعض اخبار ناصر الدولة قبل الدخول إلى مرحلة ما بعد وفاة سيف الدولة وحتى انقراض الدولة الحمدانية بفرعيها نهائيًّا اوائل القرن الخامس الهجري.

وأفضل وصف لإمارتي ربيعة في الموصل وحلب ما نقل عن الشاعر الدارمي قوله:

بجبلي وائل وركني عزها   وعارضي افق نداها المنهل

وسبق ان نقلنا شيء يسير عن بدايات ناصر الدولة، وهو القائم والشيخ الحقيقي لربيعة القبيلة، وكان المنافس له في العراق قوتين: الأولى قبيلة الديلم والتي ينحدر منها آل بويه وهم فرس، والثانية هم الأتراك وقبائلهم.

كان خطر آل بويه أكثر من الأتراك على ناصر الدولة وقبيلة ربيعة، لأن آل بويه علاوة على التفاف قبيلة الديلم عليهم فهم يسيطرون على الخلافة نفسها في بغداد منذ سنة ٣٣٤هـ.

ومن الطبيعي ان لايرتاح آل بويه وهم يرون ناصر الدولة مستقلاً بامارة الموصل وبلاد ربيعة، ولم يكف آل بويه من توجيه الحملات تلو الحملات للسيطرة على اعراب ربيعة وبلادهم، ومع ذلك استطاع ناصر الدولة ان يبقي امارته مستقلة حتى وفاته سنة ٣٥٧هـ.

الصراع بين آل بويه وناصر الدولة الحمداني

أغلب بادية ربيعة كان يتبع ناصر الدولة وهم بكر بمن فيهم عنزة وتغلب والنمر، ولا تتحدث المصادر التاريخية عن هذه الفروع، بل يجمعونها غالباً بالقول (ربيعة) أو (أعراب ناصر الدولة)، كان لهؤلاء الاعراب الدور الأكبر في ابقاء حكم ناصر الدولة مستقلاً وقويًّا، اذ ان ناصر الدولة كلما أحس بخطر آل بويه اغرى اعرابه بقطع الطرق، وغزو الحواضر واثارة الفتن، وفرض الاتاوات على الطرق، وفي المقابل كان آل بويه يستمدون قوتهم من قبيلة الديلم الفارسية.

ووسط هذا كله قبائل الأتراك بقيادة آل توزون، التي كانت تحاول التحالف مع ناصر الدولة ضد آل بويه الشيعة الذي يحيون العادات الفارسية المجوسية.

الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة البويهي:

لما استولى احمد بن بويه (معز الدولة) على بغداد حاول ضم الموصل وبلاد ربيعة، وبين ناصر الدولة والأتراك اتفاق ضد آل بويه الشيعة، وسيرت حملة من بغداد البويهية إلى الموصل، فلجأ ناصر الدولة إلى بادية ربيعة وجمعهم، واتفق مع الأتراك على ان يقوم الأتراك

بمحاربة آل بويه بتكريت، بينما يقوم ناصر الدولة بعربانه ربيعة بتخريب المدن ونهبها وعلى رأسها بغداد، وهكذا كان الأمر التمت بادية ربيعة على بغداد وعملت في القتل والنهب.

بالمقابل جاء آل بويه بقبائلهم الديلم، فحاربو ربيعة، بينما هزم هو الأتراك، ثم ارسل إلى ناصر الدولة وفداً يطلب الصلح على ان يكف الطرفين عن بعضهم ويدفع ناصر الدولة جزية لبغداد دار الخلافة، ففعل ناصر الدولة ووافق على الشروط وعاد إلى الموصل حاكماً مطلع سنة ٣٣٥هـ.

الأتراك يحاربون ناصر الدولة الحمداني:

وفي اواسط عام ٣٣٥هـ علم الأتراك أن ناصر الدولة اتفق مع آل بويه وهم حلفائه، فقاموا بغزوه، واضطر للهروب إلى نجد حيث القرامطة من بني عامر، ولجأ لهم، وبحث عنه الأتراك في الموصل ولم يجدوه حتى اعادوه القرامطة إلى الموصل وبدأ ينضم أموره لمحاربة الأتراك.

وتحالف آل بويه مع ناصر الدولة، ثم انتصر ناصر الدولة على الأتراك، وحاول آل بويه اغتيال ناصر الدولة ولكنه هرب رغم انهم معه ضد الترك، فلم يجبهم لدعوة كانوا قد وجهوها له في تكريت سنة ٣٣٥هـ بعد الانتصار على الترك.

وفي سنة ٣٣٦هـ حاول الأتراك بقيادة جمان آل توزون احتلال الرحبة والرقة وهي من ديار ربيعة، وقتلوا عدد كبير من القبيلة، ووجه لهم ناصر الدولة جيشاً قضى على جمان وقتل عدد كبير من الأتراك.

آل بويه يواصلون محاولاتهم ضد ناصر الدولة سنة ٣٣٧هـ:

هجمت قبيلة الديلم بقيادة معز الدولة البويهي على الموصل في

رمضان سنة ٣٣٧هـ، وخربت وقتلت، وغادر ناصر الدولة إلى بادية ربيعة، لكن ظروفاً وقعت اجبرت معز الدولة ان يصالح ناصر الدولة الحمداني مرة أخرى ويغادر الموصل ليعود الحمداني حاكماً مرة أخرى على ان يودي جزية عن بلاد ربيعة كلها لبغداد، وان تكون الجزية شاملة امارة حلب التي يحكمها علي سيف الدولة الحمداني، فاشترك الأميرين الوائليين في دفعها.

ثم زادوا البويهيين الضربة التي يدفعها ناصر الدولة عن ربيعة إلى أن وصلت إلى مليوني درهم، اشترك في دفعها أمير حلب وأمير الموصل الشقيقان.

طرد ناصر الدولة الحمداني

وفي سنة ٣٤٧هـ استثقل الحمدانيون الضريبة، فلم يدفعوها، فخرج آل بويه بقيادة معز الدولة البويهي إلى الموصل، واحتلوها، بالمقابل قاد ناصر الدولة بادية ربيعة، وأمرهم بتخريب الطرق مجدداً، والاغارة على المدن مثل بغداد وتكريت، ومما جعل الأمور تسير لصالح قبيلة ربيعة، خاصة أن الديلم وهم قبيلة معز الدولة كانوا على خلاف معه تلك السنة، فضاقت الأمور على معز الدولة، فطلب من ناصر الدولة ان يكف قبائله عن الغزو والنهب مقابل عودته واعتراف آل بويه به مرة أخرى، وخاصة أن ناصر الدولة لجأ إلى حلب حيث أخوه سيف الدولة، وكلف هبة الله ابنه بقيادة قبائل ربيعة بالبادية، فتعقدت الأمور أكثر وأكثر على آل بويه ولم يجدوا بداً من احترام شيخ وأمير قبيلة ربيعة في زمنه، وعاد ناصر الدولة من حلب معززاً مكرماً إلى الموصل ودخلها في محرم سنة ٣٤٨هـ، أما ابنه هبة الله فالتحق في خدمة سيف الدولة وكلفه بإمارة ديار مضر وهي حران وما حولها في الشام.

ونعود الآن لبقية اخبار سيف الدولة الحمداني في حلب

احتلال الروم لحلب وهروب سيف الدولة وأسر أبي فراس سنة ٣٥٠هـ

بعد عدة عقود من الحرب بين بني حمدان والروم استطاع الروم تحقيق غزوة ناجحة على حلب سنة ٣٥٠هـ تمكنوا فيها من احتلال البلد، بعد أن خدعوا سيف الدولة الذي خرج من بلده لملاقاتهم فلم يجدهم إلّا في حلب ذاتها فانهزم شرقاً إلى ديار ربيعة حيث يحكم أخوه ناصر الدولة.

حقق الروم مكاسب جمة في تلك الغزوة واستعادوا معظم خسائرهم السابقة، وأبرز ما صنع الروم هو اسرهم للفارس والشاعر الكبير أبي فراس الحمداني حيث اقتادوه إلى القسطنطينية ولكنهم أكرموا أسره، وعاملوه معاملة النبلاء.

عودة سيف الدولة إلى حلب مرة أخرى سنة ٣٥١هـ

وبسبب أحداث داخلية اضطر الروم للإنسحاب فجأة من حلب سنة ٣٥١هـ، مما أتاح الفرصة لسيف الدولة أن يعود من ديار ربيعة إلى عاصمته حلب ويحكمها مرة اخرى، ومع سيف الدولة هبة الله ابن ناصر الدولة امير ربيعة وحاكم الموصل.

لكن أهل حران من قبائل قيس عيلان ثاروا بوجه الحمدانيين سنة ٣٥٢هـ، وكادوا أن يقتلوا الأمير هبة الله الحمداني، بسبب التعصب الربعي القيسي المستشري في جسد الدولة الحمدانية.

وحاول هبة الله بعد ذلك ان يغدر بعمه سيف الدولة ويغري اهل حران، موهما الناس ان سيف الدولة قد توفي وانه وريثه، وعلم سيف الدولة بمؤامرة ابن اخيه، فأرسل له قوات بقيادة عبد له يقال له نجا، فهرب هبة الله إلى ابيه في الموصل، لكن نجا استبد بحران واستقل عن سيف الدولة واغتصب اموال الناس وهرب إلى ارمينيا.

ومن ارمينيا اتصل نجا عبد بني حمدان الخائن بالبويهيين الشيعة، وعرض عليهم الحلف ضد بني الحمدان بفرعيهم الموصلي والحلبي.

لكن ناصر الدولة وسيف الدولة كانوا أسبق من نجا إلى معز الدولة البويهي، وأسقط بيد نجا، ووجه له سيف الدولة جيشاً احتل جزء من ارمينيا وقتل نجا الخائن سنة ٣٥٢هـ، واستقرت الأمور لسيف الدولة بحلب مجدداً ولم تشبها شائبة الا وجود الفارس الأمير أبو فراس الحمداني في الأسر عند الروم الذين اصبحوا الأقوى الآن بسبب فتنة نجا والخطر البويهي الذي يهدد الحمدانيين من جهة الجنوب علاوة على خطر قبائل بني عامر القيسية.

آل بويه والمواجهة مع الحمدانيين في الموصل مرة أخرى سنة ٣٥٣هـ

كان الاتفاق بين ناصر الدولة الحمداني ومعز الدين البويهي لا زال سارياً، وهو دفع الحمدانيين لمبلغ مليوني درهم عن كامل ربيعة وامارتي الموصل وحلب.

واراد ناصر الدولة ان يورث هذا الاتفاق ويجعله سارياً بعد موته لابنه (ابو تغلب) واسمه الغضنفر، فرفض معز الدين البويهي هذا، وقرر ان يتخذه حجة لغزو الموصل في جمادى الأولى سنة ٣٥٣هـ.

وكما كان يفعل ناصر الدولة الحمداني فقد ترك الموصل وأخلاها لمعز الدولة البويهي، واتجه وابنه أبو تغلب إلى قبيلة ربيعة في البادية، واخذوا يشنون الغارات على الموصل بطريق البدو وهي الكر والفر، وتقع آل بويه ناصر الدولة ومكان وجود فلم يظفروا به.

واخذت السيوف الربعية تغير على جنود آل بويه من كل صوب في ديار ربيعة، وراسل أبو تغلب معز البويهي وطلب منه الإقرار بما كان سابقاً

أو استمرار الغارات، فأجابه لذلك، لأنه علم أنه متى فارق الموصل عادوا وملكوها، ومتى أقام بها لا يزال متردداً وهم يغيرون على النواحي، فأجابه إلى ما التمسه، وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة[1]، وعاد أمير ربيعة إلى مركزه معززاً مكرماً بسيف قومه وقوة بأسهم.

بداية ضعف الأمراء الحمدانيين

رأينا كيف ان ناصر الدولة في الموصل اعتمد على قبائل ربيعة كورقة ضغط وحيدة تجاه آل بويه، بينما ضعف امر شقيقه بحلب سيف الدولة بعد فتنة نجا واسر الأمير أبي فراس الحمداني لدى الروم، وما يدل أن الدولة الحمدانية في حلب الموصل بدأت تضعف، هو زيادة الجزية الضخمة التي فرضها عليهم آل بويه، ثم انتفاضة انطاكيا ضد سيف الدولة سنة ٣٥٤هـ، وغزو الروم لطرطوس في نفس السنة واستيلائهم عليها، واضطرر سيف الدولة ان يقع اتفاقاً مع الروم لتبادل الأسرى دفع فيه سيف الدولة الحمداني مبلغاً كبيراً بسبب وجود ابن عمه الأمير أبو فراس الحمداني الذي عاد أميراً بمنبج بعد الأسر الطويل، واعتمد سيف الدولة على غلام له اسمه (قرعويه) ليقود الجيوش ضد الروم واهل انطاكية، علاوة على ذلك فبني اسد وقبائل بني عامر وهم القرامطة كانوا كثيراً مايتمردون على سيف الدولة، حتى أنهم قتلوا الشاعر المتنبي سنة ٣٥٥هـ بعد أن وجدوه في الطريق لسيف الدولة.

وازدادت العواصف ضد بني الحمدان وهجم الروم هجوماً كاسحاً اواخر سنة ٣٤٥هـ على ديار ربيعة إلى درجة ان سيف الدولة فكر بالهروب بقومه ربيعة غير أنه تراجع بعد أن علم أن الروم اكتفوا بالتخريب وعادوا إلى ديارهم.

---

(١) تاريخ ابن الاثير - حوادث سنة ٣٥٣هـ.

خلع ناصر الدولة الحمداني من امارة ربيعة بالموصل سنة ٣٥٦هـ

لما كبر ناصر الدولة الحمداني خالفه ابنه الغضنفر أبو تغلب، وفرض عليه الاقامة الجبرية في قلعته، وتولى العضنفر قبائل ربيعة، وجدد الجزية التي تدفع للبويهيين، وبقي ناصر الدولة محبوساً حتى وافته المنيه سنة ٣٥٨هـ، وخلفه رسميًّا الضنفر أبو تغلب.

وفاة سيف الدولة الحمداني سنة ٣٥٧هـ

لم يمض وقت طويل على اعتلاء الغضنفر امير ربيعة الجديد على الحكم بالموصل حتى توفي سيف الدولة امير حلب، وخلفه ابنه الصغير جيء به من بادية ربيعة ليحل محل سيف الدولة ويتولى قرعيوه الواصاية عليه بعد أن لقب بـ (أبي المعالي)، وبذلك مات ركني وائل الكبيرين وامراء ربيعة ليتولى ابنائهم: أبو تغلب في الموصل، وأبي المعالي بحلب.

ابو المعالي يقتل أبو فراس الحمداني سنة ٣٥٧هـ

لكي يتسنى لقرعويه التحكم بابي المعالي الصغير خوفه من خاله أبو فراس الحمداني، فجمع أبو المعالي جيشان من اعراب بني كلاب وقتل أبو فراس الحمداني سنة ٣٥٧هـ وانتهت بذلك حياة هذا الشاعر والأمير العربي الكبير.

الحمدانيين وقبائل ربيعة ما بعد وفاة سيف الدولة وناصر الدولة

بالنسبة للموصل فقد اختلف أولاد ناصر الدولة بعد موته سنة ٣٥٨هـ، وانقسمت قبيلة ربيعة بينهم، وأصبح لكل منهم شيعته ومؤيدوه من القبيلة، والمختلفون هم أبو البركات وابو تغلب (أمهم كردية)، وحمدان، وكانت ام حمدان عربية وهو يقيم ببادية سنجار في بلاد ربيعة.

واجتمعت أكثر ربيعة على حمدان في الرقة، فلجأ أبو تغلب وأبو البركات لأخوالهم وهم من الاكراد، وتقابل الاكراد وربيعة، لكن الاشقاء تصالحو عند وفاة ابيهم بوساطة نقيب الاشراف ببغداد أبو احمد الموسوي وبختيار عز الدولة البويهي، ثم عادوا للقتال الذي انتهى بتفوق أبو تغلب ولجوء حمدان إلى الشريف الموسوي في بغداد وترك أمر قبائل ربيعة لأبو تغلب، وأقام حمدان ببغداد على وعد من عز الدولة بختيار البويهي ان يعينه على اخوانه بمجرد ان تلوح الفرصة في ذلك.

اما حلب فقد أخرج قرعويه ماكان يحيك بصدره، اذ استغل انقسام قبائل ربيعة في الصراع بين ابناء ناصر الدولة، فأخرج أبو المعالي ابن سيف الدولة وحكم هو بحلب وتصالح مع الروم.

واستغل الروم النصارى الامر، فأغاروا على بلاد ربيعة دون مانع، ثم اغارو على الشام وحمص دون رادع من قرعويه الذي اكتفى باغتصاب حلب بل وأيد الروم وصانعهم على ما فعلوه.

ثم رحل الأمير الصغير أبو المعالي إلى بلاد ربيعة قومه واقام عند والدته وهي بنت سعيد بن حمدان ورحل بعدها إلى حماة يبحث عن انصار لاستعادة حلب، وورث أبو تغلب كل ديار سيف الدولة إلّا ما أخذه قرعويه العبد، بينما استقلت زوجة سيف الدولة بقلعتها ببلدة (ميّافارقين) وتصالحت مع أبو تغلب.

ابو المعالي يحاصر قرعويه

جمع أبو المعالي من حماة عدداً لا بأس به من ربيعة واتجه إلى حلب لاخراج قرعويه، وفي اثناء الحصار هاجم الروم حلب، فارتد أبو المعالي إلى بادية ربيعة وتركهم يواجهون قرعويه الذي تصالح على اتاوة سنوية يدفعها لهم ليبقى حاكماً من قبلهم على حلب وماتحتويه.

التدخل الفاطمي في الدولة الحمدانية بحلب

كان الفاطميين قد استولى على مصر وكامل القسم الافريقي من العالم الإسلامي، وبنو مدينة القاهرة، واسسو خلافة جديدة على النمط الشيعي.

علم المعز لدين الله الفامطي بأمر حلب وقرعويه، وعلم أن الحاكم الشرعي هو أبو المعالي، فأجبر قرعويه على أن يعيد أبو المعالي لمنصبه على ان يبايع المعز لدين الله ويخطب له بجوامع حلب سنة ٣٥٩هـ، وبهذا سيطر الفاطميين على امارة الدولة الحمدانية بحلب وأصبحت شيعية، وسنرى ان الويهيين سيسيطرون على امارة بني حمدان بالموصل كذلك.

غزو الروم لديار ربيعة سنة ٣٦٢هـ

غزا الروم ديار ربيعة سنة ٣٦١هـ، وجمع أبو تغلب قبائل ربيعة من الموصل إلى الجزيرة، وقاد ربيعة في الحرب مع الروم هبة الله بن ناصر الدولة شقيق أبو تغلب، وقيض الله لربيعة النصر على الروم واسر عدد كبير منهم.

السيطرة البويهية على ديار ربيعة في الموصل

قدمنا أن بختيار عز الدولة البويهي استقبل حمدان أخو أبي تغلب بعد أن صالح بينهم، وكان قد وعد حمدان أن يوليه على ربيعة بدلاً من اخوه أبو تغلب وابو البركات.

فلما جاءت سنة ٣٦٣هـ طلب حمدان وإبراهيم من بختيار ان يوفي وعده لهم، وأن يناصرهم لاستعادة ديار ربيعة من اخوهم أبا تغلب، واعطوه اموالاً وهدايا، واغروه باعتناقهم للمذهب الشيعي وانهم يقيمون

الموصل على النظام البغدادي القائم حينئذٍ[١].

لكن إبراهيم لم يرضى بهذا، فهرب من بغداد إلى الموصل واعلم أبو تغلب بالمؤامرة، مما كان له الدافع ان يقوم بختيار البويهي بتنفيذ ماذكره حمدان بعد أن كان متردداً.

ولم يجد أبو تغلب بدا من يفعل كما كان أبو سابقاً، وهو اللجوء إلى البادية وتجميع عرب ربيعة، والاغارة والتخريب، وبما ان الغرض هذه المرة هو حمل ربيعة على المذهب الشيعي فقد عمد أبو تغلب ان يغير على بغداد، وان يثير بها اهل السنة، وقامت فتنة كبيرة في بغداد بين السنة والشيعة بسبب هذا، ومن ثم اشتبكت قبائل ربيعة مع قوات بختيار البويهي، لكن اغلبية بادية ربيعة مع أبو تغلب ولم يتشيع أحد منهم إلى حمدان المرافق لبختيار، ولذلك قرر بختيار مصالحة أبو تغلب على يضمن عودة حمدان ويقطعه امارة في بلاد ربيعة وأن يرد له أمواله من تركة أبيه.

وهكذا كان الصلح، ويجدر بالذكر ان هناك عاملاً مهمًّا جعل بختيار يصلح بين الأميرين حمدان وشقيقه أبو تغلب، وهو ان أبو تغلب كان متزوجاً من ابنة بختيار، فأراد الجمع بين نسيبه واشقائه، ومن الممكن ان نضيف عاملاً مهما أيضاً جعل أبو تغلب وبختيار البويهي يتصالحون مع حمدان الا وهو ظهور عضد الدولة البويهي فنا بن خسروا الذي وضع نصب عينيه ازاحة بختيار والحكم بدلاً منه.

---

(١) وهي احياء المظاهر الشيعية مثل الحزن ولبس السواد يوم العاشر من محرم حزنا على الحسين بن علي، وإظهار الفراح في ذي الحجة من كل عام وهي مناسبة غدير خم، ويعتبر آل بويه أو من استحدث هذه العادات في المذهب الشيعي.

عضد الدولة البويهي يحكم العراق وايران ويصلح بين ربيعة وقبائل مضر

في سنة ٣٦٦هـ ظهر من آل بويه شخصية فريدة من نوعها هو عضد الدولة واسمه فنا بن خسرو من اهل ايران، قرر هذا الشخص ان يوحد بين المسلمين جميعاً وأن يزيل الفتن ليضمن دولةً قوية بسيادته، فجمع قبيلته الديلم، وبدا بقتال بختيار بن معز الدولة المتحكم البويهي ببغداد، ولجا بختيار إلى قبيلة ربيعة واميرها أبو تغلب الذي هو زوج ابنته أيضاً، ووعده أبو تغلب بأن يقف معه، ولم يجد بختيار الا قبائل الاكراد لتقف معه ضد عضد الدولة ومع ذلك هزمه عضد الدولة واستملك العراق كاملاً بما فيه ديار ربيعة وقبائلها ورئيسها أبو تغلب وعائلة آل حمدان.

ومالت قبائل مضر بالعراق والشام (وهم اسد وقبائل بني عامر) لعضد الدولة، وهم يتوقعون منه معاقبة قبيلة ربيعة لوقوفها مع بختيار، إلّا أن عضد الدولة عقد اجتماعا تاريخيًّا بين امير ربيعة أبو تغلب وشيخ مضر وتصالحوا وانهو ازمة استمرت ١٢٠ عاماً على قول المؤرخ ابن الاثير ونحن نراها أكثر من ذلك، كما ان هذا الصلح كان مؤقتاً ومن ضمن عدة اصلاحات قام بها عضد الدولة لضبط الأمور في العراق وتوحيد ما يمكنه توحيده من اقاليم العالم الإسلامي في هذه الفترة التي تعبتبر الأسوأ في تاريخ العرب

عضد الدولة يحارب ربيعة: بداية السيطرة البويهية على ديار ربيعة في الموصل سنة ٣٦٧هـ

عندما حكم عضد الدولة هرب بختيار البويهي، وقام عضد الدولة يتحسين علاقته مع شيخ ربيعة أبو تغلب الحمداني، اما بختيار فقد جاء إليه حمدان أغراه بأن يذهب للموصل وان ربيعة ستحميه هناك من عضد الدولة، ذلك ان بختيار كان يريد التوجه إلى الشام حيث يحكم ابي المعالي ابن سيف الدولة الحمداني.

لكن بختيار غدر بحمدان وسلمه لأبي تغلب مقابل قيام الأخير بالتحالف معه ضد عضد الدولة.

ومن ثم تحالف أبو تغلب بقبائل ربيعة مع بختيار واتفق الاثنان ضد عضد الدولة وسارا إليه بعشرين الف مقاتل.

لكن عضد الدولة لما علم وافى قبائل ربيعة في تكريت، فانهزمت قبائل ربيعة اما الديلم، واسر بختيار البويهي وقتل في بغداد، وانحاز الربعيون إلى ديارهم وعلى رأسهم شيخهم أبو تغلب الذي ترك الموصل، وفي ذي القعدة من عام ٣٦٧هـ احتلت جحافل الديلم الموصل على راسهم عضد الدولة، وعاثت بها فساداً، وكان أبو تغلب يظن انه بالامكان شن غارات من باديته وستكفل عودة عضد الدولة عن ديار ربيعة، وهي السنة التي كان يتبعها ابوه ناصر الدولة مع البويهيين، إلّا أنه لم تنفع هنا مع عضد الدولة الذي احتل ديار ربيعة شبراً شبراً، وارسل السرايا تلو السرايا للقبض على أبو تغلب الذي لم يبقى بيده من ديار ربيعة الا ديار بكر وآمد على حدود تركيا اليوم والروم سابقاً.

إلّا أنه ومع دخول عام ٣٦٨هـ تمكن عضد الدولة من احتلال بقية ديار ربيعة الشمالية، فهرب أبو تغلب ومعه اخته جميلة (وهي شقيقته) هربا إلى الرحبة رحبة مالك بن طوق، وهي بين العراق والشام، وحاول أبو تغلب استعطاف عضد الدولة للصلح لكنه لم يجبه فهرب أبو تغلب واستولى عضد الدولة على الرحبة والرقة.

مقتل أبو تغلب فضل الله بن ناصر الدولة امير قبائل ربيعة

اما أبو تغلب فقد هرب إلى الشام وحاول الاتصال بالعزيز بالله حاكم مصر الفاطمي، وحاول العزيز ان يستثمر وجوده في دمشق لفتحها وضمها للحكم الفاطمي الذي كان في مراحل تأسيسه الأولى، لكن أبو تغلب عندما اشترك مع الفاطميين ما لبث ان قتل سنة ٣٦٩هـ تاركاً شقيقته

جميلة لوحدها، وقد قتل في فتنة بين بني عقيل العامريين وامراء العزيز بالله في فلسطين، اما اخته فقد هرب بها بدو بني عقيل إلى الأمير سعد الدولة (ابو المعالي) امير الدولة الحمدانية بحلب، فأصوله إلى الموصل، وتم اسرها من قبل عضد الدولة الذي حاول الزواج بها ورفضت ذلك فحبسها بقصره.

ثورة ربيعة ضد عضد الدولة سنة ٣٦٩هـ

يبدو أن مقتل زعيم ربيعة أبو تغلب فضل الله بن ناصر الدولة، بالإضافة إلى سجن اخته جميلة قد أثار الحمية الوائلية عند الربعيين، وينقل لنا ابن الاثير ان بني شيبان اجتمعوا على عضد الدولة بين الزابيين وتحالفوا مع الاكراد، وتحصنوا بجبال شهرزور وهي بين العراق وايران اليوم، وقصدهم عضد الدولة وهربوا من هناك إلى البادية إلّا أن قبائل عضد الدولة من الديلم لحقت بهم وقتلت الآلاف وجيء بـ ٨٠٠ منهم اسرى في بغداد.

وبعد مقتل أبو تغلب واسر اخته وفشل ثورة ربيعة في الزابيين تكون ديارهم قد دخلت فعليًّا تحت سيطرة عضد الدولة البويهي الذي كان اقوى امير في السلالة البويهية منذ سيطرتها على مقاليد الأمور في بغداد.

نهاية امارة بني الحمدان المؤقتة بالموصل وبقاء فرع حلب كزعيم لربيعة

اصبحت الموصل وقبيلة ربيعة تابعة لابي المعالي القائم بحلب بعد موت أبو تغلب الشيخ الرسمي لربيعة، ولكن تحت امرة عضد الدولة، على ان حلب نفسها لم تكن خاضعة لعضد الدولة لكن ديار ربيعة التي اغلبها بالعراق بما فيها الموصل تدار من قبل حلب واميرها أبي المعالي سعد الدولة باعتباره وريث امارة الحمدانيين بالموصل التي انتهت بوفاة أبي تغلب.

هذا التنازل من قبل عضد الدولة عن ربيعة وديارها كان الهدف منه اقناع بني حمدان بتزويجه لابنتهم جميلة اخت أبي تغلب، إضافة إلى محاولة تقليل الضغوط التي تسببها بادية ربيعة في اغاراتها على المدن والحواضر التابعة لعضد الدولة.

وقد استولى بني مروان وهم من الاكراد على ديار ربيعة الشمالية، بينما بقي القسم الجنوبي الممتد من الموصل بيد آل بويه سلالة عضد الدولة، وربيعة البادية تابعة لأبي المعالي، اما الحواضر مثل الموصل فهي بيد آل بويه.

وكان آل بويه قد احدثو تغييراً ديمغرافيًّا سيكون له شأن وتأثير على قبيلة ربيعة، وهي احضار عدد من بادية بني عقيل ونمير واقطاعهم اجزاء من بادية ربيعة، وهذه الخطوة يهدف البويهيين فيها لمواجهة الاكراد وقبائلهم وخاصة ان الاكراد اتحدوا على زعيم واحد هو باذان.

عودة امارة بني الحمدان في الموصل سنة ٣٧٩هـ:

استطاع كل من: الأمير إبراهيم بن الحسن ناصر الدولة واخوه الحسين بن ناصر الدولة ان يستغلون فتنة بين قبيلة الديلم نفسها، إضافة إلى أن الاكراد من بني مروان اخذوا يشكلون خطراً على آل بويه، فتوجه الاخوين إلى الموصل سنة ٣٧٩هـ وان يجمعون حولهم بادية ربيعة، ويحاربون الأتراك والديلم، فينتصرون ويعودون إلى مركز مشيختهم بالموصل.

ولما علم باذن أمير الاكراد بأن ربيعة استعادت ديارها جمع الاكراد من كل حدب وصوب وبدأ يحضر لغزو ربيعة واحتلال ديارها.

ربيعة تتحالف مع بني عامر ضد الاكراد:

كانت قبائل ربيعة ضعيفة امام التجمع الكردي الغاضب من

العرب، فراسل الأمير إبراهيم واخوه ابن المسيب أمير قبائل بني عامر وهو من بني عقيل واسمه ابن المسيب ،وهم الذين ذكرنا سابقاً ان البويهيين اقطعوهم جزء من بادية ربيعة.

اشترطت بني عقيل ان تتقاسم الديار (وهي التي عرفت باسمها) مع قبائل ربيعة، فكان ان تنازل إبراهيم الحمداني عن اهم ديار ربيعة وهي جزيرة ابن عمر وهو من أجداد بني حمدان ومن رهطهم، ونصيبين، وبلد وهي التي كانت من مواطن عنزة ربيعة.

واشتركت بني عامر وربيعة ضد الاكراد، وانهزم الأخيرين، وقتل زعيمهم باذان بن مروان، ومضى الاتفاق بين ربيعة وعقيل فتقاسما الديار بينهم.

هجوم الاكراد المعاكس

استطاع الاكراد تجميع صفوفهم على ابن اخت باذان وهو علي بن مروان، وعادو إلى قتال ربيعة وعقيل، وانخذلت عقيل ونمير عن نصر ربيعة، وانتصر الاكراد عليهم، بل واسروا الحسين بن ناصر الدولة ولكنهم اطلقوه فهرب إلى حلب واقام عند أبي المعالي هناك.

وأصبحت ديار ربيعة تنقسم لثلاث قبائل هم ربيعة التي ضعف امرها مع ضعف زعمائها، وقبائل بني عامر بقيادة ابن مسيب، وقبائل الاكراد التي سيطر على القسم الشمالي لديار ربيعة وهو الجزء المتصل ببلد الروم.

تمرد بني عامر على ربيعة وقيام دولة بني عقيل العامرية

قام آل مسيب زعماء بني عامر بالثورة ضد ربيعة، ولم يكفهم اخذ جزء من بلادها، وكان علي بن المسيب قد قتل ابوه مع ربيعة في الحرب ضد الاكراد، فكان هذا عاملاً مهما جعل بني نمير وعقيل يثورون ضد

ربيعة ويأسرون إبراهيم الأمير الحمداني ويقتلونه ويستولون على الموصل قاعدة ربيعة وانتهى بذلك حكم ربيعة على الموصل.

الأحوال في حلب في نفس الفترة: وفاة أبو المعالي

كان احوال امارة بني الحمدان في حلب لاتقل صعوبة عن احوال الموصل، بل هي اشد منها، وخاصة ان الفاطميين القائمين بمصر كانوا يحاولون احتلال حلب والشام وضمهما لحضيرة الدولة الفاطيمة، وكانوا يحرضون ولاة دمشق وحمص والرقة والذين يوالون أبو المعالي الحمداني على التمرد، ومنها قيام والي دمشق بجكور التركي بمحاولة فاشلة لقتل أبي المعالي الحمداني سنة ٣٨١هـ، وقد انتهت هذه المحاولة إلى معركة شديدة جرح بها أبو المعالي وتوفي سنة ٣٨١هـ وتقلد بعده حلب ابنه سعيد ولقبه (ابو الفضائل).

كانت الامارة الحمدانية في حلب تفتقر لوجود عصبة ربيعة القبيلة، وهي التي ساعدت في بقاء الفرع الذي حكم بالموصل رغم انه اقل في الامكانيات من حلب البلد المهم الذي هو مفتاح الشام والعراق، ولذلك وبسبب عدم وجود عصبة قبلية اذ ان ربيعة اغلبها بادية بين الجزيرة والأنبار وحول الموصل فلم يجد الحاكم الجديد للحمدانيين بحالب الا الروم كملجأ أخير لمحاربة خصومه وهم: الدولة الفاطمية بمصر، وقبائل عقيل ونمير التي قوي امرها بعد أن اصبح لها دولة في الموصل.

التدخل الرومي في الدولة الحمدانية بحلب سنة ٣٨٢هـ:

لما تولى أبو الفضائل سعيد بن أبي المعالي الحمداني كان له خادم يقال له لؤلؤ، وهو الوصي على العرش، وقد قرر الفاطميون احتلال حلب والشام، وهم الذين كانت دولتهم في بدايتها وأوج قوتها بمصر، فسيروا جيشاً إلى الشام، واستنجد أبو الفضائل بتحريض من لؤلؤ بالروم،

ويبدو ان لؤلؤ لم يكن مسلماً، وانه على وبشكل سري اتصال مع الروم والا كيف نفسر التدخل الرومي السريع رغم ان دولة بيزنطة كانت تمر بظروف قاهرة! ولكنها فرصة للتحالف مع امير عربي ضد العرب انفسهم وضربهم ببعض.

سارت جيش الفاطميين بقيادة شخص تركي اسمه منجوتكين، بينما جاءت النجدة الرومية من أنطاكية لابي الفضائل، فهجم عليهم جنود الفاطميين وهزموهم قبل لقائهم مع أبي الفضائل قرب انطاكيا، ثم سارت الجيوش الفاطمية إلى حلب وحاصرت أبو الفضائل وخادمه لؤلؤ.

وما يدل ان الروم اهمتوا بمناصرة أبي الفضائل ان ملك الروم خرج بنفسه مناصرا لهم، وواقع جيش الفاطميين الذي ما لبث أن انهزم بعد مقاومة شديدة وفضل الانسحاب دون خسائر، وتقاسم أبو الفضائل بلاد الشام مع الروم وفشلت المحاولات الفاطمية الأولية لاحتلالها.

استيلاء لؤلؤ الخادم على ملك الدولة الحمدانية بحلب سنة ٣٩٢هـ (نهاية الدولة الحمدانية):

وبعد فشل الفاطميين في الاستيلاء على حلب بعد تدخل الروم لمناصرة أبي الفضائل قرر الفاطميون الاتصال بلؤلؤ غلام أبو الفضائل واقناعه بالتعاون ضد مخدومه أبو الفضائل وحلفائه الروم، وبالفعل تجاوب لؤلؤ مع الاتصالات الفاطمية واستغل وفاة أبي الفضائل سنة ٣٩٢هـ ليستولي على الحكم في حلب ويامر مساجدها أن تخطب بالخلافة للخليفة الفاطمي بمصر، وكانت قبل ذلك الخطبة للخليفة العباسي.

وبعد استيلاء لؤلؤ على حلب وانضمامه للدولة الفاطمية ارسل عائلة أبو الفضائل الحمداني إلى مصر.

وبهذا يسدل ستار التاريخ على اسرة بني الحمدان الربعية وتاريخها

الذي استمر أكثر من قرن، من مشيخة قبائل ربيعة إلى الحكم المطلق لمناطق تعد الثغور الشمالية للعالم الإسلامي في ذلك الوقت، وقد حرصنا في نبذتنا ان نختصر قدر الامكان عند الحديث عن بني الحمدان، فضلا عن تناول تاريخهم كأسرة عربية كانوا بالأصل من افرازات الصراع الربعي الداخلي على مشيخة القبيلة والذي برز في أواخر عصر قوة الخلافة العباسية.

ملاحظات على تاريخ الدولة الحمدانية الربعية

سنضمن هنا الحديث باختصار عن ابرز الملاحظات على تاريخ الدولة الحمدانية والتي تخدم بحثنا هذا عن قبائل ربيعة، وأبرز ملاحظاتنا كما يلي:

أولاً- الدولة الحمدانية تنسب إلى اسرة بني حمدان بن حمدون العدوي التغلبي الوائلي، ومبدأ هذه الأسرة هي مشيخة قبيلة ربيعة في ديارها المعروفة باسم ديار ربيعة، والتي قاعدتها الموصل شمال العراق اليوم، ومن بلادها: الجزيرة الفراتية، الانبار، تكريت، الرقة، سنجار، ديار بكر.

ثانياً - الدولة الحمدانية كانت لها المشيخة على كل ربيعة وبكلف فروعهم المعروفة في تلك الحقبة، وهم بكر وفيهم عنزة وشيبان، وتغلب وفيهم النمر وبقية يطون ربيعة الداخلة فيهم، ولم يكن لربيعة تواجداً في جزيرة العرب تلك الحقبة ولم يسجل التاريخ حادثة لهم خارج ديار ربيعة ومايتاخمها من بلاد في الشام أو العراق، ولعل هذا الأمر يغفله كثير ممن يعتقد ان عنزة الوائلية القبيلة المعاصرة كانت في جزيرة العرب وهاجرت عنها في العصور القريبة، وهذا الأمر ليس صحيحاً ولا توجد لعنزة هجرة منفردة بل عنزة ضلت ضمن شبكتها الربعية داخلة في بكر بن وائل وسنتناول بعض مفاهيم الهجرة الخاطئة لاحقاً.

ثالثاً- لاحظنا ان الدولة الحمدانية كانت فرعين أو سلالتين في كل من: الموصل وحلب، وفي الموصل كان مصدر القوة هو العصبة القبلية لقبيلة ربيعة، وهي التي لها الفضل في بقاء فرع الموصل حاكماً رغم محاولة القوى السياسية المتواجدة في بغداد من احتلال الموصل، وقد شهدنا كيف كان ناصر الدولة الحمداني عند تسيير حملة للموصل يهرب لباديته ويغريها بالاغارة على المدن حتى يفرض على بغداد شروطه السياسية، ولم يفت من قوة قبائل ربيعة إلا وجود قبائل الديلم الفارسية التي اعتمد عليها عضد الدولة البويهي بعد أن عرف سر قوة امارة بني حمدان بالموصل.

اما فرع حلب فمصدر مشروعيته وقوته هو رفع سيف الدولة الحمداني راية الجهاد ضد الروم، فحلب كانت تخلوا من قبائل ربيعة ما عدا تلك القبائل التي كانت تفد من الموصل والتي شاركت في الحرب ضد بني عامر.

هل الدولة الحمدانية كانت شيعية؟!

هكذا قيل عن الدولة الحمدانية ونحن لا نعتقد بأن بني الحمدان كانوا من الشيعة، وليس لنا أي دليل سوى اشعار أبي فراس الحمداني للتدليل على مذهب الدولة الحمدانية، والارجح أن الحمدانيين كانوا يسايرون القوى التي حولهم والتي تتعصب للمذهب الشيعي وهم البويهيين ومن بعدهم الفاطميين، ولكن المظاهر الحضارية التي لدينا في حلب عن دولة بني الحمدان تدل انهم من عامة المسلمين وليس لديهم مدرسة دينية ارادوا فرضها من خلال حكمهم.

والدولة الشيعية مثل دولة آل بويه يشتهر عنها هذا الأمر وقد نقل المؤرخون احداثاً كثيرة عن آل بويه وما أستحدثوه من انظمة في بغداد تدل بوضوح على التشيع الامامي المعروف اليوم، ومن ابرزها اظهار

الحزن يوم عاشوراء من كل عام ولبس السواد واعتبار هذا اليوم مصيبة لكل من يعتنق المذهب، كذلك إظهار السرور والفرح بيوم الغدير وهو الذي يقولون أن الرسول ﷺ قلد الإمام علي بن أبي طالب الخلافة فيه.

كل هذه المظاهر لم تنقل لنا عن حلب والموصل اثناء فترة حكم بني حمدان مما يثبت ان بعض مظاهر التشيع البسيطة جدًّا والتي ظهرت في اشعار أبو فراس الحمداني ليس إلا مسايرة سياسية هذا إن صحت نسبة الشعر الشيعي لأبي فراس الحمداني.

استيلاء القبائل على ديار ربيعة:

لا تزال بعض الدراسات عن قبيلة ربيعة تعتقد يتواجد ربعي في مناطق ربيعة التي امتد فيها نفوذ الدولة الحمدانية، وهي تغفل استنتاج إفرازات انهيار الدولة الحمدانية على قبيلة ربيعة، فقبائل الاكراد استولت على ديار ربيعة الشمالية وهي ديار بكر وآمد واقامت لها دولة عرفت بدولة بني مروان، ثم جاءة قبائل الديلم الفارسية والتي تنحدر منها السلالة البويهية، ثم المنافس التقليدي لقبائل ربيعة وهم بني عامر الذي ادت موجاتهم القادمة من نجد إلى الشام والعراق ادت إلى تغيرات ديمغرافية وسياسية، وقد مر معنا استيلائهم على الموصل واقامتهم لدولة آل مسيب فيها وطرد الربعيين، ثم استيلايهم على حلب واقامتهم امارة بني المرداس.

ولهذا اصبحت قبيلة ربيعة محاطة بقوى كبيرة جدا، وليس لها قيادة موحدة على مستوى عالي من الكفاءة بعد غياب نجوم بني الحمدان.

حتى قبيلة طيئ التي كانت كبرى قبائل المنطقة ظهر فيها أسرة كبيرة هم آل ربيعة وأصبحوا يسيطرون على البادية في العراق والشام، وهكذا أصبح لكل قبيلة في شمال بلاد العرب قيادة قوية ظاهرة الا ربيعة انقطع ذكرها ولذلك لم تشر إليها اغلب المصادر التي أرخت لما بعد الدولة الحمدانية.

الفصل الثامن

قبيلة ربيعة بعد القرن الخامس الهجري

في هذه المرحلة التاريخية اختفى اسم ربيعة من المصادر التاريخية سوى بعض الاشارات عن بني شيبان في كتب ابن الأثير المؤرخ، وقد احتل السلاجقة بغداد سنة ٤٦٧هـ، واعادو المكانة للدعوة العباسية رمزاً لأهل السنة، ثم ساعدوا الامراء العيوينين في انهاء دولة القرامطة واقامة الحكم العيوني في نجد، وقد شهدت هذه الفترة ظهوراً بارزاً لقبائل بني عامر وربيعة الطائية، حيث اشارت مضادر التاريخ إلى هذه القبائل ووقائعها وترجمت لشخصيات منها، اما ربيعة الفرس فقط انقطع ذكرها تماماً وكل بطونها وكأنها اختفت.

وباتأكيد لم تختفي ربيعة عن الوجود لكن ذلك يدل بوضوح عدم لعبها لدور كبير على المسرح السياسي، ومن المؤكد أن ربيعة تقهقرت عن ديارها في الشمال إلى بادية الانبار ومنطقة وديان عنزة المعروفة اليوم في شمال المملكة لصالح قبائل ربيعة الطائية وما يتبعها من بطون طيئ، وبني عقيل وخفاجة والمنتفق البطون العامرية التي انتشرت غرب العراق وجنوباً إلى البحرين التي يحكمها امراء العيونيين وهم من سنلقي الضوء عليهم في هذه المرحلة من تاريخ ربيعة نظراً لما يقال انهم من ربيعة.

انهيار حكم القرامطة وقيام الدولة العيوينة

من اغرب الأمور أن تشح مصادر التاريخ عن دولة هامة مثل الدولة العيوينة التي قامت بالبحرين وحكمت اغلب اجزاء جزيرة العرب منتصف القرن الخامس الهجري.

ضعف القرامطة بسبب تخلي قبائلهم التي دعمت نشوء دولتهم أول أمرها، وهم بنو عامر وهجرة اغلب بطونهم إلى الشام والعراق، فحتى بدايات سنة ٤٤٠هـ انحسر نفوذ القرامطة إلى البحرين فقط ولم يعودوا قادرين على الغزوات المرعبة التي قام بها اسلافهم ايام القرن الرابع الهجري، بينما كانت اليمامة تحكم من قبل اسرة الاخيضريين الشيعة ومعهم جزء من قبائل بني عامر وعائذ (عائذ سعد العشيرة) اهل اليمامة في ذلك الوقت[١].

ومع مطلع عام ٤٦٨هـ قام رجل من بادية البحرين واسمه عبدالله بن علي العيوني بالاتصال بالسلاجقة في بغداد، طالباً منهم التعاون والترتيب للقضاء النهائي على القرامطة في البحرين، واعادتها لحضيرة الخلافة العباسية رمز اهل السنة.

ونجح هذا الأمير العربي واسس ما عرف باسم الدولة العيونية في البحرين والتي حكمت اليمامة واجزاء من العراق الجنوبي.

وقد حرصنا على اعطاء هذه النبذة عن الدولة العيونية نظراً لشيوع نسبة الأسرة العيونية إلى قبيل ربيعة وهو ما سنتناوله بالمبحث التالي.

---

(١) في عام ٤٤٢هـ قام الرحالة الفاطمي ناصر خسرو برحلته ومر على اليمامة والبحرين، ووصف خسرو امراء اليمامة بأنهم علويون يقولون في الآذان (حي على خير العمل) وهذا يدل على انهم شيعة، وكان بني الاخيضر فيما يبدو على اتفاق مع القرامطة الذين اعطوهم الحكم الذاتي على اليمامة ونواحيها، ولكن انحسار القرامطة إلى البحرين ادى إلى عدوة الدولة الاخيضرية حاكمة بشكل مطلق على اليمامة.

هل الأسرة العيوينة من ربيعة الفرس؟

الزمن الذي ولدت فيه الدولة العيونية هو زمن مظلم وشحيح بالمصادر، وخاصة عن العرب، لأن أغلب السلالات المشهورة الحاكمة التي ذكرها التاريخ لم تكن عربية وخاصة السلاجقة الذي كانوا أهم سلالة في ذلك الوقت نظراً لسيطرتهم على بغداد عاصمة الخلافة، إضافة إلى أن الدولة العيونية لم تكن دولة مستقلة تمام الاستقلال، بل كانت تابعة لبغداد حيث السلاجقة وخلفاء بني العباس الرمزيين، لذلك فإن من تصدى للكتابة والتوثيق عن احداث هذه الفترة ركز حديثه عن العواصم والحكام الاساسيين ولم يتحدث بتفصيل عن حكام الولايات والاطراف.

بيد أن ظهور الشاعر علي ابن المقرب العيوني كأحد افراد اسرة آل عيون قد القى الضوء على جزء هام من تاريخ الأسرة العيوينة حيث ذكر الكثير من مآثرها في شعره الذي شابه اشعار المتقدمين مثل جرير والفرزدق والمتنبي، رغم ان الشاعر ظهر في اواخر القرن السادس الهجري وهو عصر الضعف الأدبي، ولذلك شهدت اشعار هذا الشاعر اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين المعاصرين.

نسب الأسرة العيوينة وعلاقتها بربيعة الفرس:

يجمع الباحثون المعاصرون أن الأسرة العيوينة من قبيلة ربيعة بن نزار، ويختلفون فقط في البطن الربعي الذي ينتمي إليه العيوينين غير أن اغلبهم يشير إلى عبد القيس، ونظراً لأن هذا الكتاب يبحث عن ربيعة وتنقلاتهم عبر مراحل التاريخ فيهمنا هنا بحث انتماء البيت العيوينى إلى ربيعة ومحاولة معرفة المنطقة التي تتجول في ربيعة في ذلك العهد.

وما يظهر لي أن أكثر من بحث بنسب الأسرة العيوينة اعتمد على اشعار الشاعر علي ابن المقرب، وعلى علاقة قبيلة ربيعة بمنطقة

البحرين، وبرأيي ان هذا ليس كافياً لاستنتاج نسب الأسرة العيوينة وكان الأفضل إقامة دراسة جادة لتحقيق نسب الأسرة العيوينة وترجيحها إلى ما هو أقرب للصواب والواقع الجغرافي والتاريخي والزمني للدولة العيوينة.

فهناك ما هو مؤكد ومشهور عن نسب العيونيين، وهناك ما هو محل اختلاف، وسنلخص ما هو مؤكد عن نسب العيونيين كما يلي:

١- نسبتهم الى (العيون) وهي بلد قائمة بنفس مسماها هذا إلى يومنا هذا، ونحن نرجح ان هذه البلدة نسبت للعائلة وسميت باسمهم وليس العكس.

٢- وهناك مؤكد آخر عن نسب الأسرة العيونية وهم نسبة إلى بطن يقال له (عبدالله) والنسبة له (عبدلي) وقد ظن البعض من الباحثين ان العبدلي نسبة لعبد القيس وهو امر خاطء فعبدلي عند العرب تنسب دائماً لإسم عبدالله[1].

٣- وأمر آخر مؤكد عن نسب الأسرة العيوينية هو انهم ينتمون إلى بطن يقال له (آل إبراهيم) حيث ورد اسم هذا البطن في الاشعار مما يدل انه جد قريب للاسرة العيوينة، وبعد ذلك نستطيع القول انهم ينتمون إلى ربيعة وهنا يجب أن يقع الخلاف في نظري، فليس الخلاف اذن في أي بطون ربعية نزارية توجد الأسرة العيوينة، بل الخلاف يجب أن يقع في انتسابهم إلى ربيعة الفرس من الاصل حيث أن هذه النسبة غير مؤكدة وسندلل على العوامل التي تجعلنا نشكك ان يكون العيوينين من ربيعة الفرس.

٤- انتماء العيوينيين إلى قبيلة بني عامر امر مؤكد ذكره ابن المقرب

(١) من الذي استنتجوا ان العيونيين منسوبون إلى عبد القيس بدعوى انهم عبادلة الباحث عمران العمران في كتابه (ابن المقرب حياته وشعره).

في شعره، ولكن الباحثين المصرين على نسبة الدولة العيونيو إلى ربيعة فسروا عامر على انها عامر عبد القيس للتفق مع قول الشاعر نفسه انه من ربيعة بن نزار.

وبموجب هذه النقاط بكون عمود نسب العيونيين هو كما يلي:

محمد بن علي العيوني من عبدالله من آل إبراهيم من ربيعة من بني عامر، والخلاف هو ما بعد (بني عامر)، هل هو عامر عبد القيس الربعية؟! أم هو من بني عامر قيس عيلان وهو مانرجحه في هذه الدراسة كما يلي.

ربيعة العامرية هي نسب العيونيين وليست ربيعة بن نزار:

وهي ربيعة التي نرجح ان العيونيين ينتمون إليها، وسنسوق عوامل عامة تبرر لنا هذا القول كما يلي:

أولاً- في العهد العيوني ليس هناك أي ذكر لربيعة نزار أو أي من بطونها عبد القيس وبكر وتغلب وعنزة والنمر، واقصد تواجداً ربعيًّا ديمغرافيًّا بحيث ينعكس على احداث المنطقة بوضوح، حيث كان البحرين يغص يقبائل بني عامر وجزء من قبائل اليمن وهم عائذ سعد العشيرة، ونفس هذه التشكيلة القبلية تتواجد في اليمامة تلك الفترة، واهم البطون العامرية الموجودة هم: بني سليم وخفاجة وكلاب وعقيل ومنها ربيعة التي نرجح انتماء الأسرة العيوينية إليها. اما ربيعة بن نزار فكانت تتواجد في تلك الفترة في شمال جزيرة العرب وتخضع لحكم قبائل ربيعة الطائية المتحكمين ببادية العرب.

ثانياً - اشارة القاضي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤هـ في كتابه (نشوار المحاضرة) ان بني عقيل منهم بطن يعرف ببني معاوية من آل إبراهيم كان معارضا لحكم القرامطة، حيث نقل القاضي التنوخي قصة عن أحد آل براهيم هؤلاء، وآل إبراهيم هم البطن الذي تنحدر منه الأسرة العيونية

التي تمكنت من القضاء على القرامطة، وبنو معاوية هؤلاء من بني عامر ربيعة من بني صعصعة وليسو من ربيعة، ولعل القرب الجغرافي والنسبي بين بني عقيل وبني عامر ربيعة جعل التنوخي يقول انه من بني عقيل بن عامر، والقصة التي اوردها القاضي التنوخي وقعت في اواسط القرن الرابع الهجري وملخصها ينم عن بداية تمرد من بني عامر على سلطة القرامطة في البحرين، ومن المؤكد أن هذا التمرد كان بداية السلسلة التي توجت بتغلب العيونيين على القرامطة.

ثالثاً- عبد القيس وبطون ربيعة بن نزار الأخرى انقطع ذكرها عن المنطقة قبل الدولة العيونية واعني بها البحرين منذ ان حكم القرامطة اواخر القرن الثالث الهجري، ومن المعروف أن بني عقيل وعموم قبائل عامر هم القوة الضاربة للقرامطة وهم من انهى حكمهم قال ابن خلدون الحضرمي في تاريخه:

«كان بأعمال البحرين خلق من العرب، وكان القرامطة يستنجدونهم على أعدائهم، ويستعينون بهم في حروبهم، وربما يحاربونهم ويقاطعونهم في بعض الأوقات، وكان أعظم قبائلهم هنالك بنو ثعلب وبنو عقيل وبنو سليم، وأظهرهم في الكثرة والعزة بنو ثعلب» أ.هـ

ونظرة فاحصة لاسماء هذه البطون تؤكد لنا منطقية السياق التاريخي لعرب البحرين وتحول ربيعة عن المنطقة وعدم تواجدها، فالقرامطة ازاحوا ربيعة عن بلاد البحرين وهي عدو بني عامر اللدود وكانت بين الطرفين حروب مستمرة ظهرت واضحة لنا في تاريخ ربيعة منذ العهد الاموي حتى عهد الدولة العيونية

كما أن كل أسماء البطون الربعية اختفت في حقبة العيونيين، ولم يرد عنها أي خبر، وبقي فقط اسم عنزة أو (بني وائل) وقد ورد عنهم خبر هام في شرح ديوان ابن المقرب، وهو ماسنناقشه عند الحديث عن بروز

اسم عنزة وبقاء العزوة الوائلية التي عرفت بها ربيعة الفرس في الازمن المتأخرة.

مناقشة ادلة من يقول بأن الدولة العيوينة هي دولة ربعية نزارية

وأغلب هؤلاء إنما يستندون على شعر ابن المقرب العيوني وشروحه التي تزيد على عشرين نسخة أصحها ما عرف بالطبعة الهندية التي طبعت في الهند سنة ١٣١٠هـ، ولم يرد فيها نسباً صريحاً لابن المقرب سوى ادعائه انه من ربيعة بعمومها، وافتخاره بمفاخرها الجاهلية فقط، دون اشارة إلى مفخرة أو منقبة وقعت في عهد الشاعر نفسه، والعجيب ان الباحثين لم يضعوا في اعتبارهم ولو على سبيل الاحتمال عدم صحة نسبة العيونيين إلى ربيعة الفرس، ولم يختلفوا فيها وهي الأولى، إنما اختلفوا في أي البطون الربعية يقع نسبهم، والشاعر علي ابن المقرب انما افتخر في أغلب شعره الموثق باسم ربيعة بعمومه ولم يحدد بطناً ربعيًّا بعينه، فتارة يقول يفتخر بعنزة، وتارة ببكر، وتارة تغلب والنمر، ولم يصرح ابن المقرب في كل شعره في حقيقة موقع عائلته بقبيلة ربيعة الا بما يتعلق بذكره آل إبراهيم وبني عامر وهم رهطه المباشرين، كما ان ابن المقرب لم يفتخر بشعره بأي من احداث وحروب ربيعة في عهده هو، فكل فخره كان لحوادث ربيعة الجاهلية، فهو هنا لم يكن مثل أبي فراس الحمداني أو عبدالله بن ورقاء الشيباني الصريحين النسب في ربيعة، فلما انتصر سيف الدولة الحمداني على بني عامر سنة هـ ذكر ابن الورقاء قصيدة في مدح سيف الدولة وقبيلة ربيعة بهذه المناسبة، وهذا التفاعل مع الاحداث والمستجدات الربعية لم نجد له أثراً عند ابن المقرب العيوني لو كان صداقاً بنسبة نفسه واهله إلى ربيعة الفرس.

وبالنسبة لي أرى وأرجح أن علي ابن المقرب كان يفتخر بربيعة ادعاءً، وتفاخراً على عرب البحرين في عهده وهم بني عامر قيس عيلان،

ومعلوم عداوتهم التاريخية مع ربيعة، ورغبة الشاعر تمييز رهطه عن عامتهم، وتشبه حالة ابن المقرب العيوني هنا حالة مشهورة ذكرها ابن خدون في مقدمته الشهيرة:

«وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها، إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم، أو ذكر كيف اتفق، فينزعون إلى ذلك النسب» أ.هـ[1]

ونحن نرى أن ابن المقرب العيوني الشاعر من هذه العينة التي ذكرها ابن خلدون وما أكثرها في زمننا هذا، ومما يدل ان ابن المقرب ليس من ربيعة أو يوحي بهذا الشي من شعره قوله:

وطالبتنا بنو الأعمام عادتنا فلم تجد بكماً فيناً ولاصمماً

وقال شارح الديوان يشرح هذا البيت: بنو الاعمام يعني قبائل ربيعة بن نزار[2]، ولم يشر الشارح لانتماء الشاعر إليهم أعني إلى ربيعة، ولم يشر أيضاً إلى اشرافهم وبطونهم التي طالبت الأسرة العيونية للمساندة ضد القرامطة على حد قول ابن المقرب، وقد يكون المعنى المراد ان الشاعر يشترك مع ربيعة في نزار الجد الأعلى لا انه من ربيعة ذاتها.

وكل المعنى الذي اراده الشاعر ما هو إلّا القول بأنه انتقم لربيعة من اعدائها القرامطة الذي مارسو ضد عبد القيس الربعية القتل والاحراق[3]، الأمر الذي ادى إلى جلاء ربيعة ليس فقط عن البحرين، بل عن كافة جزيرة العرب.

---

(١) مقدمة ابن خلدون - المكتبة العصرية ص ١٢٥.

(٢) شرح ديوان ابن المقرب العيوني، المركز الثقافي، المجلد الثاني ص ٩٤٣، تحقيق كل من: عبد الخالق الجنبي، علي بن سعيد البيك عبد الغني احمد العرفان.

(٣) وبنفس شرح الديوان السابق يبق هذا البيت الذي نقتلها قول علي بن المقرب:

وحرقوا عبد القيس في منازلها وصيروا الغر من سادتها جمماً =

ومما يؤكد أن العائلة العيونية هي عائلة عامرية قيس عيلانية هو خبر الحرب بين عرب البحرين وعرب طيئ وأمرائهم ربيعة سنة ٦٠٠هـ، وقد ورد خبر هذه الحرب وتحدث عنها ابن المقرب وتفاخر بها في شعره، رغم ان لا ذكر لقبائل ربيعة الفرس فيها، وورد في شرح الديوان المقربي مانصه وهو يتحدث عن ربيعة طيئ:

«ذلك انهم - أي آل ربيعة - جمعوا قبائل طيئ وزبيد وعنين وغيرهم من عرب الشام والحجاز وساروا يريدون البحرين ودفع من بها من العرب ويملكونها دون قبائل عقيل، وأهمهم ذلك فقالوا: نبتديء بعبادة وخفاجة ومن بالعراق من قبائل عقيل ثم ننحدر على البحرين ونملكها، فبعثوا إلى الأمير محمد بن أبي الحسين وهو بالبحرين، ونهض بعرب البحرين من عبادة وخفاجة ومن معهم من عقيل» أ.هـ

وهذا النص يدل بوضوح ان عرب البحرين هم بني عقيل بن عامر قيس عيلان واخوانهم خفاجة وعبادة وربيعة قيس عيلان، ولو كان لربيعة بن نزار أي تواجد حقيقي ملموس لذكروا في تلك الحرب، وخاصة ان الشريف محمد بن عبدالله بن منصور بن حمزة أحد ائمة الزيديوة بصنعاء كان معاصراً لتلك الاحداث، ونسب فضلها إلى عائذ أحد فروع بني عامر قيس عيلان في قصيدته المسماة ذات الفروع.

= والغريب ان الشارح للديوان لم يشر إلى عبد القيس إلّا بقوله أن القرامطة جمعو أكثر عبد القيس في محلة عرفت باسم (المحرقة) وقاموا باضرام النار فيهم وإحراقهم، وهذه الحادثة لا نشكك بصحتها بل هي السبب في انقطاع ذكر عبد القيس النهائي عن المنطقة وضياع عمود النسب لهم، وقد اكد وقوع هذه الحادثة المقريزي المؤرخ في كتاب (اتعاظ الحنفاء في اخبار الفاطميين الخلفا)، والغريب هو اصرار محققوا الديوان والشرح على نسبة ابن المقرب إلى عبد القيس رغم ان شارح الديوان والشاعر نفسه لم يشيروا أبداً إلى ذلك.

ظهور اسم عنزة الوائلية المعاصرة في القرن الخامس الهجري

منذ انهيار الدولة الحمدانية مطلع القرن الخامس الهجري انقطع اسم ربيعة الفرس من مصادر التاريخ، وظهر بوضح تفوق القبائل التي كانت تساند القرامطة (بني عامر) والذين زاحموا الربعيين في ديارهم في شمال بلاد العرب.

فقد استولى الاكراد على ديار ربيعة الشمالية كما مر معنا، واستولى بنو عامر على ديار الموصل وحلب، وأصبحت الساحة الشمالية تتنافس فيها قبيلتين هم: بنو عامر وطيئ بقيادة آل ربيعة.

ولم يتبقى من بطون ربيعة الا اسم عنزة الذي بقي متداولاً، ترادفه العزوة الوائلية، وعنزة في فترة القرن الخامس الهجري تعاني من ضغط القوتين الكبيرتين في المنطقة وهم عامر وطيئ.

ويبدو لنا من خلا استقراء التاريخ ان رئاسة قبائل ربيعة انتقلت في تلك المرحلة وربما ما بعد انهيار الدولة الحمدانية إلى فرع عنزة في بكر بن وائل، والذي كان في مراحل سابقة فرع من اللهازم من بكر بن وائل، وهذا هو السبب الرئيسي لعموم اسم عنزة وتغلبه بالشهرة على بطون ربيعة الأخرى مع بقاء الانتساب والاعتزاز بوائل ربيعة ولا تزال القبيلة معروفة به حتى اليوم.

ولذلك فإن القبيلة الربعية المعروفة اليوم بأسم عنزة أو بني وائل والتي ظهرت في القرن الخامس الهجري ما هي إلّا قبيلة ربيعة الام ذاتها وقد غلبها لقب عنزة وهو اقرب الاسماء إلى ربيعة ضمن بطونها.

ورغم شح المصادر كما قلنا في هذه الفترة فقد أشار نصر السكندري (ت ٥٦٠هـ) إلى تواجد عنزة في غرب جزيرة العرب وحول حرة النار (حرة خيبر) وذلك منتصف القرن السادس الهجري، وهذه الديار كانت ديار غطفان سابقاً وفي الفترة التي كانت ربيعة في ديارها الشمالية.

ثم جاء العلامة ابن سعيد الاندلسي الذي أكد أن عنزة - إضافة إلى عنز بن وائل وبني شعبة- هم البقية الباقية من عرب ربيعة الفرس في زمنه، وسنناقش نصوص ابن سعيد لاحقاً وهي في غاية الاهمية.

أسباب ظهور وبروز اسم عنزة على بقية ربيعة وبقاء النسب الوائلي واختفاء مسميات ربيعة الأخرى.

هذا السؤال يطرح نفسه وبقوة وخاصة في عصرنا هذا، حيث اختزل اسم بني وائل وأصبح يرادف قبيلة عنزة فقط، وانتهت تلك الاسماء القديمة المشهورة من ربيعة مثل بكر وتغلب وعبد القيس والنمر وعميرة وضبيعة ولم يعد أحد ينتسب إليها[1].

وقد فسر ابن سعيد الاندلسي اختفاء بطون ربيعة كلها إلّا عنزة وأوعزه إلى الاختلاط بالفلاحين واهل القرى، وانمحى عنهم اسم العرب تبعاً لذلك ولم تعد لهم قائمة تذكر وبطناً يُعرف.

وفات على ابن سعيد ارتباط عنزة بقبيلة بكر بن وائل منذ دخول عنزة فيها في العهد الجاهلي، مما يعني ان عنزة كانت تبعاً للقبيلة الام بكر بن وائل، فإن كانت الأخيرة دخلت في الفلاحين فينطبق هذا على عنزة أيضاً.

وحاول المستشرق اوبنهايم ان يجمع بين قول ابن سعيد الاندلسي ان بكر ذابت وجمع هذا القل مع كون عنزة بطناً من بكر فنجده يقول في كتابه (البدو) ما نصه:

---

(١) ينبغي ان يلفت نظر القارىء الكريم اننا نعني بالاختفاء عدم وجود الاسم والمسمى وليس الانقراض بموت افراد هذه البطون، كما ان ما يثار مؤخراً من وجود لقبائل مثل حنيفة عبد القيس لا يعدوا كون احتمالات عن انساب اسر أو قبائل نتيجة تشابه الديار، فكوننا نقول ان قبيلة أو عائل يعود اصلها إلى عبد القيس أو بكر غير قولنا: هذه عبد القيس، هذه بكر.

«انفصلت عنزة عن بكر، التي دخلت أفواجاً في الجيش الإسلامي وخسرتها البداوة».

وهذا مجافي للحقيقة التاريخية، ولكنه أكثر منطقية من قول ابن سعيد الاندلسي، فعنزة المنضوية في قبيلة اللهازم من بكر بن وائل ظلت كذلك حتى انقطاع ذكر ربيعة الفرس كلها من المصادر إلى هذه المرحلة التي نحن بصددها وهي اواخر القرن السادس الهجري، وحتى مع ظهور الإسلام وانخراط قبائل ربيعة في جيوشه فإنها ظلت وفية لطريقتها البدوية في الحياة، وما يتبع هذا من مظاهر حياة البدو المعروفة من النعرة والتعصب والتكتل باسم القبيلة أو العزوة، والتفاخر بالآباء والقبائل ومآثرهم القديمة.

ولكي نكون منطقيين ومتوافقين مع السياق التاريخي لقبائل ربيعة وبطونها فإننا أمام أحد رأيين لا ثالث لهما لتفسير تواجد بني وائل باسم عنزة فقط مع اختفاء بقية بطون ربيعة:

الأول -اما ان تكون قبيلة عنزة انفصلت عن اخوانها من ربيعة من بكر وتغلب والنمر وعميرة وعبد القيس، والتي نفترض انها ذابت بقبائل الأكراد والقرى وانمحت عصبتها، وبقيت عنزة وحدها القبيلة البدوية التي تحفظ النسب العنزي ويقترن مع النسب الوائلي، لأن عنزة كانت فرعاً في اللهازم من بكر بن وائل، وان اخذنا بهذا الرأي فلن يكون هذا قد حدث قبل القرن الخامس أي بعد نهاية الدولة الحمدانية، لأن عنزة كانت لا زالت في زمن الحمدانيين بنفس موقعها من المشجر الربعي كبطن من بكر بن وائل.

وهذا الرأي هو ما ذهب إليه اوبنهايم المستشرق وان لم يصرح به بل ذكره ضمناً.

الرأي **الثاني** عن بروز اسم عنزة على كافة بطون ربيعة هو ان عنزة

الوائلية عمم اسمها على كافة بطون ربيعة، ولذلك عرفت القبيلة باسم بني وائل إلى جانب اسم عنزة، وهذا الرأي هو الاقرب والاصوب في نظرنا، وتدعمه عدة شواهد وقرائن من أبرزها:

١- إن شمول اسم بطن على بطون أخرى من نفس القبيلة هو امر اعتيادي وظاهرة معروفة عند العرب ككل، وعنزة في مشجر النسب هو العم الاعلى لوائل بن قاسط واقرب الأسماء إلى اسم ربيعة القبيلة الأم.

٢- إن شمول اسم فرعى بقية الفروع يأتي غالباً بكون رئاسة القبيلة انتقلت لهذا الفرع، أو يكون ذها الفرع هو الأكثر عدداً، ونحن نرى ان رئاسة ربيعة انتقلت إلى عنزة اللهازم في الفترة مابن انهيار الدولة الحمدانية وحتى ظهور اسم عنزة مجرداً في المصادر التاريخية بعد القرن السادس الهجري.

٣- ورد في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ترجمة لأحد رواة بني شيبان من القرن الخامس وهو عبد القاهر بن محمد بن محمد بن عنزة، ورفع نسبه إلى بني شيبان من بكر بن وائل وقال انه معروف بابن عنزة[١]، وتوفي عبد القاهر هذا سنة ٤٠٧هـ

٤- وفي كتاب ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٨هـ معجم البلدان نجده يصرح بأنه وجد من ينسب بطون ربيعة إلى عنزة وهم عميرة وغفيلة الداخلين في تغلب بن وائل، وصرح ياقوت ان هذ خلاف لما ذكره ابن الكلبي في حديثه عن بطون ربيعة[٢].

وعلى كل حال فلم يبقى اسم ربعي متداول ومعروف بين العرب إلا عنزة ووائل، وهم اليوم مسميين لقبيلة واحدة، ويتوارث رواة القبيلة انهم ابناء عناز بن وائل، ولا يحفظون ما بعد وائل أي اسم، ولكنهم لا زالوا

(١) ووردت ترجمته أيضاً في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لأبن العديم

(٢) أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان رسم (بلج).

يتذكرون بعض المفاخر الربعية القديمة ويتوارثونها، وهذا امر طبيعي في العرب، ولكنه ذو دلالة تاريخية واضحة نجد تفسيرها في تاريخ ربيعة بوضوح تام.

وهناك من يقول من مؤلفين معاصرين ان من بطون ربيعة الأخرى من لم يدخل في مسمى عنزة الوائلية المعاصرة التي نعتبرها مفهوم ربيعة الحديث، زاعمين ان هذه البطون تحولت مسمياتها إلى اسماء أخرى غير اسلافها، وعند التدقيق وراء هذه الأقوال نجدها تفتقر للصحة، فلا مصادر ووثائق تدل بوضح على هذه الأقوال، ولاموروث أو محفوظ عن هذه القبائل يدل على ربعيتها.

واقصى ما لدى هؤلاء انهم يقولون ان القبيلة اليوم تعرف باسم عنزة، فهي اذن على قولهم لاتشمل الا فرع عنزة بن اسد، وبقية بطون ربيعة تمثل قبائل اخرى، وفات هؤلاء ان القبائل الربعية الأخرى المفترضة ليست موجودة باسمائها، فإن اقررناهم على قولهم هذا، وجب عليهم ان يثبتوا ان هناك من يقال لهم (بكر) أو (عبد القيس) أو (تغلب).. الخ أو غيرها من بطون ربيعة القديمة وكل هذا ليس معروفاً في زمننا هذا.

ونظرة واحدة على حجم قبيلة عنزة الوائلية المعاصرة نجدها حرية بأن تكون وريثة جامعة لقبائل ربيعة شملها اسم أحد بطونها (وائل) وانتسسبت إلى عنزة.

الفصل التاسع

عنزة امتدت من ديارها في شمال بلاد العرب إلى الحجاز ونجد

في جميع مراحل تاريخ ربيعة وحتى نهاية الدولة الحمدانية الربعية لاحظنا ان ربيعة تتواجد في العراق والشام، وهناك سطر ووثق تاريخها، وظهر أكثر اعلامها شهرة، ومن غير المنطقي ان يكون ذكر عنزة في العراق يتناقض مع ذكرهم في الحجاز منتصف القرن السادس الهجري.

وهذا فسره ابن سعيد الاندلسي ووضحه نقلاً عن رواة عصره، وهو ان عنزة كانت بلادها عين التمر في بادية الانبار ثم انتقلت عنها إلى الحجاز نحو خيبر.

وعين التمر في حقيقتها من الممكن ان تسمى سلة الغذاء الوائلية، ففيها العيون وأشجار النخيل، وقد ارتبطت بالتاريخ الوائلي الربعي وقد استولى عليها الربعيون بمعونة الفرس منذ الجاهلية، وقد مر معنا في هذا الكتاب ان عين التمر كانت نخبلاً لبكر وتغلب، وقد فتحها المسلمون وقتلوا بها هلال البشر النمري الذي ينتمي إلى قبيلة النمر الداخلة في تغلب وائل، وقد حرص المسلمون عند فتحها زمن أبي بكر الصديق ان يكون الفاتحون لها جنودا من بكر وعنزة غرماء تغلب.

وليس انتقال ربيعة أو عنزة من عين التمر هو بالمعنى السطحي الذي قد يفهمه البعض، بل الانتقال يعني تغير قواعد الانطلاق للقبيلة، فمثلاً

نستطيع القول ان ربيعة إلى ماقبل انهيار الدولة الحمدانية كانت قاعدتهم الأساسية الموصل، ثم لما استولى الاكراد وبني عامر على الموصل اصبحت عين التمر هي القاعدة، ثم بدأت قبائل ربيعة أو عنزة الوائلية كما عرفت بالبحث عن قاعدة أخرى في مكان آخر فكان الهدف خيبر في الحجاز، ولا يعني ذلك انقطاع عنزة وعدم انتشارها في بقية الاقطار.

أسباب وعوامل تحول عنزة الوائلية إلى الحجاز وتركها لديار ربيعة

إن ترك ربيعة أو مسماها الجديد (قبائل عنزة الوائلية) لديارها في العراق وتحولها إلى الحجاز أسباب وعوامل، ومن الممكن تلخيصها كما يلي ووفق الاستقراء التاريخي:

أولاً- كان العراق العباسي يخضع لنفوذ السلاجقة الأتراك منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وبين السلاجقة هؤلاء وبني عامر أعداء ربيعة علاقة وثيقة، وخاصة أن الدولة العيونية التي نرجح انها عامرية كانت تابعة بولائها للسلاجقة.

ولم يكن لربيعة أو عنزة الوائلية في العراق اية مشيخة قوية ومعروفة تنافس العيونيين الا قبائل ربيعة طيىء مثل غزية والاجود والتي كانت عنزة تحالفهم، ولا ريب أن بني عامر كانوا يشكلون ضغطا على قبيلة عنزة التي كانت بين مطرقتهم وسندان السلاجقة ببغداد.

وقد نقل المؤرخون في آخر اخبارهم قبل انقطاع ذكر بني شيبان انهم كانوا يغزون الحواضر في بغداد وتكريت، منطلقين من عين التمر.

ثانياً- في تلك الحقبة كان المماليك يحكمون مصر، ويتبعهم دولة القتاديين الاشراف التي تأسست سنة ٥٩٧هـ، وكان حماية الحجيج تمثل معضلة المماليك والاشراف، فكان يتم اعطاء الاموال للقبائل البدوية التي تتواجد على طرق الحج المؤدية للمدن المقدسة، وهذا ساهم في

انتعاش الوضع الاقتصادي لقبائل نجد والحجاز، وتسبب أيضاً في معارك بين هذه القبائل على السيادة على طرق الحج والحصول على هذه الاتاوات، فكانت عنزة الوائلية عندما نقلت قواعدها من العراق إلى الحجاز انما تريد ان تحصل على طريق للحج يضمن دخلاً وعائداً للقبيلة، وكانت عنزة وقد وصلت إلى الحجاز بحاجة لواحة تقوم مقام عين التمر كمصدر للغذاء الاساسي، فكانت تلك الواحة هي خيبر التي يسكنها بنو جعفر من بني هاشم وهو ماسنتحدث عنه بالتفصيل فيما يلي.

ظروف استيلاء عنزة على خيبر

حدث هذا في عهد الدولة العيونية، وعاصره شاعرها ابن المقرب العيوني واشار إليها في احدى قصائده، واوردها شارحي ديوانه كاملة.

ووفق ماورد ان عنزة ظهرت على خيبر وهي املاك لبني جعفر الاشراف، قامت عنزة بطردهم من المنطقة والاستيلاء على البلاد، وفرض الاتاوة على من بها من بني جعفر، وكانت عنزة تترك فرساناً عددهم اربعمائة في خيبر لضمان دفع الاتاوة بانتظام والاستيلاء على المحصول السنوي.

لكن مجموعة من فرسان بني جعفر دخلو خيبر غيلة وقتلو السرية العنزية المكلفة بجباية الاتاوة وهي بقيادة لعيب العنزي، ويبدو أن هذا الخبر قد اشتهر في جزيرة العرب كدليل على شجاعة فرسان بني جعفر هؤلاء، فكان أن امتدحهم ابن المقرب العيوني بقوله:

لـلـه قـوم مـن ذؤابـة جـعـفـر	لم يغمضوا جفنا على الاقذاء
تـركـوا لـعـيـبـا في مـئـين اربـع	جـزراً قـبـيـل تـنـور ابـن ذكـاء
وهناك طابت خيبر واستبدلت	مـن بـعـدهـا الـسـرء بـالـضـراء

وعلمت قبيلة عنزة لماحل بسفرائها الأربع مئة بخيبر ومقتل لعيب

العنزي، فهاجمت بني جعفر وحاربتهم واستعادت البلدة منهم واعادت فرض الاتاوة عليهم مجدداً.

وهذه القصة تدل على علاقة قبيلة عنزة بواحة خيبر لم تبدأ قبل الثلاثة عقود الأخيرة من القرن السادس الهجري، وقبلها كانت عنزة تمتد من تيماء شمالاً وحتى حرة النار جنوباً، وتمتد إلى الشرق حيث الجفر المسمى (جفر عنزة) وهو قرب حرة الثنية بين المدينة المنورة ومنطقة حائل.

والغريب أن من ينسبون ابن المقرب العيوني إلى ربيعة لم ينتبهوا لقصيدته هذه عن الحرب بين بني جعفر وعنزة، ولم يلحظوا أن ابن المقرب كان من المفترض ان يمدح عنزة وهم ربيعة بدلاً من يمتدح بني جعفر، رغم ان ابن المقرب سجل من ضمن مفاخره الربعية حادثة القارض العنزي التي حدثت في الجاهلية!

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن استيلاء عنزة الوائلية على خيبر ان نشير إلى بعض تخرصات المؤلفين المعاصرين، من ان علاقة عنزة بخيبر بدأت منذ فترة مبكرة ومن القرن الثالث الهجري وليس من القرن السابع الهجري كما ورد، وهذا تجاهل لمصادر التاريخ والوثائق الدالة بوضوح تام كيف ومتى ومن اين جاءت عنزة إلى الحجاز.

عنزة الوائلية من حلفاء ربيعة طيئ في القرن السابع (٦٠٠هـ - ٦٩٩هـ)

وفي تلك الفترة كانت عنزة كغيرها من العرب تحالف اقوى قبيلة عربية تلك الحقبة، وهي قبائل طيئ وأمرائها آل ربيعة[1]، ومن طيئ

(١) انظر مسالك الابصار في ممالك الابصار (قبائل العرب في القرنين السابع والثامن) لابن فضل العمري المتوفي سنة ٧٤٩هـ ونقلاً عن المهمندار الحمداني المتوفى سنة ٦٠٢هـ.

قبائل غزية التي ورثت ديار ربيعة في العراق[1]، وكانت عنزة بحاجة لحلف قبائل طيئ نظراً لسيطرة الطائيين على معظم بلاد العرب، ولا منافس لهم إلا بني عامر رهط الدولة العيونية، ومن شبه المؤكد أن عنزة قد اشتركت ضد الدولة العيونية مع قبائل طيئ في الحرب التي وقعت بين الجانبين في العراق وانتصر فيها بنو عامر على طيئ وحلفائها، وهي المعركة التي انتصر فيها العيونيين وقبائلهم وتفاخر فيها ابن المقرب كثيراً، ولعل اشتراك عنزة في هذه المعركة ضد قبائل بني عامر هو مايفسر غضب ابن المقرب على عنزة حين احتلت خيبر.

وأبرز القبائل التي تجاور عنزة في القرن السابع هم بني صخر، وبني لام، والظفير، وكلهم من طيئ كما نلاحظ ومواطنهم من تيماء إلى المدينة إلى جبلي طيئ، كما ان حلفاء طيئ الآخرين كانوا مجاورين لعنزة تلك الحقبة ومن أبرزهم: مطير القبيلة التي لا تزال معروفة، وخثعم، وعدوان، وبني حسين الشرفاء، وجميع هؤلاء هم أبرز عرب الحجاز تلك الحقبة، وقد اورد تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ في حوداث سنة ٦٦٦هـ ان عنزة وبني صخر يؤدون الزكاة للسلطان المملوكي في القاهرة[2].

وفي تلك الفترة كانت عنزة تتجول في شمال نجد مع قبائل طيئ طلباً للرعي، وتنحدر معهم جنوباً إلى الأجزاء الجنوبية من نجد والحجاز، وقد تتورط في الصراعات القبلية مع قبائل عامر الضاربة من بيشة ورنية وحتى البحرين والعراق[3].

---

(١) تاريخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون وذكر أيضاً ان جزء من عنزة رحل مع بني هلال عن جزيرة العرب نحو افريقيًّا تلك الحقبة.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، لشيخ المؤرخين المصريين أحمد بن علي المقريزي المعروف باسم تقي الدين المقريزي.

(٣) ذكر ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٨هـ ان وادي بيشة ورنية بها تجمع لقبائل خفاجة على زمنه.

ولاتسعفنا مصادر التاريخ في هذه المرحلة إلّا باسم عنزة فقط، ولا يوجد أي اشارة لبطونهم أو رجالاتهم البارزين، وهذا أمر طبيعي لأن عنزة لم تكن بموقع ذو تأثير يذكر مثل بني عامر أو قبائل ربيعة الطائية التي طفحت الكتب في هذه الفترة في الحديث عن اعلامها.

ولكننا نقول ان الخارطة العنزية الوائلة المعاصرة قد بدأت تتشكل في هذه المرحلة وربما قبلها بكثير، ولكنها بالتأكيد لم تتشكل بتاريخ احدث، وتضم الخارطة الوائلية المعاصرة جذمين كبار وهم: بشر ومسلم ومنهم يتفرع عشرات البطون والقبائل الوائلية المعاصرة.

علاقة عنزة بالشام والعراق لم تنقطع حتى بتواجدهم بالحجاز

يعتقد البعض ان قبائل عنزة الوائلية المعاصرة لم تعرف الشام والعراق الا منذ عهود قريبة، وهذا خلاف تاريخ ربيعة أسلاف عنزة وجذورها، وحجة بعض من يعتقد هذا الاعتقاد ان القبائل العربية عندما تغادر الجزيرة العربية فانها تذوب بالحضارة وتفقد سماتها العربية وعصبتها، ولعل هذا ماحمل البعض ان يعتقد ان جذمي بكر وتغلب هم البطنان الربعيان الذين هاجرا إلى العراق والشام فاختفت اسمائهم هناك، بينما بقيت عنزة في جزيرة العرب حتى هاجرت هجرتها الأخيرة في القرنين الأخيرين أي في زمن قريب جدًّا.

هذه الصورة السطحية لاتصح وفق المعلومات التاريخية عن قبائل ربيعة طوال تاريخها منذ تم تدوين التاريخ عند العرب، وهذه النظرية تم بنائها حديثا بسبب تأثير الأوضاع السياسية المعاصرة، فاستقلال جزيرة العرب بدول وكيانات سياسية عن العراق وبلاد الشام بدول تفصلها حدود سياسية جعل البعض يعتقد الانتقال بين هذه الاقاليم كما هو اليوم من الصعوبة، حيث يتم النظر للحقب التاريخية وبل للتاريخ كله من هذا المنظار المعاصر القاصر.

ونحن نقر بشح المعلومات والمصادر التاريخية عن العرب وقبائلهم وخاصة في القرون الخامس والسادس والسابع من التاريخ الهجري، إلّا أن اشارات كثيرة وردت عن قبائل العرب المؤثرة في تلك الفترة، وورد اسم عنزة في كثير من المراجع، هذه الاشارات وان جاء كثير منها بشكل مختصر ومقتضب وعام إلّا أنه بتجميعها نستطيع الحصول على صورة شبه كاملة ووافية عن تاريخ ربيعة في تلك الحقبة، كما ان التغيرات الديمغرافية والتاريخية التي يهمنا امرها يكفيها بضعة اشارات في وثائق وكتب ليتم استنتاج الكثير من الحقائق من ثناياها، وذلك بالاستقراء والتحليل والربط وقياس الواقع والزمن الذي نعيشه لأنه هو الآخر مرحلة تاريخية مفتوحة امامنا ولسنا بحاجة لمصادر عنها.

وقبيلة عنزة الوائلية كانت حتى بعد انتقال مركزها من ديار اسلافها ربيعة إلى الحجاز لا تزال في طور البدواة والتنقل، ولم يكن هذا التنقل مستقلاً بل كان عنزة ومعها قبائل أخرى حلفاء لربيعة طيئ وتنتقل منها، وكان البطن الطائي الذي تتبعه عنزة هو آل مرا من ربيعة، وديارهم أو بالاصح اماكن تنقلاتهم كما حددها الحمداني المتوفى سنة ٦٠٢هـ في زمنه هي: البلقاء والجولان والزرقاء وبصرى شمالاً، ويمتدون إلى مكة وحرة كشب المعروفة، وهذا يتوافق مع ديار عنزة ومركزها في تلك الفترة وهو الحجاز، وهم في منافسة مع بني عمهم الفضول (آل فضل) الذين يتمركزن في نجد حيث قبائل عائذ سعد العشيرة وبني عامر المنافس الرئيسي لكل ربيعة طيئ.

الفصل العاشر

الأوضاع السياسية في القرن السابع الهجري

القوى السياسية التي كانت موجودة بالقرن السابع كما يلي:

١- السلاجقة ببغداد حتى اجتياحها من قبل المغول سنة ٦٥٦هـ

٢- المماليك بمصر ويتبعهم الحجاز

٣- الأشراف القتاديون في مكة ويتبعون المماليك

٤- العيونيين من بي عامر في البحرين كانوا تابعين للسلاجقة، ثم لما بدا الضعف يدب في السلاجقة انهارت ممالك بني عامر في ديار ربيعة السابقة مما جعل الكثير من بطون بني عامر تنزح للبحرين لوراثة حكم العيونيين الذي انتهى حكمهم سنة ٦٥١هـ وقامت اسرة آل عصفور العامرية بالحكم بدلاً منهم.

وهذه ابرز القوى المؤثرة على قبائل العرب في القرن السابع، وقد بينا الوضع السياسي لقبائل عنزة الوائلة تلك الفترة وكيف انه حليفة لقبيلة ربيعة طيئ وموالية لحكم المماليك واتباعهم الأشراف في مكة المكرمة.

قراءة في نصوص ابن سعيد الاندلسي وبحثه عن ربيعة في القرن السابع الهجري

اردنا تخصيص ابن سعيد الاندلسي بالحديث نظراً لأنه القى الضوء

على قبائل العرب في زمنه وهو القرن السابع الهجري، وحرص ابن سعيد على تتبع التغيرات الديمغرافية لقبيلة ربيعة في بلاد العرب، وزودنا بمعلومات بالغة الاهمية عن تلك الحقبة الغامضة من تاريخنا.

وابن سعيد هو عالم وشاعر ورحالة اندلسي زار جزيرة العرب للحج وله عدة مؤلفات قيمة وقد التقى بعدد من الاعراب ومنهم عرب البحرين وسألهم سنة ٦٥١هـ عن القبائل ومسمياتها ومن بقي على مسماه ومن اندثر، وهو اول من نقل خبر انتقال عنزة إلى خيبر نقلاً عن البيهقي الجغرافي، ولد ابن سعيد سنة ٦١٠هـ وتوفي سنة ٦٨٥هـ وهو من ذرية الصحابي عمار بن ياسر[١]، وقد قام برحلتين إلى جزيرة العرب منتصف القرن السابع.

وقد عاصر ابن سعيد نهاية الدولة العيونية وبداية حكم بني العصفور في البحرين، واعتمد على مؤلفاته عدد كبير من علماء اتو بعده بقرن أو قرنين ومن ابرزهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون وأحمد القلقشندي صاحب كتاب (نهاية الأرب في انساب قبائل العرب).

شهد ابن سعيد في جزيرة العرب التفوق الكبير لقبائل بني عامر على غيرها من العرب وخاصة ربيعة، وفي الجانب الآخر تفوق قبائل ربيعة طيئ والتي كانت عنزة حليفتها كما مر معنا.

ونجد ابن سعيد يصف قوة بني عقيل بن عامر في ديار ربيعة قائلاً:

«ولم يبق معها بالجزيرة لربيعة الفرس قائمة»[٢]

ثم يؤكد ابن سعيد أن الديار المعروفة باسم ديار ربيعة ليس بها أحد منهم يذكر أو يعرف:

«ولقد دوخت بلاد ربيعة بالجزيرة الفراتية فلم أجد فيها من يركب

---

(١) انظر ترجمته في فوات الوفيات ج٢ ص٨٩ والاعلام لخير الدين الزركلي.

(٢) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد الاندلسي.

فرساً من تغلب ولا بكر، ولا لهم قائمة. وقد صارت دولة العرب هنالك لزبيد من طيئ ولعبادة من المضرية، وتغلب وبكر دخلوا في الفلاحين، وامحي عنهم اسم العرب» أ.هـ

وابن سعيد في هذا النص هو من اوحى للكاتب الالماني المستشرق اوبنهايم ان يقول بانفصال عنزة عن بكر بن وائل التي خسرتها البداوة على حد قوله، وبتحليل نص ابن سعيد الاندلسي نجد انه احتوى على نقطتين:

الأولى: هي انه وصف واقعاً أمامه وهو عدم وجود ذكر لربيعة في ديار كانت تحمل اسمها في مامضى، وان بني عبادة وهم من عامر وزبيد الطائية هم اصحاب البلاد في زمنه.

والنقطة الثانية: من نص ابن سعيد الاندلسي هي اجتهاده في تفسير انعدام اسم بكر وتغلب البطون الربعية، وهي قوله انهم تفرقوا في الحواضر والقرارات، ويعني ابن سعيد الاندلسي بهذا انهم فقدوا انساباهم وعصبتهم وانمحت آثارهم التي ملأت الكتب في القرون الاربع الأولى من الهجرة عندما كانوا بدواً اقحاحاً.

ونحن نرى ان نخالف ابن سعيد الاندلسي في النقطة الثانية وليس بالأولى، فالأولى هي عبارة عن معاينة ميدانية لابن سعيد الاندلسي ووصف مجرد للواقع ونفيها هو تكذيب غير مبرر لابن سعيد، اما تفسيره ان سبب انقراض بكر وتغلب هو التحضر ففيه نظر، ونحن نرى ان بكر وتغلب دخلو في مسمى عنزة العم الأكبر، وهو الاسم الشائع في زمن ابن سعيد الاندلسي، وسيذكره عند حديثه عن عرب الجزيرة العربية، وربما لو خالط ابن سعيد الاندلسي قبائل عنزة في تلك الحقبة لعرف أو توقع هذه الحقيقة لاشتهار عنزة في ذلك الوقت باللقب الوائلي.

حديث ابن سعيد عن قبيائل عنز وربيعة في جزيرة العرب في زمنه

وقال ابن سعيد بعد ذلك في كتابه نشوة الطرب:

«ودخلت جزيرة العرب، فسألت: هل بقي في أقطارها أحد من ربيعة؟ فقالوا: لم يبق من يركب الخيل وفيه عربية وحل وترحال غير عنزة، وهم بجهات خيبر، **وبني شعبة المشهورين** بقطع الطرقات وهتك الأستار في أطراف الحجاز مما يلي اليمن والبحر، **وبني عنز في جهة تبالة**؛ وغير ذلك لا نعلمه في المشرق ولا في المغرب» أ.هـ

ونلاحظ حصر ابن سعيد لقبائل ربيعة في زمنه على ثلاث قبائل هم: عنزة جهة خيبر، وشعبة وعنز بن وائل.

وهذا يدل على حرص ابن سعيد الاندلسي على التقصي عن ربيعة وبطونها، سواء بالمصادر، اومايطابق واقع الحال والزمن الذي يعيشه ابن سعيد، والمعروف في زمنه عن العرب المعاصرين له، ومن ذلك حرصه على السؤال عن المناطق التي كان لربيعة بها ذكر معروف في المصادر القديمة مثل اليمامة التي كانت مواطن لربيعة وخاصة بني حنيفة وعنزة حيث قال عنها:

«ولم يبق الآن لحنيفة باليمامة ولا غيرها باقية. وملوك اليمامة قوم **من عرب قيس عيلان**»[(١)]

وسنناقش الآن هذه البطون الربعية والتي اكد ابن سعيد انها بقية ربيعة الفرس على زمنه.

---

(١) ما تحته خط من النص الذي نقله القلقشندي في صبح الانشا، ومن المؤكد ان ابن سعيد يقصد بقوم من قيس عيلان بني عامر وخاصة آل عصفور وهم قبائل اليمامة في ذلك الوقت وتخالطهم قبائل من عائذ سعد العشيرة وهم آل يزيد وآل مزيد.

وبالنسبة لبني شعبة فلا نعتقد يصحتة انتسابهم إلى ربيعة الفرس، وليس هناك نصوص وعرف منقول ومتصل قبل ابن سعيد الاندلسي يبين بني شعبة هؤلاء وإلى أي بطون ربيعة ينسبون، غير أن ابن سعيد الاندلسي يقول انهم من تغلب وائل:

«وفيما بين السرين ومكة في شامة وطفيل - وهما جبلان - بنو شعبة الذين يقطعون الطرقات، وهم من بني تغلب. ولم يبق في البادية ممن ينسب لتغلب وله قائمة غيرهم» أ.هـ

ويتتبع القول عن بني شعبة وجد ان نسبهم بني على تشابه اسم، وعلى اساس انهم ذرية وعقب شعبة بن المهلهل بن ربيعة فارس ربيعة في العصر الجاهلي وشقيق وائل بن ربيعة المعروف باسم كليب، وقد مر معنا في تاريخ ربيعة ان المهلهل عندما سأم من حرب بني عمومته ارتحل إلى اليمن وتزوج هناك من مذحج وعقب هذه القبيلة المعروفة والتي تنتسب إلى ابنه شعبة.

وهذه أشبه ماتكون بخيالات عامية، فرضتها قوة وشهرة بني شعبة وسطوتهم في عهد ابن سعيد، متزامنة مع ما نقل في تلك الأزمنة وما بعدها عن قصة المهلهل أو (الزير سالم) كما عرف عن رواة الادب الشعبي.

ولكننا وبتحليل منطقي ومقنع ومبني على المصادر نجد انه من المفترض ان تعرف بني شعبة كبطن ربعي في القرن الأول الهجري ان كان جدهم شعبة قد عاش في الجاهلية، لاأن تظهر لنا فجأة في القرن السابع بهذا العدد الكبير الذي ذكره ابن سعيد، كما ان السجلات التاريخية والوثائق الكثيرة عن انساب واخبار ربيعة السابقة على زمن ابن سعيد الاندلسي لاتعطينا أي خبر عن هذه القبيلة ضمن ربيعة، رغم انها قالت بتواجد بطون من ربيعة باليمن مثل اكلب وعنز، ولم يذكر أن المهلهل قد عقب عقباً عرف باسم ولده شعبه، بل ان ابن حزم الأندلسي في كتابه جمهرة انساب العرب قال «لا نعلم للمهلهل ولداً ذكراً».

ولعل إشاعة بعض العامة أن تكون هذه القبيلة من نسل الزير سالم مرده لما لهذه القبيلة من سطوة وقوة في زمن ابن سعيد بل حتى بعده، مما جعل البعض بعتقد بتعاقبهم من المهلهل الذي صورته الروايات الشعبية بطلاً اسطوريًّا. وبقي ان نقول ان بني شعبة قبيلة لا تزال معروفة باسمها ومركزها الدرب التابع لمنطقة جازان وهناك بطون منها في سراة الحجاز.

اذن يبقى عنزة وعنز بني وائل هم بقية ربيعة الصرحاء منذ القرن السابع وحتى اليوم:

لعل من الغريب أن نجد شبه اختفاء لبطن ربعي اسمه بني عنز بن وائل في الكتب القديمة، حيث لم تذكر تلك الكتب إلّا أن بني عنز بطن ربعي تيامن ودخل في حلف مع خثعم، ولم تظهر رموز أو اعلام من هذه القبيلة سوى اشارة المراجع إلى وجود أحد الصحابة من بني عنز وهو عبدالله بن عامر العنزي حليف بني عدي من قريش رهط عمر بن الخطاب ﷺ[(١)]، وأورد السمعاني في كتابه الأنساب ان من بني عنز وائل محمد بن جابر بن وهب بن شاهر بن أمية العنزي.

وغير خبر هذين العلمين لم تردنا اخبار عن اعلام تذكرمن عنز بن وائل، أو احداث تاريخية اشتركوا فيها، وذكر ابة عبيد معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩هـ ان عدد العنزيين في الارض قليل ويعني عنز بن وائل-[(٢)].

والأخبار التي ينقلها بعض المؤرخين عن تفرق قبائل ربيعة ومنها

---

(١) وقد وردت ترجمة هذا الصحابي في عدة كتب منها تاريخ الرسل والملوك للعلامة الطبري، ويعتبر هذا الصحابي من جملة الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر الكبرى.

(٢) الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة للبري وكذلك الاستيعاب في معرفة الاصحاب.

(معجم ما استعجم) لأبو عبيد البكري تقول ان عنز بن وائل اسمه عبدالله بن وائل، وان بنيه تيامنوا إلى اليمن وحالفوا قبائل خثعم بينما بقيت ربيعة الام وقبائلها الأخرى في الشمال العربي.

ثم اتى الحسن الهمداني المتوفى سنة ٣٣٣هـ على أصح الاقوال، وذكر فروع بن عنز في جنوب الحجاز بما يعرف اليوم بمنطقة عسير، ومن الفروع التي ذكرها الهمداني لبني عنز بن وائل في تلك المنطقة: بني اسد، وبني كود، وبني مالك، وبني عبدالله بن عامر، وبني شيبة، وبني حازمة. وذكر الهمداني أن قبيلة عسير تتبع عنز بن وائل ولكنها لا تنتسب إليها[١].

وعندما تحدث ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ في كتابه (جمهرة انساب العرب) عن بني عنز بن وائل ذكر معلومة غريبة عنهم حيث قال ان عددهم يبلغ عشرات الالوف في جهة الجند من اليمن، وهذا يناقض ما نقل عن أبي عبيدة بن عمر المثنى المتوفى سنة ٢٠٩هـ من ان عدد العنزيين في الارض قليل، ولعل القاريء يقول ان الفرق بين زمن ابن حزم وابن المثنى هو أكثر من قرنين من الزمن، وهي كفيلة أن يتكاثر خلالها هذا البطن الربعي وبالتالي فلا معنى لتعجبنا من نص ابن حزم عن عدد العنزيين الوائليين تلك الحقبة.

لكن اشارة ابن حزم إلى عدد بني عنز بن وائل تدل ان عددهم الذي كان كثيراً وملفتاً للنظر أكثر من بطون ربيعة الأخرى التي تحدث عنها ابن حزم رغم انها اولى في لفت نظره.

---

(١) الحسن بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب تحقيق القاضي الاكوع، ويتوارث ابناء قبيلة عسير انهم من أزد شنوءة، واكد ذلك الدكتور محمد حسن غريب الألمعي في مقال نشر في جريدة الرياض السعودية الصادرة يوم الجمعة ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٦هـ - ٢٩ ابريل ٢٠٠٥م - العدد ١٣٤٥٨، وهذا يدل على صحة ماذكره الهمداني عن نسب عسير إلى قبائل اليمن (أزد السراة) وليس إلى عنز بن وائل كما يقال لدى بعض المعاصرين.

عنزة بن أسد هم ذاتهم بني عنز بن وائل:

وعلى الرغم من وجود هذه الاشارات لا نجد اليوم ذكراً لقبيلة باسم عنز بن وائل في منطقة عسير، أو اليمن، بينما نجد عنزة القبيلة المعاصرة تحفظ انها من عناز بن وائل، وهذا يقودنا إلى القول ان عنزة وعنز ما هم إلّا قبيلة واحدة تتسمى باسم عنز أو عنزة، وسندلل على الإشارات والقرائن الدالة على هذا كما يلي:

١- ان عنز بن وائل لم يتيامنوا بمعنى انتقلوا إلى اليمن، بل ان ربيعة كلها كانت في اليمن في الجاهلية وقبل الإسلام، ثم لما نزل الربعيون نجد وانتشروا في شمال بلاد العرب بقي منهم بطن من عنزة وهو من عرف بـ (عنز بن وائل)، لكن المؤرخين الاوائل ذكروا ان عنزا تيامنوا ونقلت نصوصهم من قبل المعاصرين واخذت على ظواهرها دون تمحيص أو الاخذ بالاعتبار ان ربيعة كلها كانت تستوطن اليمن.

٢- مما يؤكد ان عنز هي ذاتها عنزة ان عنزة في القرن السابع حلفاء لـ آل مرا من ربيعة طيئ كما هو موثق، ولو نلاحظ نجد عنزة كما نقل الحمداني المتوفى سنة ٦٠٢هـ كانت ضمن عدة قبائل تابعة لنفوذ آل مرا، والقبائل التي مع عنزة هي: عدوان، الظفير، غزية، خثعم، ونريد التركيز هنا على كل من خثعم وغزية.

فنجد ان المؤرخين الاوائل نقلوا ان عنز بن وائل حلفاء لخثعم ومنهم أبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٧٨هـ، ثم يطل علينا نص من كتاب (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) لمؤلفه المقدسي البشاري المتوفى سنة ٣٨٠هـ، وفي نصه يقول ان بني عنز بن وائل في غزية ودارهم في عالية نجد.

ومن المؤكد ان المقدسي يتحدث عن زمنه وهو هنا اوائل القرن

الخامس الهجري، وانه يقول ان بني عنز في غزية المجاورين لعنزة وفق نص الحمداني وابن فضل الله العمري.

وبمقارنة هذه النصوص تؤكد ان المسميين (عنز وعنزة الوائلية) لم يكونوا قبيلتين منفصلتين وتحملان نفس الاسم، بل هم قبيلة واحدة حليفة لطيئ إلى جانب خثعم وهذا الاقرب للصحة.

وهناك أدلة أخرى تؤكد ماذهب إليه بخصوص عنز وعنزة وانهم قبيلة واحدة هي عنزة الوائلية المعاصرة يضاف إليها من انصهر فيها من بطون ربيعة الأخرى، منها ماذكره صاحب قصيدة ذات الفروع[١] الشريف محمد بن عبدالله بن منصور الزيدي[٢] المتوفى سنة ٦١٤هـ أي في القرن السابع الهجري، وقد ذكر الشريف قبيلة ربيعة وبطونها، وقد اورد عنزة باسم عنز لتستقيم له القافية:

ومنهم بنو النمر بن قاسط للعلا   وعنزا إذا عد الفخار وتغلب

وعنزا نفوا نهد ابن زيد وجدعوا   معاطسهم بعد اصطلاح فأوعبوا

ومن الواضح انه يقصد حادثة القارظ العنزي في قوله (وعنزا نفوا نهد ابن زيد وجدعوا)، حيث بني نهد من قضاعة منهم الرجل الذي كان يتعشق لفاطمة اليذكرية العنزية، والذي تسبب قتله بحرب ربيعة وقضاعة (راجع حادثة القارظ العنزي).

والملفت للنظر ان الشريف الزيدي ورغم انه من سكان اليمن لم يذكر ان عنز وعنزة كبطنين من ربيعة مختلفين، فبناء على ظاهر نص الشريف نجده يقصد عنز بن وائل، ولكن حادثة القارظ العنزي كانت لعنزة بن اسد بن ربيعة كما مر معنا.

---

(١) القصيدة منقولة من كتاب (كنز الأنساب ومجمع الآداب) لمؤلفه حمد بن إبراهيم الحقيل.

(٢) وهو حاكم اليمن على زمنه.

وتفسير هذا ان حادثة القارظ العنزي وقعت عندما كانت ربيعة في اليمن في العصر الجاهلي، يدل على ذلك أن بلاد القرض قديماً هي اليمن حيث قتل القارض العنزي[1]، ثم لما رحلت ربيعة وتقاطرت إلى الشمال بقي بطن من عنزة هم من عرف ببني عنز بن وائل في تلك الجهات، ولايناقض هذا القول بأن عنزة هو ابن اسد بن ربيعة المباشر وفق ابن الكلبي ومن نقل عنه، اذا ان عنزة كانت عدادها كبطن من بكر بن وائل كما ذكرنا مسبقاً، ولذلك اشتهرت عنزة باليمن ببني عنز بن وائل، لكن بني عنز التحقوا فيما بعد بقبيلتهم الام عنزة التي ضمت بطون تغلب وبكر والنمر وضبيعة، ومن جمعهم هو حلفهم لطيئ الذي نرجح انه انعقد في القرن الخامس الهجري واستمر حتى اوائل القرن التاسع الهجري.

ثم نجد نصًّا لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفي في مصر سنة ٨٢١هـ، حيث جعل في كتابه (نهاية الارب في انساب العرب) في باب (وائل) اسم عنزة مردافة لعنز، والقلقشندي كان حريصا ومثل ابن خلدون على مضاهاة ما نقل عن الأنساب قديماً بما كان مستفيضاً ومعروفا بزمنه هو[2].

فكل هذه الادلة والقرائن تجعلنا نراجع مفهومي (عنز) و(عنزة)، والذن تم تسويقهما في كتب النسابين القديمة كقبيلتين من اصل واحد وباسم متقارب جدًّا وهم في الواقع قبيلة واحدة على قسمين جنوبي وشمالي.

---

(١) الاعتماد في نظائر الظاء والضاد لأبن مالك صفحة ٧ حيث قال عن القارظ العنزي: «منسوب إلى بلاد القرظ، وهي بلاد اليمن لأنها منابت القرظ» أ.هـ

(٢) راجع كتاب (نهاية الارب في معرفة انساب العرب) رسم (بني وائل بن قاسط من ربيعة).

ويضاف لهذا كله قياسنا الغائب على الحاضر، وهو مبدأ تاريخي هام شرحه ابن عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه، وبتطبيق هذا المبدأ على موضوعنا عن تواجد قبيلتين باسم متقارب (عنز وعنزة) نجد في هذا الزمن وجود قبيلة واحدة فقط كبيرة هي التي تنفرد باسم عنزة الوائلي، بينما لانجد للقبيلة الافتراضية الأخرى - والتي تحمل نفس الاسم - أي تواجد يذكر ونسب يعرف. فهذا وحده كفيل باثبات ان من يحمل اسم عنزة أو (عنز) هي قبيلة واحدة لا غير.

وفي حوادث سنة ٥٩٨هـ (اوائل القرن السابع) نقل لنا ابن الأثير المؤرخ خبراً غريباً عن من اسماهم بني عنزة، وهي أن وباءً وقع في قراهم بين الحجاز واليمن وكان عدد القرى عشرين قرية، قتل هذا الوباء سكان ثمانية عشر قرية من هذه القرى، بينما لم يشعر سكان القريتين الباقيتين بما حدث لاخوانهم[١].

وانا لا أكاد أشك أبداً أن هؤلاء هم عنزة الوائلية المعاصرة والدليل قول المؤرخ ابن الاثير اسم (عنزة) وهو اسم القبيلة الحالي، وكانوا حلفاً في آل مرا مع قبائل غزية وخثعم ومطير والظفير بعد قدومهم بلاد ربيعة في العراق والتحامهم مع اخوانهم في الجنوب.

ولا شك أن حادثة كهذه اثرت على قبيلة عنزة تأثيراً بالغاً، جعلت ذكر القبيلة يخمد لفترة من الزمن حتى جاء القرن التاسع الهجري الذي ظهرت في عنزة الوائلية كاقوى قبائل المنطقة بعد انحسار قوة قبائل طيئ.

انتشار قبائل عنزة الوائلية في نجد والحجاز في القرن السابع الهجري وما بعده إلى القرن الحادي عشر الهجري

اخذت قبائل عنزة الوائلية في التجول في نجد طلباً للرعي، منطلقة

(١) تاريخ ابن الاثير، حوادث سنة ٥٩٨هـ.

من مركزها الرئيسي في خيبر أو على وجه الدقة من المنطقة الواقعة بين حرة هتيم وحرة خيبر غرب جزيرة العرب.

ولا شك بأن اتصال عنزة بمناطق نجد يعتبر اتصالاً طبيعيًّا للغاية في مرحلة تاريخية كهذه، بسبب عدم وجود مراعي كافية في مناطق الحجاز الوعرة، إضافة لعلاقة عنزة بقبائل طيئ التي تتجول معها في برية نجد كما اشار ابن خلدون في تاريخه.

ولا صحة لما يقال في بعض البحوث المعاصرة ان نجدا هي المركز الرئيسي لقبائل عنزة قبل ان تفكر بهجرة مفاجئة إلى شمال بلاد العرب وتنتشر في الشام والعراق، بل ان علاقة عنزة بشمال بلاد العرب قديمة وتعود إلى مراحل تاريخها الأول عندما كانت حيًّا في بكر بن وائل مع سائر ربيعة.

وفي هذه المرحلة تبلورت بطون عنزة إلى البطون المعروفة اليوم وهي بشر ومسلم، ومن يتفرع منهم.

وفي منتصف القرن السابع الهجري تقريباً بدأت عنزة تتحلص من تبعيتها لقبائل طيئ، حيث حدث تغير سياسي في شرق جزيرة العرب تمثل بزوال الحكم العيوني ونشأة الامارة العصفورية العامرية، حيث مالت عنزة لقبائل بني عامر، وقد تمحورت قبائل بني عامر فيما بعد على اسم (بني خالد) الذي كان فرعا صغيراً منها، بينما اختزلت القبائل الطائية إلى قبائل هامة في تنتشر في نجد والحجاز والشام والعراق وأبرزها: بني لام، الفضول، الظفير، شمر، بني صخر، والسرحان.

أصبحت عنزة محسوبة على ما يمكن ان نسميه المعسكر الشرقي بقيادة آل عصفورثم الجبور لاحقاً، وتنافسها قبائل طيئ الآنفة الذكر حيث تتبع هذه القبائل لقوى الاشراف في الحجاز.

ووجدت قبائل عنزة الوائلية في هذه الفترة منافسة شديدة على طرق الحج من قبل القبائل الطائية، وخاصة من قبل بني صخر والظفير المجاورين للقواعد الأساسية لعنزة قرب خيبر.

وقد كان التفوق واضحا لقبائل طيئ طوال الفترة من أواخر القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الهجري، ويتضح ذلك من شهرة قبيلة مثل بني لام في المنطقة حيث لا تزال الذاكرة الشعبية تحفظ الكثير من القصص التي تعكس قوة هذه القبيلة إلى يومنا هذا.

قيام دولة آل جبر

ينتمي آل جبر أو كما يعرفون باسم (الجبور) إلى بني عقيل بن عامر، ثم انضوو في مسمى بني خالد ولا زالوا احدى الفروع الخالدية المعروفة اليوم، وظهرت في فترة الجبور قوة التحالف (الخالدي الوائلي)، وهي التي جعلتنا نقول ان هذا التحالف اقدم من ظهرو الجبور ونرجح ابتداء امره في فترة الحكم العصفوري كما قلنا سابقاً.

ويبتدىء أمر عائلة الجبور سنة ٨٢٠هـ تقريباً على يد سيف بن زامل الجبري العقيلي، وهو من قضى على الامارة العصفورية، ثم تعاقب حكام الجبور على المنطقة واشتهر امرهم فظهر اجود بن زامل ثم محمد بن اجود إلى وصلت الامارة إلى مقرن بن اجود الذي قتله الغزو البرتغالي لجزيرة العرب سنة ٩٢٧هـ.

ادى تحالف قبيلة عنزة الوائلية مع آل جبر هؤلاء إلى ازدياد شهرة ونفوذ عنزة في جزيرة العرب تلك الفترة، كما ان فترة حكم آل جبر لمنطقة نجد تميزت فيها الأمور نوعاً ما في الاستقرار السياسي، واهتمام حكام آل جبر في الثقافة والتعليم لا سيما زمن اجود بن زامل، فأصبحت في نجد والاحساء حركة علمية وثقافية ملموسة ظهر تأثيرها لاحقاً على المنطقة، اذ انجبت نجد لأول مرة مؤرخين ومثقفين وعلماء دين في

القرون (العاشر - الحادي عشر - الثاني عشر الهجري)، وهذا ساهم في توثيق جزء لا بأس به عن تاريخ جزيرة العرب زمن دولة آل جبر.

ورغم ان قبيلة عنزة الوائلية كانت تتجول في جميع ارجاء بلاد العرب تلك الفترة وخاصة في الاقاليم (نجد والحجاز والشام والعراق) إلّا أن مركز القبيلة الرئيسي بقي يتمثل في المناطق الواقعة شرق وشمال المدينة المنورة، أي ان القبيلة بقيت قرب محميتها الاستراتيجية (خيبر).

ويذكر عبد القادر الجزيري المتوفى سنة ٩٧٧هـ ان قبيلة عنزة على عهده تمتد منازلهم من الحنك شرقي المدينة النبوية إلى ابيار علي، وذكر الجزيري بطون عنزة المعاصرة واصفا اياها بالبدنات[١]، ومن بطون عنزة التي ذكرها الجزيري بشر وولد علي والمصاليخ والحجاج والسبعة والفدعان ووهب والطوالعة والجلاس.

ونص الجزيري هذا يعتبر اقدم مصدر يذكر بطون عنزة الحالية، ويعتقد قاريء هذا النص ان الجزيري هنا خلط كثيراً بذكر لهذه البطون دون مراعاة توزيعها وتشابكها داخل الخارطة الوائلية، فعلى الرغم ان - ولد علي مثلاً - فرع من بني وهب إلّا أن الجزيري ذكر كلا الاسمين كبطنين منفصلين.

ونحن نذهب إلى أن الجزيري هنا قدم خدمة كبيرة بذكره لهذه البطون في فترة غامضة وهي القرن العاشر، وهو ليس ملزم بعلاقات هذه البطون مع بعضها وخاصة انه - وكما يبدو - لم يحتك بقبيلة عنزة ورجالاتها تلك الفترة حيث من المؤكد انه ذكر هذه البطون حسب ماتناهى إلى سمعه عنها.

---

(١) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة - تاليف عبد القادر الجزيري ج٢ ص١٥٤ وعبد القادر هذا كان كاتباً للحج المصري بعد ظهور العثمانينن على الساحة العربية سنة ٩٢٣هـ.

والقيمة التاريخية لنص الجزيري تتمثل في نقطتين:

الأولى - ان ذكر الجزيري لهذه البطون يدل على قدم كثير من مسميات عنزة المعاصرة، وخاصة بطون مثل المصاليخ والشراعبة والحجاج. وهذا يؤكد ان تشكل هذه الاسماء في الخارطة الوائلية قديم جدًّا أكثر مما قد يتصور البعض.

النقطة الثانية: يدلنا نص الجزيري على وحدة قبائل عنزة حتى القرن العاشر الهجري على اقل تقدير، وبل وان هذه الوحدة استمرت فترة طويلة قبل تعدد ظهور زعامات أخرى في القبيلة ساعدت - إلى جانب الظروف السياسية - في تفرق بطون القبيلة عن بعضها وأصبح كل منها يشكل كيانان قبليًّا مستقلًّا.

استيلاء عنزة على واحة العُلا:

وفي هذه المرحلة من تاريخ القبيلة ازداد اسم عنزة لمعاناً وظهرت بوضوح في المصادر والوثائق كاهم الكيانات القبلية العربية، وأورد الجزيري العديد من اخبار قبيلة عنزة ومضايقتها للحجاج والسلطات رغبة منها في فرض اتاوة يبدو لنا أنها لم تحقق الا بعد استيلاء القبيلة على واحة هامة على طريق الحج هي ماتعرف اليوم باسم العلا (وادي القرى)، هذه الواحة كانت ملكيتها تعود لقبائل الظفير وبني صخر وبني لام[1]، هذا الاحتلا نكاد نجزم انه لم يحدث قبل القرن حلول القرن الثامن عشر الميلادي (١٧٠٠-١٧٩٩م)

---

(١) اورد الجزيري في كتابه رن أحد الحجاج يصف نزوله في مدائن صالح قرب العلا بقوله:

بأرض بها آثار ناقة صالح   بنو صخر السراق شر قبيل

وتعتبر مدائن صالح اليوم من ديار الفقرا من المنابهة من عنزة.

ولعل من الغريب ان يذهب المستشرق أوبنهايم[١] إلى القول ان قبيلة عنزة احتلت واحة العلا ووادي القرى في حوالي القرن الخامس عشر الميلادي (١٤٠٠-١٤٩٩م) وهو تقدير من اوبنهايم تكذبه الوقائع التاريخية للقبيلة، فرغم ان عنزة وديارها في القرن الخامس عشر الميلادي لاتبتعد كثيراً عن العلا، إلّا أننا لا نستطيع أن نقول ان هذه الواحة اصبحت من ديار عنزة قبل مطلع عام (١٧٠٠-١١١١هـ) أو قبل ذلك ببضعة سنوات قليلة، عندما بدأت هجمات القبيلة على هذه الواحة رغبة في الحصول على اتاوة طريق الحج الشامي بعد الفشل في الحصول على هذه الاتاوة من الجهة الشرقية للمدينة المنورة.

وكانت قبيلة عنزة قبل ان تفكر في واحة العلا ووادي قد اكثرت الغارات على المدينة المنورة، ويصف عبد القادر الجزيري بناء السلطان العثماني سليمان بن سليم (٩٢٦هـ -٩٧٤هـ) لسور المدينة في زمنه بانه حدث تاريخي هام، تم من خلاله انهاء سيطرة عربان عنزة والظفير على المدينة النبوية والتي استمر دهرا طويلا قبل بناء هذا السور.

ويصف المؤرخ ابن كنان[٢] هجوم قبائل عنزة على المدينة المنورة، سنة ١١١١هـ، واخافتهم للحجيج، ثم استيلائهم على العلا وتحويل ايرادات السرة إليهم، ووصف زعيم منافس لعنزة هو كليب واعتقد انه من قبيلة بني صخر الطائية.

كان زعيم عنزة واسمه (الدبيس) واخوه (زيدان) قد قادوا عدة مواجهات مع العثمانيين لإجبارهم على تسليمه واحة العلا وتحويل أموال الصرة وحماية الحجيج إلى قبيلتهم، ورصد ابن كنان سلسلة مناوشات بين الدبيس وكليب وانصاره العثمانيين لم تنقطع الا سنة ١١٢٠هـ.

---

(١) كتاب البدو لـ ماكس. ف. أوبنهايم. ج١.

(٢) ابن كنان مؤرخ دمشقي في العهد الثماني ارخ سنواته من ١١١١هـ وحتى ١١٥٣هـ.

هذه الصراعات بين عنزة وقبائل طائية مثل الظفير وبني صخر وبني لام كانت استراتيجية وعلى أكثر من صعيد (نجد. . الحجاز. . الشام)، وكان الاشراف الحكام في مكة وباديتهم كما قلنا سابقاً مائلين لقبائل الظفير[1] ضد قبائل عنزة الوائلية المدعومة بدورها من بني خالد الجبور، ولعل ابرز دليل على هذا هي قبض الشريف سعد بن زيد على مئة شيخ من شيوخ عنزة واسرهم في مكة المكرمة سنة ١١١١هـ، والتي بدوا انه جاءت كردة فعل من الهجوم العنزي الأول على العلا والذي ذكرناه آنفاً.

وهكذا أصبحت قبائل عنزة الوائلية تمتد وتنتشر على أكثر من اقليم في بلاد العرب، وظهرت في هذه الفترة بيوت عنزة الكبرى والتي أصبح لها شأن بعد ذلك كزعامات بارزة في القبيلة بل وتجاوزت شهرتها شهرة القبيلة ذاتها.

ومن هذه البيوت ظهر المردة (اسلاف آل سعود) وأسرة آل طيار، واسرة الشعلان، وآل هذال وآلخليفة وغيرهم.

وجميع هذه الاسر استثمرت العلاقات الوائلية مع قبيلة بني خالد لمد نفوذها في مناطق نجد والحجاز، إلى درجة ان شاع في جزيرة العرب ان لبني خالد علاقة نسب مع قبيلة عنزة الوائلية.

الخلاصة:

وبهذا نصل إلى ختام مبحثنا عن تاريخ ربيعة حتى مرحلة قبائل عنزة الوائلية المعاصرة بفروعها المعروفة اليوم، وقد اردنا التأسيس لدراسة

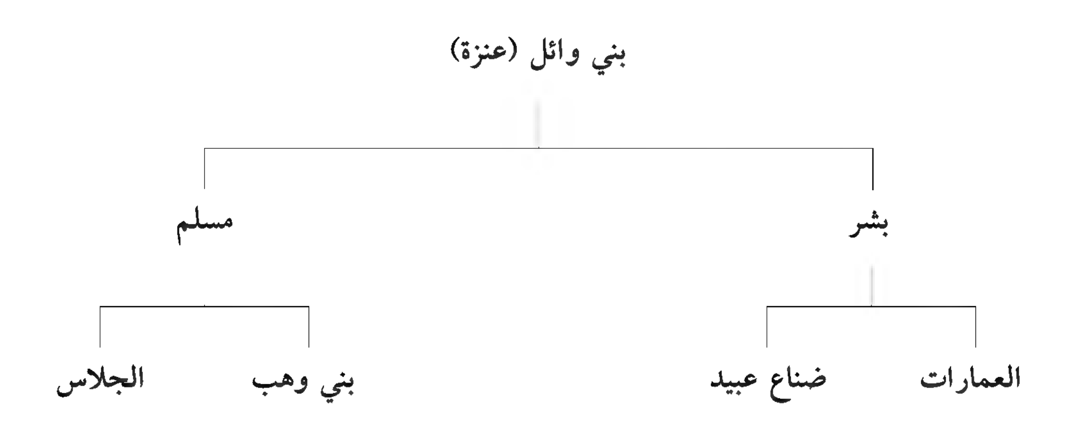
---

(١) ليس ادل من قوة الترابط بين الاشراف والظفير ان اصبح بني حسين الأشراف في عداد قبيلة الظفير إلى يومنا هذا. وقد بدأ حلف الأشراف مع الظفير يتخذ طابعاً رسميًّا منذ سنة ١٠٩٦هـ عندما اعلن سلامة بن سويط زعيم الظفير دخوله بطاعة الاشراف (بنو خالد وعلاقتهم بنجد لعبد الكريم الوهيبي ص ٢٠٢).

تاريخ هذه القبيلة منطلقين من كون القبيلة الوائلية المعاصرة هي امتداد ديمغرافي تاريخي لقبيلة ربيعة بكاملها، وليس فقط امتداد لفروع منها، انما فقط غلب على اسم القبيلة اثنين من اشهر اسماء بطونها سابقاً، وقد سبق وان بينا في مقدمة الكتاب الأسباب والعوامل التي جعلتنا نتخذ وبثقة هذا الاساس، وفي مايلي اهم النقاط التي فصلناها:

أولاً- إن القبيلة المعروفة باسم بني وائل هي قبيلة عنزة فقط.

ثانياً- إن اسم عنزة ولقب بني وائل حصريين على قبيلة واحدة وبتوزيعها الحالي كما في الشجرة الموضحة:



ثالثاً- لم يعد من اسماء بقية البطون الربعية القديمة أي اسم يُعرف الا داخل بطون عنزة المعاصرة، مثل اسم (بشر) والذي كان قديماً في تغلب، واسم القعقاع الذي يعتبر اليوم بطناً كبيراً في الجلاس، واسم وهب المندرج في ضنا مسلم، علاوة على اسمي وائل وعنزة الجدين الشاملين لكل هذه البطون، ولذلك ذهبنا إلى عموم الاسمين على بقية اسماء البطون وتحولهم إلى قبيلة واحدة باسم عنزة الوائلية المعاصر.

رابعاً- قدما ضمن المبحث ترجيحنا لكون قبيلتي (عنز) (وعنزة)

الربعيتين هم في الوقع قبيلة واحدة اسمها عنزة، وقدمنا من الادلة مايؤيد ترجيحنا هذا.

وفي الختام نتمنى ان ان نكون قد قدمنا للمكتبة العربية دراسة جادة عن تاريخ بني وائل، ونسأل الله العلي القدير أن يتقبل صالح اعمالنا انه سميع مجيب.

فهرس المحتويات